الألف كتاب
الثاني
٢٠٣

رحلات ماركو بولو

الجزء الثالث



ترجمها إلى الإنجليزية: وليم مارسدن
ترجمها إلى العربية: عبد العزيز جاويد

الهيئة المصرية
العامة للكتاب

رحلات ماركو بولو

رحلات ماركو بولو

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام
د. سمير سرحان
رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير
لمعى المطيعى

مدير التحرير
أحمد صليحة

الإشراف الفنى
محمد قطب

الإخراج الفنى
لمياء محرم

مكتبة
شيخ المترجمين
عبد العزيز توفيق جاويد

رحلات ماركو بولو

ترجمها إلى الإنجليزية

وليم مارسدن

ترجمها إلى العربية

عبد العزيز جاويد

الجزء الثالث

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

هوامش الجـــزء الثـالث

الموضــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الفصل الأول

عن الهند ، مقسمة الى الهند الكبرى والصغرى والوسطى — عن عادات سكانها وأعرافهم وعن أشياء كثيرة عجيبة وخارقة تلاحظ هناك ، وقبل كل شيء عن نوع السفن المستعملة في الملاحة •

أما وقد تناولنا ، في الأجزاء السابقة من عملنا ، ولايات وأقاليم مختلفة ، فاننا الآن سنودعها وننتقل الى حديث الهند ، التي ستروى على مسامعكم قصة ظروفها المعجبة • وسنبدأ حديثنا بوصف للسفن التي يستخدمها التجار ، وهي سفن مصنوعة من خشب التنوب (١) •

وللسفن سطح وحيد يقسم الفراغ تحته الى حوالي ستين مقصورة صغيرة ، تقل أو تزيد تبعا لحجم السفن ، وكل منها معدة لنزول تاجر واحد (٢) • وهي مزودة بدفة جيدة • ولها أربع ساريات لكل منها شراع ، كما أن لبعضها ساريتين يمكن اقامتهما وخفضهما ثانية حسب الضرورة(٣) •

ولبعض السفن ذات الحجم الأضخم، فضلا عن (المقاصير) أو الحجيرات ، تقاسيم : (حواجز) تصل الى ثلاثة عشر وتقوم في مخزنها ، وهي تتكون من فلنكات غليظة ، تعشق بعضها في بعض Incastrati (أي مثبتة بالنقر واللسن أو بالافتراز حفرا وتعشيقا) • والغرض من هذه هو الاحتياط

من الحوادث التي قد تعرض السفينة لصدع يعرضها للرشح المائي ، كالاصطدام بصخرة أو تلقي ضربة من حوت ، وهي حالة كثيرة الحدوث ، وذلك لأن السفينة حين تمخر الماء ليلا .. يحدث اختراقها للأمواج زبدا أبيض يستلفت نظر الحيوان الجائع وتوقعا للحصول على الطعام يندفع بشدة الى البقعة ، فيصدم السفينة ، وكثيرا ما يدفع نحو الداخل جزءا من قاعها .

واذ يجري الماء من المكان الذي حدثت فيه الاصابة ، فانه يتسرب الى بئر السفينة ، التي يحتفظون بها على الدوام خالية من كل شيء . ومتى اكتشف الملاحون موقع الثقب والتسرب يبادرون على الفور الى ازالة البضائع من القسم المتأثر بالماء ، وهنا لا يستطيع الماء نتيجة لشدة حبك الألواح بعضها مع بعض ، المرور من قسم الى آخر .

وعندئذ يصلحون التلف ، ويعيدون البضائع الى مكانها من العنبر الذي رفعت منه . وجميع السفن منشأة بألواح مزدوجة ، أعني ، أن لها طبقة أخرى من الألواح الواقعة الممدودة فوق فرشة الفلنكات بكل جزء من أجزاء السفينة - ثم تقلفط هذه الألواح بالشاقة (الحبال البالية) من الداخل والخارج ، كما تثبت بالمسامير الحديدية . وهي لا تطلى بالقار ، لأن البلاد لا تنتج تلك المادة ، ولكن تكسى قيعان السفن بالتركيب التالي : فيتناول الناس الجير الحي والقنب ، فيقطعون الأخير نتفا صغيرة ، وبعد دق الجير والقنب معا ، يضيفون اليهما نوعا من الزيت يحصلون عليه من شجرة معينة مكونين من المجموع ضربا من المعجون، يحتفظ بخواصه اللزجة بشكل أثبت ، كما أنه مادة أفضل من القار(٤) .

وتحتاج أكبر السفن حجما الى طقم ملاحين عدده ثلاثمائة رجل ، كما تحتاج غيرها الى مائتين ، وغيرها الى مائة وخمسين فقط ، حسب تفاوت حجمها كبرا وصغرا . وهي

تحمل عددا من السلال (أو زكائب الحصير المملوءة بالفلفل) يتراوح بين خمسة آلاف الى ستة ·

وكانت السفن في الأزمنة الحالية ذات حمولة أكبر مما هي الآن ، ولكن نظرا لأن شدة عنف البحر في كثير من الأماكن حطمت الجزر ولا سيما الموجودة منها في بعض الموانى الرئيسية ، فقد حدث نقص في عمق المياه بالنسبة لسفن من هذه الحمولة ، وبناء على هذا بنيت السفن ــ فيما بعد ذلك من الزمان ــ من حجم أصغر ·

وتحرك السفن بالمجاديف العادية والطويلة بدرجة سواء ، ويحتاج كل منها في تشغيله الى أربعة رجال · وسفن الحجم الأكبر تصحبها اثنتان أو ثلاثة من الباركات Barks الكبيرة (أى سفن بثلاث ساريات) سمتها ألف سلة من الفلفل ، وعليها ملاحون عدتهم ستون أو ثمانون أو مائة · وكثيرا ما تستخدم هذه السفن الصغرى في سحب الكبرى ، متى استخدمت مجاديفها ، أو حتى متى كانت تستخدم الشراع شريطة أن تهب الريح على جانب السفينة ، ولكن ليس من خلفها نصا ، وذلك لأنه في هذه الحالة لا مفر لقلوع السفينة الكبرى من أن تطغى على قلوع السفن الصغرى ، فتكون النتيجة أن تصطدم بها · وتحمل السفن معها أيضا عددا من الزوارق الصغيرة يصل الى عشرة ، لكي تحمل المراسي الى حيث تلقى ، ولصيد السمك فضلا عن مآرب أخرى ، وهي معلقة على جوانب السفن ، وتدلى الى الماء متى دعت الحاجة الى استخدامها · أما البوارك (جمع باركة) فمزودة بالمثل بقوارب الصغيرة ·

واذا احتاجت سفينة الى اصلاح ، بعد أن تقضى في رحلة لها سنة أو أكثر ، فقد جرت العادة بكسائها بطبقة من الخشب تعلو ألواحها الأصلية ، مكونة طبقة ثالثة ، فتقلفط وتصمد بمادة عازلة بنفس طريقة معالجة الطبقات الأخرى ، ويتكرر

ذلك كلما احتاجت الى اصلاح جديد حتى يبلغ عدد الطبقات ستا ، وبعدها تدخل فى عداد عدم الصلاحية للخدمة وعـدم الجدارة بالابحار • والآن وقد وصفنا السفن فسننتقل الى الحديث عن الهند ، على أننا سنتحدث ابتداء عن جزر معينة توجد فى هذا القسم من المحيط الذى توجد فيه فى الوقت الحاضر ونبدأ حديثنا بالجزيرة المسماة : زيبانجو •

الفصل الثاني

عن جزيرة زيبانجو (١) ٠

ان زيبانجو جزيرة تقع في المحيط الشرقي ، وتبعد حوالى خمس عشرة مائة ميل عن أرض القارة ، أي عن ساحل مانجي (٢) ٠ وهي ضخمة المساحة ، وسكانها شقر البشرة ، حسنو الخلقة ، تنم عاداتهم عن التحضر ٠ ودينهم عبادة الأوثان ٠ وهم مستقلون تماما عن كل سلطان أجنبي ، لا يحكمهم الا ملوكهم (٣) ٠ ولديهم الذهب بأعظم وفرة ، لأن مصادره لديهم لا تنفد (٤) ، ولكن نظرا لأن الملك لا يسمح بتصديره ، فان عدد التجار الذين يزورون البلاد قلة قليلة ، كما أنها لا ترتادها سفن كثيرة قادمة من أقطار أخرى ٠ والى ذلك الظرف يصح لنا أن ننسب ما عليه قصر العاهل من فخامة وثراء خارقين ، وذلك حسبما يروى لنا من يتاح لهم دخول ذلك المكان ٠ فسطحه كله مكسو بصفائح الذهب ، بنفس الطريقة التي نغطى بها البيوت ، بعبارة أصح الكنائس ، بالرصاص ٠

وسقوف القاعات مصنوعة من نفس المعدن النفيس ، ولكثير من الأجنحة مناضد صغيرة من خالص الذهب ذي السمك الكبير ، كما أن للنوافذ أيضا حليات من الذهب(٥)٠ والحق أن ثراء القصر يبلغ من الوفرة العريضة ما يجعل من المستحيل نقل فكرة الى الناس عنه ٠ وتوجد اللآلىء أيضا بهذه الجزيرة بمقادير ضخمة ، وهي ذات لون أحمر (بمبى) مستديرة الشكل ، وكبيرة الحجم وتعادل أو تفوق في قيمتها

أثمان اللآلىء البيضاء (٦) . وجرت عادة طائفة من السكان بدفن موتاهم ، وطائفة أخرى باحراقهم (٧) .

وقد اعتادت الطائفة الأولى وضع احدى تلك اللآلىء فى فم الجثة . ويوجد بتلك البلاد أيضا عدد من الأحجار النفيسة .

وذاعت شهرة ثراء هذه الجزيرة ذيوعا عظيما جدا، حتى لقد ساورت رغبة قوية نفس الخان الأعظم قبلاى ، الذى يتولى الحكم الآن ، أن يغزوها ويلحقها بممتلكاته . ولكى ينفذ هذه الرغبة ، أعد عمارة بحرية ضخمة العدد ، أنزل بها عددا جما من الجند ، تحت قيادة اثنين من قواده العظام ، كان اسم أحدهما أبا كاتان ، واسم الآخر فونساتسين (٨) .

أقلعت الحملة من ميناءى زاى تون وكن ساى (٩) ، حتى اذا عبرت البحر الأوسط ، بلغت الجزيرة بسلام، ولكن دب دبيب الغيرة بين القائدين ، فنظر أحدهما الى خطط الآخر بازدراء ورفض تنفيذ أوامره ، فكانت عاقبة ذلك أن لم يستطيعا الاستيلاء على أية مدينة ولا أى مكان حصين ، عدا واحدا فقط ، أخذ عنوة ، بعد أن رفضت حاميته التسليم وصدرت التعليمات بعرضهم جميعا على السيف (اعدامهم) ، وطوعا لها قطعت رؤوسهم جميعا ، عدا ثمانية أفراد تمكنوا بفضل سحر شيطانى ، يتكون من جوهرة أو تعويذة ، أدخلت فى الذراع اليمنى بين الجلد واللحم ، من أن يصبحوا فى أمان من أثر الحديد الذى لم يستطع لهم قتلا ولا جرحا . على أنه لما اكتشفت هذه الحقيقة ، انهالوا عليهم بهراوة خشبية غليظة ، فماتوا لساعتهم (١٠) .

وحدث بعد مدة قصيرة أن ريحا عاصفة بدأت تهب بقوة عظيمة ، ودفعت سفن التتار الراسية قرب شاطىء الجزيرة دفعا حتى تشابكت . فقرر مجلس الضباط الذى عقد عندئذ

على ظهر احدى السفن ضرورة الإبتعاد عن البر ، ومن ثم فانه ما كادت الجند تعود الى اعتلاء السفن حتى انطلقت بهم الى عرض البحر ٠

ومع هذا فان الزوبعة اشتدت الى درجة بالغة العنف حتى أغرقت عددا من السفن ٠ وأنقذ من فيها من الناس أنفسهم بتشبثهم بقطع من خشب السفن المحطمة ، واستقروا على جزيرة تقع على حوالى أربعة أميال من ساحل زيبانجو ٠

فأما السفن الأخرى التى نجت من قبضة الاعصار ، لأنها لم تكن بالغة القرب من البر ، والتى اعتلاها القائدان ومعهما كبار الضباط أو أولئك الذين تؤهلهم رتبهم لقيادة مائة ألف جندى أو عشرة آلاف ، فقد يممت شطر وطنهم وعادت بهم الى الخان الأعظم ٠ فأما التتار الذين خلفوا على الجزيرة التى تحطمت عليها سفنهم ، والذين بلغت عدتهم ثلاثين ألف رجل تقريبا ، فانهم لما وجدوا أنفسهم بلا سفن ، وقد تخلى عنهم قوادهم ، وتجردوا من السلاح والميرة ، فانهم لم يتوقعوا شيئا آخر غير الأسر أو الهلاك ، سيما وأن الجزيرة لم يكن بها مساكن يلجأون اليها ويجددون نشاطهم ٠

وما أن هدأت العاصفة وأصبح البحر أملس ساكنا حتى أقبل عليهم أهل الجزيرة الكبرى بجيش كبير ، ملأ سفنا جمة العدد لكى يأسروا هؤلاء التتار الذين تحطمت سفنهم ، حتى اذا هبطوا الى البر ، تقدموا ليبحثوا عنهم ، ولكن فى شراذم غير منظمة ٠

ولكن التتار تصرفوا من جانبهم بحذر الحصيف المتدبر ، ونظرا لتواريهم عن الأنظار وراء بعض المرتفعات فى وسط الجزيرة ، بينما كان العدو يسارع مهرولا فى البحث عنهم عن طريق واحد سلكه ، فانهم قاموا بدورة بحذاء الشاطىء

عن طريق آخر ، قادهم الى المكان الذى يرسو فيه أسطول زوارقهم .

فلما أن وجدوا هذه السفن مهجورة من أصحابها وعليها أعلامها ترفرف في الهواء ، اعتلوها على الفور واندفعوا بها بعيدا عن الجزيرة ، واتجهوا الى المدينة الرئيسية بزيبانجو ، فسمح لهم بسبب الأعلام بدخول مرفئها بغير اعتراض أو مضايقة (١١) وهناك لم يجدوا الى جانب النساء سوى قلة من السكان ، فاحتفظوا بالنساء ليكن فى خدمتهم وطردوا كل من عداهن .

ولما أبلغ الملك بما حدث أصيب بغم شديد ، وأصدر تعليماته على الفور بالقاء حصار شديد على المدينة ، بلغ من قوة فاعليته أن لم يستطع انسان دخولها ولا الفرار منها ، أثناء الشهور الستة التي استمر فيها الحصار . وبعد انقضاء تلك المدة ، سلم التتار ، وقد يئسوا من كل عون أو مدد ، شريطة النجاة بحياتهم .

حدثت كل هذه الأحداث فى عام ١٢٦٤ (١٢) . وعندما علم الخان الأعظم ، بعد بضع سنوات أن النتيجة الأسيفة للحملة كانت بسبب الخلاف الذى نشب بين القائدين ، أمر بقطع رأس أحدهما ، فأما الثاني فقد أرسله الى جزيرة زوروزا المتوحشة (١٣) التى جرت العادة باعدام المجرمين فيها بالطريقة التالية : فهم يطوقونهم حول ذراعيهم ، فى جلد جاموسة يؤخذ طريا من البهيمة فيخاط عليهم ، ضيقا محبوكا . فاذا جف الجلد ضغط على الجسم بشدة تجعل الضحية غير قادر على ابداء أى حراك ولا نجدة نفسه بأية حال من الأحوال ، وبذلك يهلك أتعس هلاك (١٤) .

الفصـــل الثـــالث

عن طبيعة الأوثان التي تعبد في زيبانجو ، وعن ولع الناس وادمانهم اكل اللحوم البشرية .

تصنع الأصنام بجزيرة زيبانجو هــذه والجزر الأخــرى القريبة منها ، على أشكال متعددة ، فلبعضها رءوس ثيران ، ولبعضها رءوس خنازير أو كلاب أو أعناز ، وكثير غـيرها من الحيوانات . ويظهر بعضها برأس واحد له ســحنتان ، ولبعضها ثلاثة رءوس ، أحدها بموضعه الطبيعي والآخران فوق الـكتفين . ولبعضها أربع أذرع ولغـيرها عشر من ثم جدير بأن يقدم له أشــد أنواع العبادة دقة وتفصيلا (١) . واذا سألهم المسيحيون : لماذا يضفون على آلهتهم هذه الأشكال المنـوعة ، أجابــوا بأنهم وجــدوا آباءهم من قبلهم كذلك يفعلون . فهم يقولون : « ان من سبقونا تركــوها كذلك ، وكذلك سننقلها الى من يخلفوننا » .

والممارسات المنوعة التي تمارس أمام هذه الأوثان شريرة وشيطانية بحيث يصبح تقديم بيان عنهــا في كتابنا هذا ، ضربا من عدم التقوى والفحش . ومع هذا فينبغى أن يعلم القارىء أن السكان الوثنيين في هذه الجزر يبادرون متى قبضوا على شخص أحد أعدائهم ممن لا يملكون المــوارد اللازمة لافتداء أنفسهم بالمــال ، الى دعــوة جميع أقاربهم وأصدقائهم الى منزلهم ، واذ يجهزون عليه فانهم يقطعون جسمه ويأكلونه ، بروح قصف مشترك ، مؤكدين أن اللحم البشري يفوق كل لحم آخر في نكهته وطعمه .

الفصل الرابع

حول بحر التشن ، الممتد بين هذه
الجزيرة وولاية مانجي .

وينبغي أن يكون مفهوما أن البحر الذى تقع فيه زيبانجو انما يسمى بحر الصين (١) وهذا البحر الشرقي مترام بالغ السعة ، بحيث انه طبقا لما يرويه محنكة الربابنة والملاحين الذين يرتادونه ، لابد أنهم على بينة من حقيقة الأمر ، لا يحتوى أقل من سبعة آلاف وأربعمائة وأربعين جزيرة معظمها مأهول (٢) . ويقال انه ليس من الأشجار التي تنمو بها ، شجرة واحدة لا تتضوع بأزكى الروائح (٣) . وهي تنتج كثيرا من التوابل والعقاقير ، وبخاصة خشب الصبر والفلفل الذى ينمو بوفرة عظيمة بنوعيه الأبيض والأسود (٤) . ومن المحال تقدير قيمة الذهب والأشياء الأخرى التي يعثر عليها بتلك الجزر ، بيد أن بعدها عن القارة سحيق ، كما أن الملاحة اليها محفوفة بمتاعب ومكاره شديدة بحيث ان السفن المستخدمة في التجارة ، بين ميناءى زاى تون وكن ساى ، لا تجني مكاسب كبيرة ، وذلك لاضطرارها الى استغراق سنة كاملة في رحلتها ، حيث تبحر في الشتاء وتعود في الصيف . وذلك لأنه لا تهب في هذه المناطق الا ريحان ، احداهما شتاء والأخرى أثناء فصل الصيف ، بحيث انهم مضطرون الى الاستفادة من الأولى في رحلة الخروج ، ومن الثانية في رحلة العودة الى الأوطان (٥) . وهذه الأقاليم سحيقة البعد عن قارة الهند . وينبغي لنا ،

أن ندرك تماما حين نسمى هذا البحر بحر الصين ، أنه جزء من المحيط ، وذلك لأنه كما نتحدث نحن عن البحر الانجليزى أو « بحر ايجه » ، فكذلك يتحدث أهل الشرق عن بحر الصين وعن بحر الهند ، بينما تدخل تلك البحار كلها تحت المصطلح العام وهو المحيط • وسنتوقف من الآن عن البحث فى شأن هذه الأقاليم والجزر ، بسبب شدة بعدها عن مجالنا ، فضلا عن أنى لم أزرها بشخصى ولأنها ليست تابعة لممتلكات الخان الأعظم • والآن نعود الى زاى تون •

الفصـــل الخامس

عن خليج كاينان وأنهاره ٠

اذا أنت غادرت ميناء زاى تون واتخذت اتجاها غربيـــا يميل نحو الجنوب ، مسافة خمس عشرة مائة ميل ، مررت على الخليج المسمى كاينان (١) ، الذى يمتد مسافة رحلة شهرين بحرا ، على امتداد شـــاطئه الشـــمالى ، الذى يؤلف حدود الجزء الجنوبى من ولاية مانجى ، ومن هناك الى حيث يقترب من أقاليم آنيا وتولومان ، وأقاليم أخرى كثيرة ورد ذكرها من قبل (٢) ٠ ويوجد فى هذا الخليج حشد كبير من الجزر ، معظمها آهل جدا بالسكان (٣) ، ويجمع من البحـــر حول سواحلها قدر كبير من تبر الذهب ، فى الأماكن التى تصب فيها الأنهار مياهها ٠ ويوجد هنـــاك كذلك النحـــاس وأشياء أخرى كثيرة (٤) ، وفى هــذه كلها تدور تجـــارة ، تزود فكيها كل جزيرة مثيلاتها بما لا تنتجه ٠ وهم يتجرون أيضا مع أهـــل القارة ، مبادلين عـــلى ذهبهم ونحاســـهم بما يحتاجون اليه من ضروريات ٠ ويزرع القمح بوفرة أيضـــا فى معظم هذه الجزر ٠ وهذا الخليج من شـــدة الاتســـاع ، وسكانه من الوفرة العددية ، بحيث يبـــدو كأنما هـــو عالم آخر ٠

الفصــل الســادس

عن اقليم زيامبا ، وعن ملك ذلك الاقليم ، وعن تحوله الى تابع للخان الأعظم .

الآن نعود الى الحديث عن موضوعنا السابق . عنـدما تغادر زاى تون وتبحر خمس عشرة مائة من الأميـال عبر ذلك الخليج، كما ذكر آنفا ، تصل الى بلاد تسمى زيامبا ، وهى ذات اتساع عظيم وثروة (١) . ويحكمها ملوكها الوطنيون ولها لغتها الخاصة . والسـكان بها من عبدة الأوثان (٢) . وتدفع للخان الأعظم (٣) جـزية سـنوية من الفيلة وخشب الصبر ، وسنروى لكم مناسبتها وظروفهـا فيما بعـد (٤) وحوالى ١٢٢٦ صمم قبـلاى ، وقد تلقى بيانات عن عظيم ثراء هذه المملكة ، على ارسال قوة كبيرة ، تكون من الخيـالة والمشاة ، للقيام بفتحها(٥) وتم غزو البلاد وفقا لذلك بجيش جرار ، وضع تحت امرة أحد قواده يسمى صوجاتو . فلمـا أن شعر الملك، وكان اسمه أكامبال(٦)، وشيخا كبيرا علت به السنون ، بعـدم قدرته على المقاومة فى ميدان القتال تلقاء قوات الخان الأعظم ، انسـحب الى معـاقله الحصينة ، التى أورثته أمنا وسلامة ، وهناك دافع عن نفسه دفاع الأبطال . على أن المدن المفتوحة ، والمساكن القائمة عـلى السـهول ، اجتيحت فى نفس الوقت ودمرت تدميرا ، فلما أن أدرك الملك أن بلاده سيدمرها العدو عن آخرها أرسل السفراء الى الخان الأعظم بقصد أن يعرض عليه أنه وهو الشيخ المسن الذى ظل على الدوام محتفظا بممتلكاته فى حالة من الهدوء والسلم ،

حريص على انقاذهم من الدمار الذى يتهددهم ، وأنه راغب نظير سحب الجيش الغازى ، في ان يدفع كل عام جزية تشريفية فخريه من الافيال والخشب الزكى الراتحة •
وعندما تسلم الخان الأعظم هذا الاقتراح ، اخذته الرحمة ، فارسل من فوره الى صوجاتو يأمره بالتراجع من هناك بالقوة تحت امرته ، ووجهه الى فتح أقاليم أخرى ، وهو أمر نفذ بلا توان (٧) • ومنذ تلك اللحظة داوم الملك على أن يرسل كل عام الى الخان الأعظم ، على صورة جزية ، مقدارا ضخما جدا من خشب الصبر(٨) مصحوبا بعشرين من أضخم وأجمل الأفيال التى توجد فى نواحيه (٩) • وعلى هذا النحو أصبح ملك زيامبا رعية للخان الأعظم •

والآن ، وقد قصصنا عليك ما سلف من أحداث ، فاننا سنذكر بعض الظروف المتعلقة بهذا الملك ومملكته • ففى المقام الأول ينبغى ألا يفوت القارىء أنه لا يمكن أن تتزوج فتاة فى مملكته ، حتى يبلوها الملك أولا • فمن حظيت منهن بمرضاته ، احتفظ بها ردحا من الزمن ، فاذا صرفها الملك ، نفحها مبلغا من المال ، حتى تستطيع أن تحصل ، طبقا لمنزلتها الاجتماعية فى الحياة على زيجة مناسبة ومجزية • وزار ماركو بولو هذا المكان (١٠) فى عام ١٢٨٠ ، وكان للملك فى تلك الفترة ثلاثمائة وستة وعشرون طفلا ، بين اناث وذكور • فأما الذكور فقد برزوا فى ميدان القتال جندا بواسل • وتكثر في البلاد الفيلة وخشب الصبر بوفرة • وبها أيضا كثير من غابات الأبانوس ذات السواد الرائع ، ومنها تصنع قطع أثاث جميلة متنوعة (١١) • على أنه ليس هناك طرف آخر يحتاج الى ذكر خاص • واذ نغادر هذا المكان فاننا سنتحدث الآن عن الجزيرة المسماة جاوة الكبرى •

الفصل السابع

عن جزيرة جاوة ٠

اذا أنت أقلعت من زيامبا ، وأبحرت بين الجنوب والجنوب الشرقي مسافة خمس عشرة مائة من الأميال ، بلغت جزيرة ذات حجم كبير جدا تسمي جزيرة جاوة (١) ، وهي ، فيما يقرر بعض أحسن الملاحين علما ، أكبر جزيرة في العالم ، اذ يربو محيطها على ثلاثة آلاف ميل ٠ وهي تحت سيادة ملك واحد فقط ، كما أن السكان لا يدفعون جزية لأية دولة أخرى ٠ وهم عبدة أوثان والبلاد زاخرة بالسلع الثمينة ٠ فالفلفل، وجوزة الطيب، وسنبل الطيب والخلنجان والكبابة الصيني والقرنفل وجميع الأنواع الأخرى الثمينة من التوابل والعقاقير هي من منتجات الجزيرة (٢) ، الأمر الذى يستدعى أن تزورها كثير من المراكب المحملة بالبضائع، التى تدر على أربابها مكاسب ضخمة ٠ ويفوق مقدار الذهب الذى يجمع هناك كل تقدير وكل تصور ٠ ومن هناك كان تجار زاى تون ومانجى بصفة عامة يستوردون ، ولا يزالون الى اليوم يستوردون من ذلك المعدن مقدارا ضخما ، ومن هناك ، أيضا يتم الحصول على الشطر الأكبر من التوابل التى توزع بكل أرجاء العالم (٣) ٠ فاما عن أن الخان الأعظم لم يخضع هذه الجزيرة لسلطانه ، فهو لابد راجع الى بعد شقة الرحلة وأخطار الملاحة (٤) ٠

الفصـــل الثامن

عن جزيرتي صوندور وكوندور ،
وعن اقليم لوتشاك ٠

عند رحيلك من جزيرة جاوة ، واتخاذك في البحر سبيلا بين الجنوب والجنوب الغربي ، مسافة سبعمائة ميل ، تلتقي بجزيرتين ، تسمى أكبرهما صوندور وتسمى الصغرى كوندور (١) ونظرا لأنهما كلتيهما خاليتان من السكان ، لم تعد هناك ضرورة لقول المزيد عنهما ٠

وبعد قطع مسافة خمسين ميلا من هذه الجزر ، في اتجاه جنوبي بشرق ، تبلغ ولاية فسيحة وغنية ، تشكل جزءا من أرض القارة وتسمى لوتشاك (٢) ٠ وسكانها ممن يعبدون الأصنام ٠ ولديهم لغة خاصة بهم ، كما أن الذي يحكمهم ملكهم الخاص ، الذي لا يدفع جزية لأي ملك آخر ، اذ أن موقع البلاد يحميها من كل هجوم أجنبي ٠

ولو أمكن الهجوم عليها ، لما فات الخان الأعظم أن يضمها الى ممتلكاته ٠ وفي هذا الاقليم ينمو السابان Sappan ، أي خشب البريزيل بمقادير عظيمة ٠ والذهب موفور لدرجة لا تكاد تصدق ، والفيلة موجودة هي الأخرى كما أن قنائص الطراد بالكلاب أو الطيور موفورة ٠

ومن هنا تصدر جميع محارات (البورسلين) التي اذا حملت الى أقاليم أخرى ، تداولها الناس نقودا ، كما لوحظ

سابقا (٣) · وهم يزرعون هنا نوعا من الفواكه تسمى برتشى ، وهى تقارب الليمونة في حجمها ولها نكهة لذيذة (٤) ·

وبعد هذه الظروف لا يكاد يوجد هناك شيء يستحق الذكر ، ما لم يكن ذلك مجرد القول بأن البلاد جبلية قفر ، لا يكاد الغرباء يطرقونها الا قليلا ، خاصة وأن الملك لا يشجع زيارتهم لها ، حتى تظل كنوزه وأسرار مملكته ، مجهولة من بقية العالم جهد الطاقة (٥) ·

الفصل التاسع

عن جزيرة بنتان ، وعن مملكة مالايور .

عند الرحيل من لوتشاك ، والمحافظة على اتجاه جنوبي على امتداد خمسمائة ميل ، تصل الى جزيرة تسمى بنتان(١)، وهي جزيرة ساحلها غير آهل وغير منزرع ، ولكن الغابات زاخرة بالأشجار ذات الأريج العطر . ويظل البحر بين ولاية لوتشاك وجزيرة بنتان هذه ، وهي مسافة طولها ستون ميلا، ضحلا لا يزيد عمقه عن أربع قامات ، وهو عمق ضحل يضطر من يبحرون فيه الى رفع دفاف سفنهم (حتى لا تمس قعر البحر) (٢) . وبعد الابحار في هذه الأميال الستين باتجاه جنوبي بشرق ، ثم التقدم ثلاثين ميلا بعد ذلك ، تصل الى جزيرة هي في ذاتها مملكة ، تسمى مالايور ، وهو أيضا اسم مدينتها الكبرى (٣) . ويحكم هذا الشعب ملك كما أن له لغته الخاصة . والمدينة ضخمة جيدة العمارة . وتدور فيها تجارة جسيمة في التوابل والعقاقير ، التي تزخر بها المنطقة بوفرة . ولم يعد يعن لنا شيء يستحق الذكر . واذا تقدمنا قدما من هناك فاننا سنتحدث الآن عن جاوة الصغرى .

الفصــل العــاشر

عن جزيرة جاوة الصغرى ·

اذا رحلت من جزيرة بنتان ، وأبحــرت فى الاتجــاه الجنوبي الشرقى مسافة مائة ميل تقريبا ، تبلغ جزيرة جاوة الصغرى (١) · ومع هذا فرغم أنها صغيرة وهو نعت يمــكن أن يطلق عليها بالمقارنة الى غيرها ، فان محيطها لا يقل طوله عن ألفى ميل · وبهذه الجزيرة ثمانى ممالك يحكمها ملوك بنفس العدد ، ولكل مملكة منها لغتها الخاصة ، المتميزة تماما عن لغات الممالك الأخرى جميعا · والقوم وثنيون · وهى تحتوى على كثرة موفورة من الثروات وجميع أنواع التوابل، وخشب الصبر وخشب الســابان (أو البيريزيل) للصــباغة وأنواع أخرى مختلفة من العقاقير (٢) ، التى لا تستورد الى بلادنا بسبب طول الرحلة وأخطار الملاحة ، ولكنهــا تجــد طريقها الى ولايات مانجى وكاثاى ·

وسنعالج الآن على حدة كل ما يتصل بسكان كل من هاته الممالك ، ولكن لعل من الصائب ابتداء ملاحظة أن الجزيرة تقع متوغلة بشدة فى الاتجاه الجنوبى ، بحيث يصبح نجــم الشمال (القطبى) غير مرئى بها (٣) · وزار ماركو بولو ستا من الممالك الثمانى ، ومن ثم فهــو سيصفها ، ضــاربا صــفحا عن الاثنتين الأخــريين ، اللتين لم تتح له فرصــة مشاهدتهما ·

الفصل الحادى عشر

عن مملكة فيلتش ، بجزيرة جاوة الصغرى .

سنبدأ بمملكة فيلتش ، التى هى احدى الممالك الثمانى (١) . ومعظم سكانها وثنيون ، وان كان كثير ممن يقطنون مدن الموانى ، اعتنقوا الدين الاسلامى ، على يد تجار العرب الذين يترددون عليهم على الدوام (٢) . فأما من يسكنون الجبال منهم فيعيشون عيش البهائم (٣) ، فهم يأكلون لحوم البشر ويتناولون ـ بغير تمييز بين الطاهر والنجس ـ كل أنواع اللحم الأخرى(٤) . ويوجهون عبادتهم الى أشياء متنوعة ، وذلك لأن كل فرد يعبد طوال يومه أول شىء يقع عليه ناظراه عندما ينهض من نومه فى الصباح(٥) .

الفصل الثانى عشر

عن المملكة الثانية المسماة مملكة باســـمان .

عند مغادرتك المملكة الأخيرة ، تدخل مملكة باسمان(١)، وهى مملكة مستقلة عن بقية الممالك الأخرى ، كما أن لهـا لغتها الخاصة . ويدين الناس بالطاعة للخان الأعظم، بيد أنهم لا يدفعون له جزية ، فضلا عن أن بلادهم تبعـد عنــه بعدا سحيقا لا يتيسر معه ارسال قوات الى هذه المناطق . أجـل ان الجزيرة بأكملها خاضــعة له اسما ، وعنــدما تمر الســفن هناك ، ينتهزون الفرصة فيرسلون اليه سلعا نادرة وتحفــا عجيبة ، وبخاصة نوعا معينا من الصقور (٢) .

ويوجد بالبــلاد كثير من الفيلة والخراتيت الضــارية ، والأخيرة أصغر حجما بكثير من الفيــل ، ولــكن أقدامهـــا متماثلة . ويشبه جلدها جلد الجاموس . ولهــا فى وســط الجبهة قرن وحيد ، ولكنها لا تؤذى بهذا السلاح من تهاجمه ، اذ لا تستخدم لهذا الغرض الا لسانها ، المسلح بأشواك طويلة وحادة ، كما تستخدم ركبها أو أقدامها ، وطريقة هجومهــا هى الدوس بأقدامها على الشخص ثم تمزيقه بلســانها (٣) ورءوسها تشابه رأس خنزير برى كما أنها تحمــل الرأس منخفضا نحو الأرض . وهى تبتهج بالبرك الطينية ، وتتصف بعادات قذرة (٤) .

والحيوان ليس بذلك الوصف الشائع عنه من أنه من الحيوانات التى تستسلم للعذارى ، كما يعتقد النـاس فى بلادنا • ولكن طبعه على نقيض هذا تماما (٥) •

وتوجد بتلك الناحية قرود منوعة الأصناف ، ونسـور فى سواد الغربان ، وهى ذات حجم ضخم ، وتتابع طريدتها بأحسن وجه •

وينبغى أن يعلم الناس أجمعين أن ما يذاع حول الأجساد المجففة للكائنات البشرية المصغرة أو الأقزام المجلـوبة من الهند ، ان هو الا حديث خرافة وهراء ، اذ أن مثـل هـؤلاء الناس المزعومين انما يصنعون بهـذه الجزيرة صنعا عـلى الطريقة التالية : ان البلاد تنتج نوعا من القردة ، له حجـم لا بأس به ، وله سـحنة تشـبه وجه الانسـان • فيعمد من يتخذون صيدها عملا لهم ، الى حلق شعرها ، غير تاركين منه شيئا ، الا ما كان حول الذقن ، وفى المنـاطق الأخرى التى ينمو فيها الشعر بالطبيعة فى الجسم البشرى •

وعندئذ يجففونها ويصبرونها بالـكافور وغـيره من عقاقير ، حتى اذا جهزوها بطريقة تكسبها مظهر رجال قصار القامة ، وضعوها فى صـناديق من خشب وباعـوها لأهـل التجارة فيحملونها الى كل أرجاء العالم • ولكن الحق أن هذا انما هو مجرد خـداع ودجـل ، اذ الـواقع هـو ما شرحناه بالضبط ، ولم يحدث قط أن عثر الناس على الأقزام ـ لا ببلاد الهند ولا بأية بلاد أخرى مهما يلغ من توحشـها ، (وجهـل الناس بها) ، على مثل هذه الهيئة المصغرة (٦) • وبحسبنا ما قيل عن هذه المملكة ، التى لم يعد فيها شىء آخر يستحق الذكر ، ونتحدث الآن عن مكان آخر يسمى سمارا •

الفصل الثالث عشر

عن المملكة الثالثة ، المسماة سمارا .

اذا غادرت باسمان ، دخلت مملكة سمارا (١) ، وهى مملكة أخرى بين الممالك التى تنقسم اليها الجزيرة • وأقام ماركو بولو بهذه المملكة خمسة أشهر ، تعطل أثناءها عن الحركة ، على غير رغبة منه تماما ، بسبب الرياح المضادة (٢) • ولا يمكن مشاهدة نجمة الشمال هنا ، ولا حتى النجوم التى فى الدب الأكبر (٣) والقوم هنا وثنيون ، ويحكمهم أمير قوى الشكيمة ، يعترف بنفسه تابعا اقطاعيا للخان الأعظم •

ولما كان من الضرورى مواصلة المكث على هذه الجزيرة زمنا طويلا ، فان ماركو بولو استقر على أرضها مع جماعة عدتها ألفا رجل تقريبا ، ودرأ لشر الأهالى المتوحشين ، الذين ينتهزون الفرصة للقبض على المشاة المنفردين وقتلهم ثم أكلهم ، أمر بأن يحفر حوله خندق عظيم وعميق من جهة البر ، بطريقة تجعل كل طرف من طرفى الخندق ينتهى فى الميناء الذى ترسو به السفن • وقوى هذا الخندق بابتناء عدة معاقل أو متاريس من الخشب ، حيث تيسر البلاد مددا ضخما من تلك المادة (الخشب) ، حتى اذا أصبح هذا الضرب من التحصين حاميا له ، تم له بذلك الاحتفاظ برجاله فى أمن مطلق أثناء الشهور الخمسة التى أقاموها • وبلغ من متانة الثقة التى امتلأت بها نفوس الأهالى أنهم زودوهم بمدد من

الأطعمة وغيرها من المواد الضرورية ، طبقا لاتفاق عقد معهم (٤) .

ولن تجد بأى مكان من العالم أسماكا للمائدة أبدع مما تجده هنا . والقمح لا يزرع بالمملكة ، ولكن الناس يعيشون على الأرز . ولا يصنعون خمرا ، على أنهم ينتجون من نوع من الشجر يشبه نخيل البلح شرابا ممتازا بالطريقة التالية : فانهم يقطعون جريدة من النخلة ويضعون مكانها وعاء يتلقى العصير وهو يتنزى من الجرح ويمتلىء الوعاء فى مدى يوم وليلة (٥) .

ويمتاز هذا الشراب بمزايا صحية عظيمة حتى انه ليزيل أوضار مرض الاستسقاء وكذا أوجاع الرئتين والطحال (٦) . وعندما يرى الناس أن هذه الأفرع التى قطعت ، لم تعد تسح أى عصير ، يعمدون الى سقاية الأشجار، بجلب المياه الغزيرة الكافية لهذا الغرض من النهر فى أنابيب أو قنوات ، فاذا تم ذلك عادت العصارة الى النز مرة ثانية كما فعلت أولا (٧) . وبعض أشجار ذلك النخيل تنتجه بالطبيعة بلون محمر وبعضها الآخر بلون باهت . وينمو جوز الهند هنا أيضا ، فى حجم رأس الانسان ، ويحوى مادة صالحة للأكل حلوة لذيذة الطعم وبيضاء كاللبن .

وتجويف هذا القلب اللين ، مملوء بسائل فى صفاء الماء كما أنه بارد وأجمل نكهة وأرق تكوينا من النبيذ ، أو أى نوع آخر من الشراب على الاطلاق (٨) . ويطعم الأهالى اللحم بجميع أنواعه ، الصالح والفاسد ، بغير تمييز .

الفصل الرابع عشر

عن المملكة الرابعة ، المسماة دراجويان •

ان دراجويان مملكة يحكمها أميرها الخاص ، ولها لغتها المميزة (١) ، وسكانها غير متمدينين وهم عبدة أوثان ، يدينون لسلطان الخان الأعظم بالطاعة • وهم يراعون هذه العادة الرهيبة ، متى أصيب أى فرد من أفراد العائلة بالمرض: — يرسل أقارب المريض فى طلب السحرة ، ويطلبون منهم ، عند قيامهم بفحص الأعراض ، أن يصرحوا اذا كان سيسترد عافيته أم لا • فيجيب هؤلاء السحرة ، حسبما توحى اليهم الأرواح الشريرة اما بأنه سيبرأ واما بضد ذلك • فاذا كان القرار انه لا يمكن أن يشفى ، دعا الأقارب رجالا معينين ، وظيفتهم التى يتمونها بغاية المهارة ، أن يطبقوا على فم المريض ويكتموا أنفاسه حتى يفطس • فاذا تم ذلك قطعوا الجسد اربا ، ليجهزوه طعاما لهم ، فاذا تم اعداده على هذا النحو ، اجتمع الأقارب والتهموه كله فى قصف وبهجة ، غير تاركين منه شيئا حتى نخاع العظام • اذ لو ترك جزىء واحد من الجسم ، لولد الهوام ، فيما يرون ، فان هذه الهوام تموت ، لافتقارها الى الغذاء بعد ذلك ، ويكون موتها سببا فى انزال عقاب محزن بروح المتوفى •

وبعد هذا يتحولون الى جمع العظام ، حتى اذا أودعوها صندوقا صغيرا جميلا ، حملوها الى غار فى الجبال ، تكون فيه بمأمن من كل ازعاج من الحيوانات الضارية • واذا هم تمكنوا من القاء القبض على أى شخص لا ينتسب الى حيهم ، ولا يستطيع دفع فديته ، قتلوه والتهموه •

الفصل الخامس عشر

عن المملكة الخامسة المسماة لامبرى .

للامبرى بالمثل أيضا ملكها الخاص ولغتها المميزة (١) : والقوم يعبدون الأصنام أيضا ، ويسمون أنفسهم تابعين اقطاعيين « Vassals » للخان الأعظم . وتنتج البلاد القرزينو (وهو خشب البرزيل أو السابان) بوفرة عظيمة (٢) ، بقدر ما تنتج الكافور مع عدة أنواع أخرى من العقاقير (٣) . وهم يبذرون بذور نبات يشابه السابان ، فاذا شب وشرع ينبت الأفرع ، نقلوه الى بقعة أخرى ، حيث يترك مدة ثلاث سنوات . ثم ينتزع من جذوره ويستخدم صباغا (٤) وأحضر ماركو بولو بعض بذور هذا النبات الى البندقية وزرعها هناك ، ولكن نظرا لأن المناخ هناك ليس دافئا بدرجة كافية ، فان واحدة منها لم تنبت .

وبهذه المملكة أناس بذيول ، طولها شبر ، كذيل الكلب ، ولكنها ليست مغطاة بالشعر . والغالبية العظمى منهم مخلوقون على هذا الشكل ، ولكنهم يسكنون الجبال ولا يقيمون فى مدن (٥) والخرتيت حيوان يشيع وجوده فى الغابات ، كما أن هناك أعدادا وفيرة من جميع أصناف الصيد . ما بين بهائم وطير . .

الفصل السادس عشر

عن المملكة السادسة ، المسماة مملكة فانفور ، حيث يحصل على دقيق من شجرة معينة .

ان فانفور مملكة بنفس الجزيرة (١) ، يحكمها أميرها الخاص . وهناك يعبد الناس الأصنام بالمثل أيضا ، ويدينون بالطاعة للخان الأعظم . وينتج بهذا الجزء من الاقليم ، نوع من الكافور ، يفوق كثيرا كل ما عداه من الأنواع . وهو يسمى كافوز فانفور ، كما أنه يباع بما يعادل وزنه من الذهب (٢) .

وليس هناك قمح ولا أى نوع آخر من الحبوب ، وانما طعام السكان هو الأرز ، مع اللبن والخمر المستخرج من الأشجار على الطريقة التى سبق وصفها عند الحديث عن سمارا . ولديهم أيضا شجرة يستخرجون منها بطريقة فريدة ، ضربا من الدقيق (٣) وساقها باسق ويبلغ من شدة غلظه أن محيطه قد يستطيع تحويطه رجلان . فاذا نزع عن عن هذه الشجرة لحاؤها الخارجي ظهر أن المادة الخشبية تعادل فى سمكها ثلاث بوصات ، وأن الجزء الأوسط ملىء بنخاع أو لب يعطى دقيقا ، يشابه ما يستخرج من جوز البلوط (٤) .

ويوضع ذلك اللب أو النخاع فى أوان مملوءة بالماء ، ويحرك بعصى ، حتى تعلو الى السطح جميع الألياف وغيرها من الشوائب ويهبط الى القاع الجزء الدقيقى النقى . فاذا

تم ذلك دلق الماء • ويعد الدقيق الذى يتبقى ، وقد تجرد من كل المواد الغريبة ، للاستخدام بتحويله الى كعك وانواع مختلفة من الفطائر (٥) •

وأكل ماركو بولو مرارا عديدة من هذا الطعام ، الذى يكاد يشبه الخبز فى مظهره وطعمه ، كما أحضر بعضا منه الى بلاده البندقية (٦) ان خشب الشجرة ، الذى يبلغ سمكه ثلاث بوصات تقريبا (كما سبق أن ذكرنا) ، يمكن ان يشبه بالحديد من هذه الناحية ، فانه متى ألقى فى الماء غطس فورا • وهو قابل للشق فى اتجاه متساو من طرف الى آخر ، مثل قصب الخيزران • ويصنع الأهالى من هذا حرابا قصيرة : ولو أنها صنعت ذات طول كبير أيا كان، لجعلها ثقلها مستحيلة الحمل أو الاستخدام • ثم انهم يشحذونها من أحد طرفيها ويجعلونها بالنار شديدة الصلابة ، حتى لتصبح قادرة على اختراق أى نوع من الدروع ، كما أنها تفضل الحديد من كثير من الأوجه (٧) • وبحسبنا الآن ما قلناه حول موضوع هذه المملكة (التى هى أجزاء الجزيرة) • ولن نتحدث عن الممالك الأخرى التى تؤلف الأجزاء الباقية ، لأن ماركو بولو لم يزرها • فاذا تقدمنا أماما ، انتقلنا بعد هذا الى وصف جزيرة صغيرة تسمى نوكويران •

الفصل السابع عشر

عن جزيرة نوكويران .

عند انصرافك من جاوة (الصغرى) ومملكة لامبرى ، وابحارك ما يقارب مائة وخمسين ميلا ، تلتقى بجزيرتين ، تسمى احداهما نوكويران (١) ، والثانية انجامان . وليست نوكويران تحت حكم ملك ، وشعبها لا يبعد الا قليلا عن حال البهائم ، اذ يمضون جميعا عراة الأجسام اناثا كانوا أم ذكورا ، لا يستر أى جزء من أجسامهم شيء . وهم وثنيون . تزخر غاباتهم بأبسق الأشجار وأثمنها ، مثل الصندل الأبيض والأحمر ، والأشجار الى تحمل ثمار جوز الهند والقرنفل وخشب السابان (أو البريزيل) ، هذا الى أن لديهم مجموعة متنوعة وكبيرة من العقاقير (٢) واذ نواصل المضى فى سبيلنا ، فاننا سنتحدث عن أنجامان .

الفصل الثامن عشر

عن جزيرة أنجامان ·

ان انجامان جزيرة كبيرة جدا ، لا يحكمها ملك (١) · والسكان وثنيون ، كما أنهم جنس بهيمي ومتوحش الى أقصى حد ، ولهم رؤوس وعيون وأسنان تشابه ما للفصيلة الكلبية (٢) · وهم قساة بفطرتهم ، وكل من أمكنهم أن يضعوا عليه أيديهم من غير بني أمتهم صرعوه وأكلوه · ولديهم مقادير وفيرة وأنواع عديدة من العقاقير · وطعامهم الأرز واللبن واللحم بجميع أوصافه وأصنافه · ولديهم من الثمار جوز الهند وتفاح الجنة (٣) ، وفواكه أخرى كثيرة تختلف عما ينمو من فاكهة بلادنا ·

الفصـل التاسـع عشر

عن جزيرة زيلان ٠

اذا أنت ارتحلت عن جزيرة انجامان ، واتخـذت في البحر سبيلا يتجه نحو جنوب الغرب ، طوله ألف ميل ، ظهرت لك جزيرة زيلان (١) ٠ والجزيرة ـ بسبب ما هي عليـه من حجم ـ أفضل ظروفا من آية جزيرة أخرى في العالم ٠ ويبلغ طول محيطها ألفين وأربعمائة ميل ، ولكنها كانت في العصور القديمة أكبر من هذا ، حيث كان مقياس محيطها آنذاك ثلاثة آلاف وستمائة ميل بالتمام ، كما تقـول الخريطة العالمية Mappa Mundi على أن العواصف الشمالية التي تهب بقسوة وعنف عارم ، أكلت الجبال بالتحات والتعرية حتى لقـد سقطت في بعض أجزائها وغاصت في البحر ، كما أن الجزيرة لم تعد تحتفظ لهذا السبب بحجمها الأصلي ٠

ويحكمها ملك اسمه سندوناز (٣) ٠ والناس بها يعبدون الأوثان ويعيشون في استقلال عن كل دولة أخرى ٠ ويمضي الرجال والنساء كلاهما في حالة عري تقريبا حيث يقتصرون فقط على لف قماشة حول المنطقة الوسطى من أجسامهم (٤) ٠

وليس لديهم حبوب عدا الأرز والسمسم الذي يستخرجون منه الزيت ٠ ويتألف طعامهم من اللبن والأرز واللحم ، كمـا أنهم يشربون الخمر المستخرجة من الأشـجار ، وهي الخمر التي سبق وصفها آنفا (٥) وهنا يوجد أيضا خير ما في العالم من أنواع خشب السـابان (البريزيل) ٠ وتنتج الجزيرة

ياقوتا أجمل وأثمن مما يعثر عليه بأية جهة في العالم ، وكذلك الصافير (اى الياقوت الازرق) والتوباز والجمشت والعقيق الاحمر ، وكذا أنواعا أخرى كثيرة من الأحجار الكريمة والثمينة (٦) .

ويقال ان الملك يمتلك أعظم ياقوتة شوهدت في العالم، وهي جوهرة طولها شبر ، في غلظ ذراع الانسان ، وهي صقيلة براقة على نحو يتجاوز كل وصف ، وهي مبرأة من كل عيب ، وتبدو كأنما هي نار متوهجة(٧) وهي على الجملة، ثمينة جدا حتى ليتعذر تقويم قيمتها بالمال • وأرسل الخان الأعظم ، قبلاى ، السفراء الى هذا العاهل يناشده أن يمنحه ملكية هذه الياقوتة ، على أن يدفع اليه في مقابلها ما يعادل قيمة مدينة • .

فكان جوابه على النحو التالي : « انه لن يبيعها ولو دفعت اليه جميع كنوز العالم ، كما أنه لا يسمح بأية حال أن تفارق مملكته ، لأنها جوهرة سلمها اليه أسلافه في العرش » (٨) ، وبهذا أخفق الخان الأعظم في الحصول عليها •

وسكان هذه الجزيرة ليسوا بحال رجال حرب ، ولكنهم على نقيض ذلك أذلاء جبناء (٩) فاذا أوجبت الظروف استخدام الجند ، حصلوا عليهم من دول أخرى مجاورة من بين أفراد المسلمين • والآن ولم يعد هناك • أى شيء آخر يستحق الذكر ، فاننا سنتجاوزها للحديث عن ما أبار •

الفصل العشرون

عن ولاية ما آبار •

ق أ : بعد مغادرة جزيرة زيلان ، والابحار غربا ستين ميلا (١) ، تصل الى ولاية ما أبار الكبيرة (٢) التى ليست جزيرة ، بل جزء من قارة الهند الكبرى ، كما يسمونها ، وهى أعظم وأغنى أقطار العالم طرا • ويحكمها أربعة ملوك يسمى الرئيس منهم سندر باندى (٣) •

وتقع فى ممتلكاته منطقة لصيد اللؤلؤ ، فى الخليج الذى يقع بين ما أبار (المعبر) وجزيرة زيلان (٤) ، حيث لا يزيد عمق الماء فيه عن عشر قامات الى اثنتى عشرة قامه ، كما انه لا يزيد فى بعض الاماكن عن قامتين (٥) • وتجرى عملية صيد اللؤلؤ على الطريقة التالية : فيشكل جماعة من التجار من أنفسهم شركات منفصلة ، ويستخدمون سفنا وزوارق كثيرة مختلفة الأحجام، مزودة أحسن تزويد بالحبال والخطافات والبكرات حتى يستطاع اعتلاؤها بأمان وقد ألقت مراسيها(٦) • وهم يستخدمون ويحملون معهم أشخاصا برعوا فى فن الغوص على المحار الذى يحوى اللآلىء • فيصعدون الى سطح الماء عندما لا يستطيعون كتم أنفاسهم لمدة أطول، ثم يعودون الى الغوص ثانية بعد فترة وجيزة(٧) • ويواصلون العمل فى هذه العمليات طوال اليوم كله ، ويجمعون بما يبذلون من جهود (فى مدى الموسم) كمية من المحار كافية لتزويد جميع الأقطار بمطالبها (٨) • والنسبة العظمى من اللؤلؤ المجلوب من المصايد فى هذا الخليج

مستديرة وذات بريق جيد • والبقعة التي يؤخذ منها المحار بأعظم عدد ، تسمى بتالا ، وتقع على شاطىء القارة الهندية ، ومن هناك تمتد المصايد ستين ميلا نحو الجنوب (٩) •

ونظرا لأن الخليج مملوء بنوع من السمك الكبير ، الذى كثيرا ما يهلك الغواصين ، فان التجار يحتاطون بأن يصطحبوا معهم جماعة من السحرة تنتسب الى طائفة من البراهمة ، لهم القوة بواسطة فنهم الشيطانى على كبح هذه الأسماك وتخبيلها ، وبذا يمنعونها من انزال أى أذى (١٠) •

ونظرا لأن الصيد لا يتم الا نهارا فقط فانهم يوقفون أثر السحر فى المساء ، حتى لا يقدم غير الأمناء من الأشخاص ، ممن يجنحون الى انتهاز فرصة الغوص ليلا وسرقة المحار ، على الغوص لما بداخلهم من خوف من التدمير غير المحدود الذى تحدثه هذه الحيوانات (١١) •

وهؤلاء السحرة يعدون بالمثل بارعين مهرة فى فن شل حركة جميع أنواع الحيوانات والطيور وسلبها القدرة على الهرب • ويبدأ موسم الصيد فى شهر أبريل ، ويستمر حتى منتصف مايو (١٢) •

وامتياز الاشتغال بالمصايد يعطى على صورة « التزام » من الملك ، الذى لا يحصل الا على عشر النواتج فقط ، أما السحرة فيحصلون على واحد من عشرين ، وبالتالى فانهم يحتفظون لأنفسهم بربح جسيم (١٣) • حتى اذا انتهت المدة المذكورة أعلاه تكون كمية المحار استنفدت ، وعندئذ تؤخذ السفن الى مكان آخر ، يبعد ثلاثمائة ميل كاملة عن هذا الخليج ، حيث يوطن القوم أنفسهم فى شهر سبتمبر ، ويواصلون العمل حتى منتصف أكتوبر (١٤) ، وفضلا عن

عشر اللآلىء التي هي حق للملك فانه يحتم أن يكون له الاختيار في كل كبيرة الحجم منها منتظمة الشكل، ولأنه يدفع ثمنها بسخاء ، لا يكره التجار أن يحملوها اليه لذلك الغرض (١٥) ٠

ق ٢ : يسير سكان هذا الجزء من البلاد عراة لا يستر أجسامهم الا قطعة من قماش يغطون بها ما يحتم الاحتشام تغطيته من أجزاء الجسم (٦) ٠ وليس الملك بأكثر استتارا من سائر رعيته ، لولا أن له قطعة قماش أغلى ، ولكنه يتميز عن غيره بصورة فاخرة بما يتزين به من مختلف أنواع الزينة مثل ياقة مرصعة بالجواهر مثل الصفيرى (Sapphires) والزمرد والياقوت الأحمر ، ذات القيمة الطائلة ٠

كما أنه يلبس — معلقا في عنقه ومتدليا الى صدره — سمطا حريريا دقيقا يضم مائة وأربع جمانات ، والجمانة (لؤلؤة) وياقوتة كبيرة وجميلة ٠ ومرد هذا العدد المعين ، هو أنه مطالب بحكم سنن دينية أن يكرر صلاة أو يدعو دعاء ، بقدر هذا العدد كل يوم ، تزلفا لآلهته ، وهو ما لم يفت أسلافه أن يفعلوه مطلقا (١٧) ٠

ويتألف الدعاء اليومي (أي الصلاة) من هذه الكلمات باكوكا باكوكا باكوكا ، التي يكررونها أربعا ومائة مرة ٠ وهو يلبس في كل ذراع ثلاث أساور ذهبية مزينة باللؤلؤ والجواهر ، ويضع على ثلاثة أجزاء من الساق أشرطة ذهبية مرصعة بنفس الطريقة ، كما يضع في أصابع قدميه ، فضلا عن أصابع يديه ، خواتم لا تقدر بثمن (١٨) ٠ الحق ان من أيسر الأمور على هذا الأمير اتخاذ مثل هذه الرموز والحلى الملكية الفاخرة ، وذلك لأن الجواهر واللآلىء كلها من انتاج بلاده (١٩) ٠

وله على الأقل آلف من الزوجات والاماء . ومتى رأى امرأة أعجبه جمالها ، عبر فورا عن رغبته في احتيازها . فوضع بتلك الطريقة يده على زوجة أخيه ، ونظرا لأنه كان رجلا حكيما راجح العقل ، فانهم أقنعوه بألا يجعل من ذلك مثار خلاف ، وان أوشك عدة مرات أن يحتكم الى السلاح .

وكانت أمهما تعترض عليهما محتجة في تلك الحالات ، وتكشف عن ثدييها قائلة : « ان أنتما يا ولدى ، حقرتما نفسيكما بالشقاق والعداء بينكما ، فانى سأقطع على الفور من جسمى هذين الثديين اللذين أرضعاكما » وهكذا كان الانفعال يذهب ويهدأ .

ويحتفظ الملك حول شخصه بكثير من الفرسان ، يميزون بتسمية معناها « خدام الملك المخلصون ، في هذه الدنيا وفي الدار الآخرة » . وهم يحيطون بشخصه في البلاط ، ويركبون الى جانبه في المواكب ، ويرافقونه في كل المناسبات . ولهم سلطان ونفوذ كبير بكل أرجاء المملكة . وعند وفاة الملك ، وعندما يقام حفل احراق بدنه ، يلقى جميع هؤلاء الخدام المخلصون بأنفسهم في النار عينها ، ويحترقون مع الجثة الملكية ، وذلك بقصد أن يكونوا في صحبته في حياة أخرى تالية (٢٠) .

وتنتشر بين القوم العادة التالية أيضا : فاذا مات ملك ، لم يتعرض ابنه الذى يخلفه للكنوز التي جمعها سلفه ، أخذا بفكرة : هى أن تلك الكنوز ستنعكس على قدرته في الحكم ، اذا هو لم يظهر — متى تهيأ له امتلاك البلاد بأكملها — قدرته على ملء الخزائن كما فعل أبوه من قبل . ونتيجة لهذه الفكرة المتسلطة ، فمن المفروض أن الأجيال المتعاقبة تجمع ثروات طائلة .

واذ أن الخيل لا تربى بهذه الأقطار ، فان الملك واخوته الأمراء الملكيين الثلاثة ينفقون مبالغ كبيرة من المال كل عام

فى شرائها من تجار من هرمز وديوفار (ظفار) وبتشر وأدم (عدن) ، يحملون تلك الخيل الى هناك ليبيعوها ، ويصبحون أثرياء من تلك التجارة ، وذلك لأنهم ينقلون ما تصل عدته الى خمسة آلاف حصان ، يحصلون فى الواحد منها على خمسمائة ساجي من الذهب ، وهى تعادل مائة مارك من الفضة • وعند نهاية السنة ، وربما لم يظل من هذه الخيول على قيد الحياة ثلاثمائة ولعل ذلك يجىء نتيجة ـ فيما يظن ـ لعدم توفر أشخاص أوتوا أهلية للعناية بها أو لاعطائها الأدوية المناسبة ، ومن هنا تنشأ الحاجة الى تعويض ما فقد منها بغيرها كل عام (٢٢) على أنه فى رأيى أن مناخ المنطقة غير مناسب لجنس الخيل، وأن ذلك هو مرد صعوبة استيلادها أو الاحتفاظ بها •

وهم يطعمونها اللحم المجهز بالأرز ، وغير ذلك من اللحوم المجهزة (٢٣) وذلك نظرا لأن البلاد لا تنتج حبوبا أخرى عدا الأرز • والفرس هنا ، وان كانت ضخمة الجسم وغشيها حصان كبير لا تنتج الا « فلوا » صغير الحجم مشوها ، بأرجل كسيحة كما أنه غير لائق للتدريب على الركوب •

وتنتشر في هذا المكان هذه العادة العجيبة : فعندما يعلن رجل ارتكب جريمة ، حوكم عليها وحكم عليه بالاعدام رغبته ، وهو يقاد الى ساحة الاعدام ، فى التضحية بنفسه لصنم من الأصنام ، يضعه أقاربه وأصدقاؤه على الفور فوق ضرب من الكراسى ويسلمونه اثنتى عشرة سكينا مشحوذة من جيد الفولاذ • ثم يطوفون به على هذا الوضع فى أرجاء المدينة ، معلنين بأعلى صوت ، أن هذا الرجل الشجاع على وشك التضحية بنفسه فى ميتة تطوعية بدافع الحماية لعبادة الوثن •

وعند الوصول الى المكان الذى كان سينفذ فيه حكم القانون يتناول اثنتين من السكاكين واذ يصرخ قائلا : « انى

أقدم نفسي للموت تكريما لهذا الوثن» ، فانه يسارع باغماد واحدة منهما في كل فخذ ، ثم يغمد واحدة في كل ذراع ، واثنتين في كرشه واثنتين في صدره · حتى اذا تم له على هذا النحو اغماد جميع السكاكين ـ عدا واحدة ـ في أجزاء مختلفة من جسمه ، مكررا كل جرح الكلمات التي سبق ذكرها ، أغمد الأخيرة منها في قلبه فيفارق الحياة على الفور (٢٤) ·

وما يكاد هذا المشهد يؤدى حتى يقبل ذوو قرباه ، متهللين فرحين فرحا عظيما ، ليحرقوا الجثة ، وعندئذ تقدم زوجته ، بدافع التقوى الحافلة والاعتبار لزوجها ، على القاء نفسها في النار ولا تلبث حتى تحترق معه · والمجتمع يهلل ويكبر كثيرا للنساء اللائي يبدين هذا العزم ، كما أن من يحجمن عن إتيانه يلقين الاحتقار والذم (٢٥) ·

ق ٣ : تبدى الغالبية العظمى للسكان الوثنيين بهذه البلاد اجلالا خاصا للثور ، ولن يستطاع ـ تحت أي اعتبار ـ حمل واحد منهم على تناول لحم الثيران (٢٦) · على أن هناك جماعة معينة من الناس تسمى الجاوى ، الذين لا يجرءون على ذبح الحيوان وان جاز لهم تناول لحمه . ولكن شعب الجاوى اذا وجدوا جثة لحيوان ، سواء مات ميتة طبيعية أم غير ذلك ، أكلوا منه (٢٧) ، كما أن جميع الناس يجصصون بيوتهم بطبقة من جلة (بفتح الجيم) البقرة (٢٨) وطريقتهم في الجلوس هي على بسط مفروشة على الأرض ، واذا هم سئلوا لماذا يجلسون على تلك الشاكلة أجابوا أن الجلوس على الأرض شرف ، وأنه كما أننا نشأنا من الارض ، فاننا كذلك عائدون اليها ، وأن أحدا لن يستطيع أن يفيها حقها من الاكرام فما بالك أن يقدم امرؤ على احتقارها · وهؤلاء « الجاوى » وجميع قبيلتهم هم أحفاد الذين ذبحوا القديس توما الرسول ، وبناء على هذا لا يستطيع فرد منهم دخول المبنى الذى يرقد فيه جسد الرسول المبارك ، ولو استخدمت قوة عشرة رجال

أولى بقية في حمله الى الموضع ، اذ تصده القوة الخارقة للجسمان المقدس (٩٢) ٠

والبلاد لا تنتج من الحبوب الا الأرز والسمسم (٣٠) ويخرج الناس للقتال بالرماح والتروس ، ولكن بغير ثياب تسترهم ، كما انهم شعب حقير غير حربي (٣١) : فهم لا يذبحون ماشية ، ولا أى نوع من أنواع الحيوان ليقاتلوا به ، ولكنهم عندما يرغبون في تناول لحم الغنم أو غيرها من الدواب ، أو الطيور ، لجأوا الى العرب الذين لا يخضعون لنفس الشرائع والعادات ـ لكي يؤدوا لهم تلك المهمة (٣٢) ويغتسل النساء والرجال جميعا ، بالماء مرتين يوميا أى في الصباح والمساء ٠ وهم لا يأكلون ولا يشربون حتى يتم لهم هذا الاغتسال أو الوضوء ، ومن أهمل هذا الطقس ، يعد هرطيقا كافرا (٣٣) ٠

وينبغى أن يلاحظ أنهم في تناولهم الطعام لا يستخدمون الا اليد اليمنى فقط ، كما انهم لا يمسون طعامهم باليسرى أبدا ٠ وهم يستخدمون يدهم اليمنى في كل عمل نظيف ورقيق ، ويحتفظون بالثانية للأغراض المنحطة من التطهير البدني وغير ذلك من الأعمال المتصلة بالوظائف الحيوانية ٠ وهم يشربون من نوع معين من الأوعية ، على أن يشرب كل فرد من انائه ، ولا يستخدم مطلقا اناء شخص آخر ولا يلصقون الاناء بأفواههم ولكن يرفعونه فوق الرأس ، بغير أن يسمحوا للاناء بأية حال أن يمس الشفتين (٣٤) واذا هم قدموا شرابا الى غريب لم يسلموه اناءهم ، ولكن ان لم يكن له وعاء خاص به ، صبوا الخمر أو أى شراب آخر في يديه فيشرب منهما ، كأنما هما كأس (٣٥) ٠

والجرائم في هذه البلاد ، تعاقب بعدالة دقيقة ، تضرب بها الأمثال ، أما فيما يتعلق بالمدنيين ، فتنتشر العادات التالية : اذا كرر دائن مطالبة مدينة بالسداد ، فسوف المدين

من وقت لآخر بالوعود الكاذبة ، أمكن للدائن ربط المدين برسم دائرة حوله ، فلا يستطيع منها خروجا حتى يرضى دائنه ، اما بالدفع أو بتقديم ضمانات كافية • فان هو حاول الفرار من الدائرة ، جعل نفسه عرضة لعقوبة الموت ، بوصفه خارقا لقواعد العدالة (٣٦) • وتصادف أنه عندما كان السير (السيد) ماركو بهذا القطر أثناء عودته الى وطنه ، شهد بعين رأسه مصادفة غريبة من هذا القبيل •

فقد كان الملك مدينا بمبلغ من المال لأحد التجار الأجانب ، ومع أن التاجر كثيرا ما ألح عليه في الدفع ، فانه ظل يمطله زمنا طويلا جدا بوعود وتأكيدات باطلة •

وبينما الملك ممتط جواده ذات يوم ، انتهز التاجر الفرصة فرسم دائرة حوله هو وحصانه • وما أن أدرك الملك ما تم فعله حتى توقف فورا عن المسير ، كما أنه لم يتحرك من مكانه حتى تمت تلبية جميع مطالب التاجر • وشهد المارة المتفرجون ما جرى بكل اعجاب وأعلنوا أن الملك يستحق لقب « الأبلغ عدالة » ، عندما خضع هو نفسه لقوانين العدالة •

ويمتنع هؤلاء القوم عن تناول الخمر المصنوع من العنب ، واذا اتهم واحد منهم بذلك ، عد من سوء السمعة ، بحيث لا تقبل شهادته في المحاكم (٣٧) وهناك تحيز مماثل لهذا يستشعره الناس ضد الأشخاص الذين ينتابون البحر ، الذين هم ــ فيما يلاحظون ــ قوم ذوو حظوظ محفوفة بالتهور ، وينبغي ألا تقبل شهادتهم وهم على هذا الوصف (٣٨) ، وهم لا يرون في الزنى جريمة • وحرارة البلاد مفرطة ، ولذا يسير الأهالي عراة الأجسام • وليس هناك مطر الا في شهور يونية ويوليو وأغسطس ، فلولا البرودة التي يجلبها المطر أثناء تلك الأشهر الثلاثة لكان من المستحيل تحمل الحياة (٣٩) •

ويوجد بهذه البلاد كثير من المهرة في العلم المسمى « علم الفراسة Physiognomy » الذى يعلم المعرفة بطبيعة الناس وصفاتهم ، وهل هم ميالون الى الخير او الشر • ويتم تمييز تلك الصفات فورا طبقا لمظهر وشكل الرجل أو المرأة • كما أنهم يعرفون أيضا كل ما تتكهن به الأحوال من حوادث تبعا لملاقاتهم أنواعا معينة من البهائم والطيور •

ويهتم هؤلاء الناس بطيران الطيور اهتماما يفوق اهتمام أى شعب آخر فى العالم ، ومنها يتكهنون بحظ سعيد أو سيىء (سانح أو بارح) • وفى كل يوم من أيام الاسبوع ساعة يعدونها نحسا مشئومة ، ويسمونها تشوياتش choiach (٤٠)، وعلى هذا النحو مثلا ، تكون فى يوم الاثنين ساعة (صلاة) الضحى mi-tierce ، وتكون فى يوم الثلاثاء ساعة الظهيرة Tierce وفى يوم الأربعاء ساعة العصر (None) (٤١)، وفى تلك الساعات لا يأتون شراء ولا بيعا ، ولا يقومون بأى نوع من أنواع المعاملات ، لاقتناعهم بأن النجح لن يكون حليفا لهذه الصفحات • وعلى هذا النحو يتحققون من خواص كل يوم من الأيام على مدار السنة وهي خواص يصفونها ويدونونها فى كتبهم (٤٢) •

وهم يحددون الساعة من النهار بواسطة طول ظل الرجل عندما يقف منتصب القامة (٤٣) •

وعندما يولد طفل ، ذكرا كان أو أنثى ، يدون الأب أو الأم مذكرة مكتوبة باسم اليوم من الأسبوع الذى حدثت فيه الولادة ، وكذلك بعمر القمر ، واسم الشهر وساعة النهار • ويتم هذا لأن كل عمل من أعمال حياتهم فى المستقبل انما ينظمه علم التنجيم •

وبمجرد أن يبلغ الابن الثالثة عشرة من عمره ، يطلقون له الحرية ، ولا يسمحون له بعد ذلك بأن يظل مقيما بمنزل

آبيه ، ويستحونه مبلغا يصل ، فى عملتهم ، الى ما يتراوح بين عشرين غروتا الى أربعة وعشرين • ومتى زودوه بهذا المبلغ ، اعتبروه قادرا على اكتساب عيشه ، بالاشتغال فى أية حرفة ، يستطيع الحصول منها على كسب • ولا يكف هؤلاء الصبيان عن الجرى هنا وهناك فى كل الاتجاهات طوال اليوم كله ، حيث يشترون سلعة من مكان ويبيعونها فى آخر(٤٤)•

وفى موسم صيد اللؤلؤ ، يكثرون من ارتياد الشاطىء، ويشترون من الصيادين أو من غيرهم ، خمس لآلىء(صغيرة) أو ستا أو أكثر ، حسب ما تسمح به مواردهم ، حيث يحملونها بعد ذلك الى التجار ، الذين يلازمون بيوتهم لشدة حرارة الشمس ، فيقولون لهم : « كلفتنا هذه اللآلىء كذا ، فاسمحوا لنا فيها بمكسب ترونه معقولا » • فيقدم اليهم التجار عندئذ شيئا يتجاوز الثمن الذى دفع فيها وتم به الحصول عليها •

وعلى هذه الشاكلة يتاجرون بالمثل فى سلع كثيرة أخرى ويصبحون متجرين ممتازين بالغى الكفاية • فاذا انتهت معاملات اليوم ، حملوا الى أمهاتهم المؤن والأطعمة اللازمة لطعامهم ، فيجهزنها لهم ، ولكنهم لا يتناولون على الاطلاق شيئا على حساب والديهم •

ق ٤ ـ : وتختلف جميع البهائم والطير ، ليس فقط فى هذه المملكة ، بل وأيضا بالهند بصفة عامة ، عن مثيلاتها ببلادنا ، فيما عدا السمانى ، التى تماثل مثيلاتها عندنا تماما ، فأما ما خلاها فكلها مختلفة(٤٥) • وبالبلاد خفافيش (وطاويط) تصل الى حجم النسور ، ونسور فاحمة كالغربان وأكبر كثيرا من نسورنا • وطيرانها سريع ، ولا يمكن أن يفوتها الامساك بقنائصها من الطيور (٤٦) •

وتوجد بمعابدهم أصنام كثير ، تمثلهم أشكالهم بصورة الذكور والاناث ، والى هؤلاء يهب الآباء والأمهات بناتهم •

فاذا تم اهداؤهن على هذا النحو ، كان المتوقع منهن أن يحضرن كلما طلبهن قساوسة الدير للاسهام في ارضاء الوثن ، فيدلفن الى هناك في مثل تلك المناسبات ، وهن يغنين ويلعبن على الآلات ، ويضفن البهجة بحضورهن تلك الاحتفالات • وهؤلاء الشابات كثيرات العدد جدا ويؤلفن جماعات كبيرة (٤٧) • وهن يحملن عدة مرات في كل أسبوع قربانا من الاطعمة الى الصنم الذى يخلصن له الدين ، ومن هذا الطعام يتناول الصنم فيما يقال •

ولهذه البغية ، توضع أمامه مائدة ، وعلى هذه المائدة تترك الأطعمة مدة ساعة كاملة ، لا تكف الأوانس أثناءها عن الغناء والعزف والقيام بحركات فاحشة • وتدوم تلك الحال بقدر ما يحتاج اليه شخص له مقامه ، من الزمن ليتناول وجبة مناسبة • وعندئذ يعلن (أى الفتيات) ان روح الصنم راضية بنصيبها من الوليمة المقدمة لها ، ثم يصطففن حوله ، ويشرعن في تناول الطعام بدورهن ، وبعد هذا تنصرف كل الى منزلها • واليكم السبب الذى قدم تعليلا لاجتماع الشابات وأداء المراسم التى رأينا وصفها : « اذ يعلن الكهنة أن الاله الذكر مستاء من الالهة الانثى ساخط عليها ، ويرفض الاتصال بها بل حتى محاورتها ، وأنه اذا لم نتخذ بعض التدابير لاعادة السلام والانسجام بينهما • ذهبت جميع مصالح الدين أدراج الدمار ، وذلك نظرا لأن نعمة الآلهة وبركاتها ستحبس كلها عنهم من أجل ذلك ، يتوقع من كل المريدات المنذورات للدير أن يظهرن في حالة عرى ، لا يسترهن الا قماشة حول أوساطهن ، وأن يرحن وهن على هذه الحال ينشدن الأناشيد للاله والالهة • ويعتقد هؤلاء الناس أن الاله كثيرا ما يسلى نفسه بالالهة » •

ويستخدم الأهالى ضربا من السرير المعادى أو النقال الخفيف ، مصنوعا من أشغال قصب خفيفة جدا ، قد صمم بمهالة ، بحيث انهم متى رقدوا عليه وجنحوا الى النوم ،

اسبهم اسدان السننانى حولهم بجذب فتله خيط • وهم يلعدون هذ ابتغاء طرد العناكب (الاشبات) ، التى لهـا عضـــه اليمه ، وكذا رغبة فى تجنب مضايقه البراعيت وغيرها من الهوام الصغيرة ، وفي نفس الحين لا يطرد الهـواء (٤٨) ، التنديد اللزوم لتخفيف الحرارة المفرطة • على ان متعا من هذا القبيل لا يحطى بهـا سـوى ذوى اليسار والمكانة من الناس ، فاما من عداهم من أبناء الطبقة الدنيا فيرقدون فى الشوارع فى العراء (٤٩) •

ويرقد في ولاية المعبر هذه (٥٠) جثمان الشهيد المجيد القديس توما الرسول ، الذى لقى الشهادة هناك • وهـو موجود بمدينة صغيرة ، لا يزورها كثير من التجار ، لعـــدم صلاحيتها لأغراض تجارتهم ، غير أنه يؤمها لأسباب دينية ، عدد ضخم من المسيحيين والعرب (٥١) كليهما ويعده الأخيرون نبيا عظيما ، ويسـمونه أنانياس ، ومعنـاها الشـخصية المقدسة (٥٢) والمسيحيون الذين يقومون بحج هذه الكنيسة ، يجمعون الثرى من البقعة التى ذبح فيها ــ وهو ثرى أحمر اللون ، ويحملونه معهم بكل اجلال ــ وكثيرا ما يستخدمونه فيما بعد ، فى عمـل المعجزات ، واعطائه مذوبا فى المـاء للمرضى ، فيشفى كثيرا من الأمراض (٥٣) •

وفي عام ١٢٨٨ الميلادى ، رأى أمير قوى بالبلاد (٥٤)، جمع وقت ضم المحصول (باعتباره نصيبه) مقدارا ضخما جدا من الأرز ، ولم يجد لها أجرانا تكفي لتخزينها كلهـا ، أن يستخدم لهذا الغرض البيت الدينى التابع لكنيسة القديس توما • ولما كان هذا مناقضا لارادة من عليهم سدانة المكان ، فانهم التمسوا منه ألا يحتل على هـذا النحو مكانا خصص لراحة الحجـاج ، الذين كانـوا يفدون لزيارة جسـد ذلك القديس المجيد • ورغم ذلك فانه أصر بعناد على رأيه •

وفى الليلة التالية ظهر له الرسول المقدس فى المنام ، ممسكا بيده حربة صغيرة ، سددها نحو عنق الملك ، قائلا له : « اذا أنت لم تخل على الفور بيتي ، الذى احتللته ، فانى ساقتلك قتلة تعسة » • واستيقظ الأمير فى فزع شديد ، وأصدر على الفور أوامره بتنفيذ ما طلب منه ، معلنا على الملأ أنه رأى الرسول فى منامه • وتتم هناك أنواع عديدة من المعجزات ، عن طريق توسط القديس المبارك • ويملك المسيحيون المنوطون برعاية الكنيسة أحراشا من تلك الأشجار التى تنتج جوز الهند ، ومنها يحصلون على معاشهم ، ويدفعون لأحد الأخوة الملكيين ضريبة قدرها غروت واحد عن كل شجرة من (٥٥) الشجر •

ويروى أن مصرع هذا الرسول ذى القداسة العظمى ، تم على الوجه التالى : فانه بعد أن آوى الى صومعة له ، شغل فيها بالصلاة ، وحوله مجموعة من طير الطاووس ، التى تمتلىء بها البلاد هناك ، تصادف أن وثنيا من قبيلة الجاوى التى أسلفنا اليك صفتها ، كان يمر بتلك المنطقة ، ولم يلحظ وجود الرجل المقدس ، فأطلق سهما على أحد الطواويس ، فأصاب الرسول فى جنبه • فلما أن وجد نفسه مجروحا ، لم يمهل الا ريثما يشكر الرب على رحماته وأسلم الروح بين يديه (٥٦) •

والناس فى هذه الولايات ، وان كانوا من السود ، لا يولدون بمثل ذلك الصبغ العميق القاتم الذى يصلون اليه بوسائل صناعية • فانهم ، لبلوغ تلك الغاية يدلكون أجسام أطفالهم ثلاث مرات بالشيرج (زيت السمسم) (٥٧) وهم يجعلون تماثيل آلهتهم سوداء ، فأما الشيطان فانهم

يرسمونه أبيض ، مؤكدين أن جميع الشـياطين عـلى ذلك اللون (٥٨) • فأما من كان منهم يقدم العبادة للثور ، فأنهم يأخذون معهم عندما يخرجون للقتال بعض شعرات من ثور برى ، يربطونها بأعراف خيولهم ، معتقدين أن من فضيلتها وأثرها أن كل من يحملها معه حيث ذهب ناج من كل خطر • وتبعا لهذا فان شعر الثور البرى يباع بسعر مرتفع بتلك الأقطار •

الفصل الحادى والعشرون

عن مملكة مورفيلى أو مونصول ٠

ان مملكة مورفيلى هي تلك التي تدخلها عندما تغادر مملكة المعبر ، بعد التقدم خمسمائة ميل فى اتجاه شمالى(١) ٠ وسكانها يعبدون الأوثان ، ويعيشون فى استقلال عن كل دولة أخرى ٠ وهم يقتاتون بالأرز واللحم والسمك والفواكه ٠

وفى جبال هذه المملكة يعثر على الماس (٢) ٠ وفى أثناء فصل الأمطار تهطل المياه سيولا جارفة بين الجبال والكهوف، فاذا هدأت السيول ذهب الناس ليبحثوا عن الماس فى قيعان الأنهار ، فيجدون منه الكثير (٣) ، أخبر بعضهم السير (السيد) ماركو أنه فى الصيف عندما تكون الحرارة مفرطة ، والمطر منقطعا ، يصعد الناس الجبال بمشقة كبيرة ، وخطر جسيم لكثرة الأفاعى التى تملأ تلك الجبال ٠ ويقال انه يوجد قرب القمة أودية عميقة ، مملوءة بالكهوف ومحوطة بالمنحدرات الوعرة ، وفيها يعثر على الماس ، وهنا اعتاد كثير من النسور واللقلاق الأبيض بناء عشوشها وهى التى تجذبها الحيات لأنها تتغذى بها ٠ ويتخذ من يطلبون الماس من الأشخاص موقفهم قرب أفواه الكهوف ، ومن هناك يقذفون عدة قطع من اللحم ، تتعقبها النسور واللقلاقات حتى قاع الوادى وتحملها الى أعالى الصخور ٠ والى هناك يبادر الرجال الى الصعود ، ويبعدون الطيور واذ يستردون قطع اللحم فانهم كثيرا ما يجدون الماس ملتصقا بها ٠ فان

كان لدى الطيور الزمن الكافى لالتهام اللحم ، راقبوا مكان جثومها ليلا ، وفى الصباح يجدون الماس بين الجملة والبعر الذى يسقط منها (٤) ولكن ينبغى لك ألا تظن أن الماس الجيد يقع للمسيحيين ، لأنه انما يحمل الى الخان الأعظم، والى ملوك ورؤساء ذلك الاقليم • وهم يصنعون بتلك البلاد أرق أنسجة الأقطان ، التى يجدها المرء بأى جزء من أجزاء الهند (٥) • ولديهم من الماشية القدر الكافى كما أن لديهم أضخم غنم فى العالم والكثير من كل أنواع الطعام •

الفصل الثاني والعشرون

عن ولاية لاك أو لوآك أو لار .

متى غادرت المكان الذى ترقد فيه رفات الرسول المجيد ، القديس توما ، وتقدمت غربا ، دخلت ولاية لار ، التى يرجع اليها أصل البراهمة ، الذين ينتشرون بكل أرجاء الهند (١) . وهؤلاء البراهمة خير وأشرف تجار على وجه البسيطة (٢) . فما من اعتبار مهما يكن ، يمكن أن يحملهم على النطق بكذبة واحدة ، وان توقفت حياتهم على ذلك . ويستشعرون مقتا شديدا للسرقة ولكل اختلاس لمتاع الآخرين (٣) . ويشتهرون بالمثل بفضيلة كبح النفس عن الشهوات ، اذ يقنعون باحتياز زوجة واحدة (٤) .

واذا تاجر أجنبي يجهل عادات البلاد ، عرف نفسه الى أحد هؤلاء ، ووكل اليه مهمة العناية بمهام عمله ، تولى ذلك البرهماني ادارته ، وتصرف فى البضاعة ، وقدم بيانا صادقا بما أتمه ، مراعيا بضمير حى مصالح الغريب ، دون أن يطالب بأية مكافأة على تعبه ، ان فات صاحب البضاعة – فى قلة كياسة – أن يقدم اليه الجزاء التلقائى (٥) . وهم يأكلون اللحم ويشربون خمر البلاد ، ومع هذا فانهم لا يذبحون بأنفسهم أى حيوان بل يكلفون المسلمين بذلك (٦) .

ويتميز البراهمة بشارة معينة ، تتكون من خيط قطنى غليظ ، يمر فوق الكتف ويربط تحت الابط ، بطريقة تجعل الخيط يبدو على الصدر وخلف الظهر (٧) . والملك طائل

الثراء قوى السلطان ، يبتهج كل الابتهاج بامتلاك اللآلىء والاحجار الثمينة(٨) • وعندما يقدم اليه تجار المعبر منها ما امتاز بالجمال الفائق ، يثق بكلمتهم فيما يتعلق بتقدير قيمتها ، ويعطيهم ضعف المبلغ الذى يعلنون ان كل واحدة منها كلفتهم •

وفي ظل هذه الظروف ، تعرض عليه كثير من الجواهر البديعة • والسكان هنا على وثنية بدائية شديدو التعلق بالسحر والعرافة •

وعندما يكونون على وشك القيام بصفقة شراء بضاعة ، يشرعون على الفور في ملاحظة سقوط ظل أجسامهم هم أنفسهم في ضوء الشمس ، فان كان الظل في الطول الواجب، قاموا بالشراء في نفس اليوم (٩) • وفوق هذا ، فانهم عندما يكونون في أى دكان بقصد شراء شيء ، فانهم ان رأوا شيئا مما يكثر وجوده هناك ، لاحظوا بامعان الجهة التى يجيء منها ، وتصرفوا في عمليتهم على أساس ذلك •

وكذلك أيضا متى كانوا خارجين من بيوتهم ، وسمعوا امرأ يعطس ، عادوا الى بيوتهم وأقاموا عاكفين فيها • وهم شديدو الاعتدال فيما يتعلق بالطعام ، ويعيشون الى سن متقدمة • ويحتفظون بأسنانهم سليمة باستخدام نوع من النبات اعتادوا عادة مضغه • وهو في نفس الحين يساعد على الهضم ويفضى على الجملة الى صحة الأبدان (١٠) •

وهناك بين أهالى هذا الاقليم ، طبقة شديدة الجنوح الى حياة دينية ، تسمى التنجوى Tingui ، وتعيش اكراما لآلهتها حياة شديدة التقشف (١١) • وهم يعيشون عراة تماما ، لا يسترون أى جزء من أجسامهم ، ويقولون انه لا يمكن أن يكون هناك أى عار في حالة العرى هذه التى جاءوا فيها الى هذا العالم ، أما فيما يتعلق بما يسمى الأجزاء

المخجلة ، فانهم يلاحظون انهـا لمـا لم تكن لديهم أعضـاء للخطيئـة ، فليست ثمة سبب يدعوهم الى حمـرة الخجل من تعريضها للأنظار (١٢) ٠

وهم يعبدون الثور ، ويحملون معهم تمثالا صغيرا له ، مصنوعا من النحاس الاصفر المذهب أو غـيره من المعادن ، مربوطا على جباههم (١٣) وهم يقومون أيضا بحرق عظام الثيران ، ويحولونها الى مسحوق ، ويعملون من هذا مرهما بقصد وضع علامات على أجزاء مختلفة من الجسم ، وهو أمر يفعلونه بطريقة ملؤها التوقير ٠ وان هم التقوا بشـخص بينهم وبينه مودة ، ضمخوا بهرة جبينه بشيء من هذا الرماد المجهز (١٤) ٠

وهم لا يحرمون اى مخلوق من الحياة ، ولا حتى ذبابة ولا برغوثا ولا قملة ، لاعتقادهم بأن لها أرواحا تنفخ فيها الحياة ، ويعد الاغتذاء بأى حيوان خطيئة شـنيعة ٠ وهم يمتنعون عن تناول الخضر أو الحشائش أو الجذور ، حتى تجف، على اعتقاد أن هذه أيضا لها أرواح ٠ وهم لا يستخدمون في طعامهم الملاعق ولا الصحاف ، بل يفرشون طعامهم عـلى الأوراق الجافة لشجرة تفاحة آدم ، التى تسمى أيضا بتفاح الفردوس (١٥) ٠

وعندما يحسون بالحاجة الى قضاء الضرورة ، يذهبون الى شاطيء البحر ، حتى اذا أفرغوا ما فى بطونهم في الرمل، نثروه على الفور في جميع الاتجاهات ، حتى لا يولد الهوام، التى سيؤدى موتها جوعا فيما بعد الى اثقال ضميرهم بأوضار اثم اليم (١٦) ٠

وهم يعيشون حتى يبلغوا سنا عالية جدا ، بل ان بعضهم ليبلغ الخمسين بعد المائة ، مستمتعا بالصحة والعافية ، وان ناموا مفترشين الأرض العارية وهذا أمر لابد أن يكون راجعا الى اعتدالهم وعفتهم (١٧) ٠ واذا ماتوا أحرقت أجسامهم ، حتى لا تولد لنفس السبب ، أية ديدان ٠

الفصل الثالث والعشرون

عن جزيرة زيلان ٠

أكره أن أتجاوز عن بعض تفصيلات أسقطتها عندما تحدثت فيما سلف عن جزيرة زيلان ، وعلمتها عندما زرت ذلك القطر في رحلة عودتي الى أرض الوطن ٠ يوجد بهذه الجزيرة جبل شاهق الارتفاع ، يبلغ من شدة صخريته ووعورة انحداره ، أن الصعود الى قمته يعد من المحال ، فيما يقال ، الا بمساعدة السلاسل الحديدية المستخدمة لذلك الغرض ٠ وبهذه السلاسل يبلغ بعض الأشخاص القمة ، التي يقال ان قبر آدم ، جدنا الأول ، يوجد عليها ٠ وذلك هو ما يقوله المسلمون (١) ٠ ولكن الوثنيين يؤكدون انه يحتوى جثمان سوجر مونباركهان ، مؤسس نظامهم الديني ، الذى يوقرونه كشخصية مقدسة (٢) ٠ كان ابنا لأحد ملوك الجزيرة ، كرس نفسه لحياة زهد ، رافضا قبول الممالك أو أية ممتلكات دنيوية ، وان حاول أبوه بواسطة مفاتن النساء وكل شكل آخر من أشكال الامتاع يخطر على الخيال، أن يثنيه عما عزم عليه من تصميم (٣) ٠

وكانت كل مخاولة لاقناعه بالعدول عن رأيه تذهب أدراج الرياح ، وفر الشاب خفية الى هذا الجبل المرتفع ، حيث ختم في النهاية حياته الدنيوية الفانية بالاستمساك بالعزوبة والامتناع المطلق عن الشهوات ٠

والوثنيون يعدونه قديسا • فأما الأب فاذ شرد لبه بألذع ضروب الحزن ، أمر فصنع لولده تمثال من الذهب والأحجار النفيسة ، يحمل صورة ابنه وشبهه ، وطالب جميع سكان المدينة بتكريمه وعبادته عبادة الرب • وذلك هو الأصل في عبادة الأصنام بتلك البلاد ، على أن سوجومون باركهان لا يزال يعد فوق كل ما عداه • ونتيجة لهذا الاعتقاد ، يتقاطر الناس من مناطق مختلفة قاصية حاجين الى الجبل الذى دفن عليه • ولا تزال بعض بقايا من شعره وأسنانه والطست الذى كان يستخدمه ، باقية الى الآن وتعرض على الأنظار باحتفال عظيم • على أن المسلمين يرون أن هذه الأشياء انما هى للنبى آدم ولذا فان تدينهم وتقواهم تدفعانهم بالمثل الى زيارة الجبل (٥) •

وحدث فى عام ١٢٨١ ، ان الخان الأعظم سمع من بعض المسلمين العرب الذين مروا بتلك البقعة ، بشهرة هذه المخلفات الخاصة بأبينا الأول وأحس برغبة شديدة فى امتلاكها ، حملته أن يرسل سفارة لطلبها من ملك زيلان •

وبعد رحلة مديدة مضنية ، وصل سفراؤه فى النهاية الى طلبتهم المقصودة ، وحصلوا من الملك على ضرسين خلفيين كبيرين، مع بعض شعرات ووعاء أنيق من الحجر السماقى(٦) المجزع • وعندما بلغ الخان الأعظم نبأ اقتراب رسله ، أثناء عودتهم بهذه الطرف الثمينة ، أمر جميع سكان كانبالو للخروج من المدينة لاستقبالها ، ثم قدمت الى حضرته بمراسم عظيمة الأبهة والوقار (٧) والآن وقد ذكرنا هذه التفاصيل المتعلقة بجبل زيلان ، فاننا سنعود أدراجنا الى مملكة المعبر ونتحدث عن مدينة كائل •

الفصل الرابع والعشرون

عن مدينة كائل ٠

ان كائل مدينة ضخمة (١) ، يحكمها استيار ، احد الاخوة الاربعة ، ملوك اقليم المعبر ، وهو ملك غنى بما يملك من ذهب وجوهر ، ويحتفظ بمملكته في حالة من السلام المقيم (٢) ٠ ولهذا فانها كانت منتجعا مستحبا لدى التجار الاجانب ، الذى يحسن الملك استقبالهم ومعاملتهم ٠ وتبعا لهذا فان جميع السفن القادمة من الغرب ــ أى من موان مثل هرمز وكهستى ، وعدن (عون) ، وأجزاء مختلفة من بلاد العرب ــ محملة بالبضائع والخيل تتجه نحو هذا المرفأ ، الذى له فوق هذا موقع صالح بالنسبة للتجارة ٠ ويعول الأمير ، على خير وجه فاخر ، مالا يقل عن ثلاثمائة امرأة ٠

وجميع سكان هذه المدينة ، وكذلك جميع أهالى الهند بعامة ، يدمنون عادة وضع ورقة النبات المسمى « التنبول Tembul » فى أفواههم باستمرار ، وهم يفعلون ذلك ادمانا لعادة من ناحية وطلبا للمتعة التى يحدثها ذلك النبات من ناحية أخرى (٣) ٠ وهم عند مضغه يبصقون ما يحدثه من لعاب ٠ على أن ذوى المكانة فيهم يتعاطون تلك الورقة مجهزة بالكافور وغيره من عقاقير عطرية ، فضلا عن مزيج من الجير الحى (٤) ٠ وقد بلغنى أنه جالب للصحة الى أقصى حد ٠ واذا قصد أى رجل أن يجابه آخر بأغلظ طريقة وأشدها احتقارا وامتهانا ، بصق فى وجهه عصير هذا الورق الممضوغ ، فاذا أهين رجل على هذا النحو ، هرع الى حضرة

الملك ، وقدم ظروف ما حل به من ضيم ، وأعلن رغبته في الفصل فى النزاع بالنزال ٠

وعنــدئذ يزودهما الملك بالأســلحة ، وهى تأتلف من سيف وترس صغير ، ويحتشد الناس جميعا ليكونوا شــهودا فى الصراع ، الذى يستمر بينهما حتى يقع أحدهما ميتــا فى الحلبة ٠ ومع هذا فلا يجوز لهما أن يحدثا جرحا بسن السيف (٥) ٠

الفصل الخامس والعشرون

عن مملكة كولام

عند مغادرة المعبر ، والتقدم جنوبا بغرب خمسمائة ميل تصل الى مملكة كولام (١) وهي دار اقامة لكثير من المسيحيين واليهود ، الذين يحتفظون بلغتهم الأصلية • وليس الملك تابعا لأى ملك اخر • وينمو هناك الكثير من خشب السابان ــ (أو خشب البريزيل) (٢) الجيد ، كما ينمو الفلفل بوفرة كبيرة ، حيث يوجد بكل من مناطق الغابات والمناطق المكشوفة بالبلاد • وهو يجمع في شهور مايو ويونية ويولية والمترشات أى التكعيبات التى تنتجه تزرع على هيئة مزارع مترامية الاتساع (٣) ، ويصنع هنا أيضا صباغ النيلج ، وهو من صنف ممتاز وبمقادير كبيرة • وهم ينتجونه من نبات عشبى ، ينزع من جذوره وينقع في براميل ماء ، حيث يترك حتى يتعطن ، ثم تعصر منه عصارته ، فاذا عرضت هذه العصارة للشمس وتبخر ماؤها ، خلفت نوعا من العجينة ، تقطع قطعا صغيرة ، لها الشكل الذى نراه يجلب الى بلادنا (٤) •

وتشتد الحرارة فى بعض الشهور بحيث لا تكاد تطاق ، ومع هذا فان التجار يتوافدون الى هناك من مختلف أصقاع الأرض ، مثل مملكة مانجى وجزيرة العرب (٥) ، اذ تجذبهم المكاسب الضخمة التي يحصلون عليها من كل من البضائع التي يستوردونها وكذا مما يحملون أثناءالعودة من بضائع• وتختلف كثير من الحيوانات الموجودة هنا عن مثيلاتها فى

الأصقاع الأخرى • فهنا يوجد ببور Tigers سوداء تماما(٦) وصنوف من الطير من جنس الببغاء ، منها ما هو أبيض ناصع كالثلج ، مع منقار وأرجل حمراء ، ومنها أخرى ألوانها خليط بين الاحمرار واللازوردى ، وأخرى ذات حجوم مصغرة • والطواويس هنا أيضا أجمل شكلا وأضخم حجما من طواويسنا ، كما أن لها شكلا مختلفا ، بل انه حتى الدجاج المنزلى العادى له شكل مختلف (٧) •

وتنطبق هذه الملاحظة نفسها على الفواكه • ويقال ان السبب فى هذا الاختلاف هو الحرارة الشديدة التى تسود هذه المناطق • ويصنع الخمر من السكر الذى ينتجه نوع من النخيل • وهو مفرط الجودة ، كما أنه مسكر أسرع من الخمر المصنوع من العنب (٨) •

ويمتلك السكان مقادير وفيرة من كل ما هو ضرورى لطعام الانسان باستثناء الحبوب ، التى لا يوجد منها أى نوع آخر عدا الأرز ، على أن مقادير هذا الأرز هائلة جدا • ويقيم بينهم عدد كبير من المنجمين والأطباء ، العليمين جد العلم بفنونهم • وجميع الناس هناك ، سود ذكورا واناثا ، وفيما عدا قطعة من قماش يضعونها على مقدم أجسامهم ، فانهم يسيرون عراة تماما (٩) •

وقد جبلوا على الحسية المفرطة ، ويتخذون ذوى قرباهم فى الدم زوجات ، فيتزوجون زوجات أبيهم عند وفاة الأب ، كما يتزوجون أرامل اخوتهم المتوفين (١٠) • على أن هذا ـ فيما أبلغت ـ هو حالة الأخلاق بكل أرجاء الهند •

الفصل السادس والعشرون

عن كومارى .

ان كومارى (١) هى ولاية ، يمكن أن تبدأ فيهـا رؤية جزء من مجموعة كواكبنا الشمالية ، التى لا يمكن رؤيتهـا فى جزيرة جاوه ــ كما أنها لا ترى أيضا الا بالكد عـلى بعد حوالى ثلاثين ميلا من هذا المكان ، وفيه تبدو مجموعة الكواكب هذه على ارتفـاع ذراع فوق الأفق (٢) . وليست بالبـلاد زراعة كثيرة ، وذلك لأن معظم أرضها مغطى بالغابات ، تأوى اليها أنواع كثيرة من الحيوانات ، وبخاصة القردة (الغمليا)، التى لها من الشكل ومن كبر الحجم ، ما يجعـل لهـا هيئـة انسان (٣) . وهنـاك أيضا قرود طـويلة الذيول تختلف اختلافا كبيرا عن الأولى من ناحية الحجم . ويكثر هناك الببر والنمر والوشق (وهو من فصيلة السنانير) .

الفصل السابع والعشرون

عن مملكة ديلي .

عند مغادرة ولاية كوماري ، والانطلاق غربا مسافة ثلاثمائة ميل ، تصل الى مملكة ديلي التي لها ملكها الخاص ولغتها المعينة (١) . وهي لا تدفع الجزية لاية دولة أخرى . يعبد الناس الاصنام ، وليست هناك ميناء لرسو السفن ، على أن هناك نهرا كبيرا له مدخل أمين (٢) . ولا تكمن قوة البلاد في كثرة عدد سكانها ، ولا في شجاعتهم ، بل في وعورة المسالك والممرات التي لابد من عبورها للدخول اليها ، والتي تجعل غزوها على يد عدو شبه مستحيل (٣) . وهي تنتج مقادير ضخمة من الفلفل والزنجبيل مع أنواع أخرى كثيرة من التوابل (٤) فلو دفعت مركب بالصدفة داخل مصب نهرها ، دون أن تقصد الاتجاه الى تلك الميناء ، أمسكوا بها وصادروا جميع ما تحمل من بضائع قائلين : « كنتم تنوون الذهاب الى مكان آخر ، ولكن آلهتنا اقتادتكم الينا حتى نمتلك متاعكم » . وتصل السفن القادمة من مانجي الى هنا قبل انقضاء موسم الجو الموائم وتحاول شحن حمولتها في مدى أسبوع واحد ، أو أقل من ذلك لو أمكن ، وذلك لأن المراسي غير آمنة بسبب الشطوط الرملية الممتدة على طول الساحل ، والتي كثيرا ما تعرضها للخطر ، مهما تزودت بالمراسي الخشبية الضخمة ، المعدة للتغلب على عواصف الريح العاتية (٥) ، والبلاد مليئة بالببور وكثير غيرها من الحيوان الشرس .

الفصل الثامن والعشرون

عن مالابار .

تحد مالابار مملكة متسعة الأطراف بالهند الكبرى ، تقع جهة الغرب ، وهى بلاد ينبغى الا يفوتنى أن اسرد بعض التفاصيل عنها (١) . ويحكم الناس ملكهم الخاص ، وهو ملك مستقل عن كل دولة أخرى ، كما أن لهم لغتهم الخاصة . وفى هذه البلاد يشاهد النجم الشمالى مرتفعا حوالى قامتين فوق الأفق . وهنا أيضا ، شان الحال بجزيرة جوزيرات ، التى لا تبعد كثيرا ، يكثر القراصنة ، الذين يطوفون كل عام فى هذه البحار بأكثر من مائة مركب صغيرة ويستولون على جميع السفن التجارية التى تمر بذلك الطريق وينتهبونها (٢) . وهم يأخذون معهم الى البحر زوجاتهم وأطفالهم من جميع الأعمار ، فيظلون فى صحبتهم أثناء موسم تطوافهم الصيفى كله . ولكى لا تفلت منهم سفينة واحدة ، فانهم يلقون مراسى سفنهم ، مع جعل المسافة بين الواحدة والأخرى خمسة أميال ، وبهذا تشغل عشرون سفينة متسعا مداه مائة ميل . فاذا ظهرت سفينة تجارية أمام واحدة منها ، أعطيت اشارة بالنار أو الدخان ، فتقترب مراكبهم كلها بعضها من بعض ، وتستولى على السفينة وهى تحاول المرور . ولا ينزل بأشخاص الملاحين أى أذى ، ولكنهم ما أن يستولوا على السفن ، حتى ينقلوهم الى الشاطىء ، ناصحين اياهم ، بالتزود بشحنة أخرى من البضائع ، وقد تكون ــ فى حالة مرورهم بذلك الطريق مرة أخرى ــ وسيلة لاثراء آسريهم للمرة الثانية .

وتوجد بهذه المملكة وفرة هائلة من الفلفل والزنجبيل والكبابة وجوز الهند ، كما أنه يصنع بها أنعم واجمل ما يمكن أن يوجد بأى بلد آخر من بلاد العالم من أنواع القطنيات (٣) . وتجلب السفن القادمة من مانجى ، النحاس جاعلة منه صابورة تحفظ توازنها، وتحمل فوق هذا الديباج القصب بالذهب والحرائر والشاش وسبائك الذهب والفضة. فضلا عن أنواع كثيرة من العقاقير مما لا تنتجه المبالابار ، فيبادلون عليها بسلع الولاية (٤) . وهناك في نفس تلك الأماكن تجار ، (يشحنون) السفن بالبضائع الأولى الى عدن فتحمل منها الى الاسكندرية (٥) .

والآن وقد تكلمنا عن مملكة مالابار ، فاننا سننتقل الى الحديث عن مملكة جوزيرات ، التى تتاخمها . ولو أننا حاولنا أن نتناول بالحديث جميع مدن الهند ، لاجتمع لدينا بيان ضخم لا آخر له ، قد يدعو الى السآمة ، ومن ثم فاننا سنمس فحسب المدن التى لدينا حولها معلومات خاصة .

الفصل التاسع والعشرون

عن مملكة جوزيرات •

يحكم مملكة جوزيرات التى يحدها من الجانب الغربى بحر الهند ، ملكها الخاص ، كما أن لها لغتها الخاصة (١) • ويظهر نجم الشمال من هناك مرتفعا ست قامات عن الافق • ويتيح هذا القطر مثوى للقراصنة من أشد الأنواع استيناسا ومجازفة (٢) ، ممن لو وقع فى أيديهم أثناء تطوافهم تاجر مسافر ، اجبروه على الفور على احتساء جرعة من ماء البحر ، وهى جرعة تكشف بما تفعله بأمعائه عما اذا كان مبتلعا بعض اللآلىء أو الجواهر عندما أحس باقتراب اعدائه منه لكى يخفيها فى بطنه •

وهنا توجد وفرة ضخمة من الزنجبيل والفلفل والنيلج • وينتج القطن بها فى مقادير عظيمة من شجرة يبلغ ارتفاعها ست ياردات وتظل تحمل الثمار مدة عشرين عاما ، ولكن القطن المأخوذ من أشجار بلغت تلك السن ، لا يستخدم فى المغازل بل فى صنع الألحفة • وعلى عكس ذلك ، فالقطن المأخوذ من أشجار عمرها اثنا عشر عاما ، صالح للموسلين وغيره من المنسوجات ذات النعومة والرقة البالغة (٣) • وتدبغ هنا أعداد جمة من جلود الماعز والجاموس والثيران البرية والخراتيت وغيرها من البهائم ، ثم توثق بها السفن وتوجه الى مختلف أجزاء بلاد العرب • وتصنع أغطية الفراش من جلد أزرق وأحمر ، يمتاز ببالغ الرقة والنعومة ويخاط

بخيوط الذهب والفضة (٤) ، وهى فرش اعتاد المسلمون الرقاد عليها • والنمارق (الشلت) أيضا ، المحلاة بأسلاك الذهب التى تمثل أشكالا للطير والحيوان ، هى من مصنوعات هذا المكان ، وتصل قيمتها فى بعض الحالات الى درجة فاحشة الغلو اذ تباع بستة ماركات من الفضة • وأشغال التوشية والتطريز تتم هنا فى رقة تفوق كل مثيلاتها بأجزاء العالم الأخرى قاطبة (٥) • واذ نمضى فى سبيلنا ، فاننا سنتحدث الآن عن مملكة كانان •

الفصـــل الثـــلاثون

عن مملكة كانان ٠

ان كانان مملكة كبيرة وفخمـــة ، تقـــع فى الاتجـــاه الغربى (١) ٠ ونقـــول فى الاتجاه الغربى ، لأنه نظرا لأن رحلة السير ماركو كانت تمضى من الجـــانب الشرقى ، فانه يتحدث عن الأقاليم فى الاتجاه الذى وجدها فيه ٠ ويحكمها أمير لا يدفع جزية لأى أمير آخر ٠ والقوم فيهـــا وثنيون لهم لغتهم الخاصة ٠ ولا ينمو هنا الفلفل ولا الزنجبيل عـــلى أن البلاد تنتج نوعا من البخور بمقادير وفيرة ، وهو ليس أبيض اللون ولكنه على العكس قاتم ٠ وتقصد هذا المكان كثير من السفن لتحمل وسقتها من هذا العقار ، فضلا عن أضرب متنوعة من أشياء أخرى (٢) ٠ وهم يشحنون فى سفنهم بالمثل عـــددا من الخيول ، لكي تباع بمختلف أرجاء الهند (٣) ٠

الفصل الحادى والثلاثون

عن مملكة كامبايا ·

وهذه أيضا مملكة متسعة ، تقع فى الاتجاه الغربى ، ويحكمها ملكها الخاص ، الذى لا يدفع جزية ما لأى ملك آخر ، كما أن لها لغتها الخاصة (١) · والقوم بها من الوثنيين · وفى هذا القطر يشاهد نجم الشمال أكثر ارتفاعا منه فى أى من الأقاليم السابقة ، وذلك بسبب وقوعه الى الشمال الغربى أكثر · والتجارة المتداولة به جسيمة جدا ، كما يصنع به مقدار كبير من النيلج(٢) · ويكثر به القماش القطنى ، فضلا عن قطن الحشو (٣) · وتصدر من هناك كثير من الجلود الجيدة الدباغة ، ويقبض ثمنها ذهبا وفضة ونحاسا وتوتياء (٤) · ولما لم يبق شىء يستحق الذكر فانى سأنتقل الى الحديث عن مملكة سرفيناث ·

الفصل الثاني والثلاثون

عن مملكة سرفيناش .

وسرفيناث أيضا مملكة تقع في اتجاه الغرب (١) ، وسكانها من عبدة الأوثان ، ويحكمهم ملك لا يدفع جزية ، ولهم لغتهم المميزة ، كما أنهم قوم لهم ميول كريمة وأخلاق دمثة . وهم يكسبون معاشهم بالتجارة والصناعة ، كما أن المكان ينتجعه عدد من التجار يحملون اليه بضائعهم ويأخذون بدلا منها سلع المملكة . وبلغني مع هذا أن الكهان الذين يخدمون في معابد الأوثان ينطوون على أشد ما حوى العالم من الغدر والخيانة والقساوة (٢) . وسننتقل الآن الى الحديث عن المملكة المسماة كسماكوران .

الفصل الثالث والثلاثون

عن مملكة كسماكوران •

هذه بلاد فسيحة لها ملكها الخاص ولغتها المميزة (١) • وبعض السكان وثنيون ، ولكن غالبيتهم عرب مسلمون (٢) • وهم يعيشون على التجارة والصناعات • وطعامهم الأرز والقمح ، بالاضافة الى اللحم واللبن اللذين يوجدان لديهم بوفرة • ويتوافد عليها تجار كثيرون ، بطريق البحر فضلا عن البر • وهذه آخر مقاطعة بالهند الكبرى ، وأنت متقدم الى الشمال الغربي ، وذلك أنها كما تبدأ عند المعبر فهي كذلك تنتهي هنا (٣) • وقد اقتصرنا في وصفها على الولايات والمدن التي تقع على ساحل البحر ، وذلك انه لو أننا خصصنا بالذكر ما يقع منها داخل البلاد لتضاعف كتابنا •

وسنتحدث الآن عن بعض جزر بعينها ، تسمى احداها جزيرة الذكور ، وتسمى الأخرى جزيرة الاناث •

الفصـــل الرابع والثلاثون

عن جزيرتي ، الذكور والاناث ٠

وبعيدا عن كيث ماكوران وعلى بعد حوالى خمسمائة ميل في اتجاه الجنوب ، وفي المحيط توجد جزيرتان تبعدان حوالى ثلاثين ميلا احداهما عن الأخرى ويسكن الأولى منهما رجال ، ليس بينهم امرأة واحدة ، وتسمى جزيرة الذكور ، وتسكن الأخرى نساء ، ليس بينهن رجال ، وتسمى جزيرة الاناث(١) وسكان الجزيرتين من جنس واحـد ، كمـا أنهم يعمـدون مسيحيين ، ولكنهم يتبعون شريعة العهـد القـديم ٠ ويزور الرجال جزيرة الاناث ويظلون معهن ثلاثة أشهر متعاقبة ، هى مارس وأبريل ومايو ، فيحتل كل رجل مسـكنا منفصلا مع زوجته ٠ ثم يعودون الى جـزيرة الذكور ، حيث يظللون سائر شهور السـنة بغير تواجـد أى اناث معهم ٠ وتحتفظ الزوجات بأبنـائهن معهن حتى يبلغوا سن الثانيـة عشرة ، فيرسلوا للانضمام وآبائهم ٠ فأما البنات فتحتفظ الأمهـات بهن حتى تبلغن سن الزواج ، ثم يمنحن لبعض رجال الجزيرة الأخرى ٠ وتولدت طريقة العيش هذه عن طبيعة الجو الخاصة بتلك المناطق ، التى لا تسمح بوجـودهم طـوال العـام مع زوجاتهم ، بغير التعرض لدفع ثمن ذلك ٠ ولديهم أسقفهم الذى يتبع كرسى جزيرة سقطرى(٢) ٠ ويزود الرجال النساء بما يلزمهن من طعام ببذر الحبوب ، ولـكن النسـاء يجهزن

الأرض للزراعة ويحصدن المحصول . وتنتج الجزيرة أيضا أنواعا عديدة من الفواكه ويعيش الرجال على اللبن واللحم والأرز والسمك . حيث يصطادون منه مقادير هائلة لأنهم صيادو سمك مهرة . والسمك بنوعيه الطازج والمملح كليهما يباع للتجار الذين يفدون الى الجزيرة (٣) ، والذين هدفهم الأول هو شراء العنبر الذى تجمع منه هناك مقادير .

الفصل الخامس والثلاثون

عن جزيرة سقطرى

عند مغادرة هاتين الجزيرتين ، والتقدم خمسمائة ميل في اتجاه الجنوب ، تصل الى جزيرة سقطرى ، وهي جزيرة كبيرة جدا تزخر بلوازم الحياة (١) • ويعثر السكان على سواحلهم على كثير من العنبر الذى يفرغ من أحشاء الحيتان (٢) • ونظرا لأنه سلعة تجارية يشتد عليها الاقبال ، فانهم يجعلون حرفتهم الامساك بهذه الأسماك ، ويتوصلون الى ذلك بحربونة شائكة ، يرشقونها في جسم الحوت رشقا قويا ثابتا بحيث لا يمكن نزعها • ويثبت في هذه الحربونة الحديدية حبل طويل ، في آخره « شمندورة » بقصد معرفة المكان الذى توجد به السمكة متى ماتت • وعندئذ يسحبونها الى الشاطيء ، ويشرعون في استخراج العنبر من بطنها ، بينما يحصلون من رأسها على عدة براميل من الزيت (العنبرى) (٣) •

وجميع الناس ، ذكرانا واناثا ، يعيشون عراة تقريبا ، لا يسترهم الا غطاء ضئيل من الأمام والخلف ، شأن الذين سبق وصفهم • وليس لديهم أى نوع من الحبوب عدا الأرز ، الذى يعيشون عليه هو واللحم واللبن • وهم يدينون بالمسيحية ، كما أنهم يعمدون على الوجه الأكمل (٤) وهم تحت الحكم الروحي والزمني لكبير أساقفة لا يخضع لسلطان بابا روما ، بل لبطريرك يقيم بمدينة بغداد ، وهو الذى يعينه في منصبه ، وان هو انتخبه الناس أنفسهم تولى البطريرك اعتماد ذلك بالاختيار (٥) • ويلجأ كثير من

القراصنة الى هذه الجزيرة بما يحملونه من بضاعة اغتصبوها ، فيشتريها منهم الأهالى بغير تردد ولا وازع مبررين تصرفهم بأنها بضائع نهبت من الوثنيين والمسلمين (٦) • وجميع السفن المتجهة الى ولاية عدن ترسو هنا ، وتشترى مشتريات كثيرة من السمك والعنبر ، فضلا عن أنواع مختلفة من البضائع القطنية ، التي تصنع بالجزيرة •

على أن الأهالى يشتغلون بالشعوذة والسحر أكثر من أى شعب آخر ، وان حرم عليهم كبير أساقفتهم ذلك ، وهو الذى يصدر عليهم قرارات الحرمان واللعنة ، من أجل هذه الخطيئة • على انهم لا يهتمون بذلك أدنى اهتمام ، واذا اوقعت احدى السفن التابعة لأحد القراصنة الضر باحدى سفنهم لم يفتهم أن ينزلوا عليه احدى تعاويذهم السحرية ، بحيث لا يستطيع مواصلة تطوافه فى البحار حتى يعوضهم عما حل بهم من أضرار ، وحتى لو أنه رزق ريحا مواتية ومساعدة له فى طريقه ، فان لديهم القدرة على تغيير اتجاهها ، وبذلك يجبرونه ــ على الرغم منه ــ الى العودة الى الجزيرة • ويمكنهم بالمثل ارغام البحر على الهدوء ، وبارادتهم يمكنهم اثارة العواصف والتسبب فى تحطيم السفن ، واحداث تأثيرات أخرى خارقة كثيرة ، لا حاجة بنا الى الافاضة فى تفاصيلها (٧) • وسنتحدث الآن عن جزيرة مدغشقر •

الفصل السادس والثلاثون

عن جزيرة مدغشقر الكبيرة .

متى غادرت جزيرة سقطرى ، واتخذت سبيلا وسطا بين الجنوب والجنوب الغربى الى مسافة ألف ميل ، بلغت جزيرة مدغشقر الكبيرة ، وهى من أكبر وأخصب جزر العالم . ويبلغ طول محيطها ثلاثة آلاف من الأميال (١) . وسكانها مسلمون اى من أتباع شريعة محمد (٢) . ولهم أربعة أشياخ ، وهى كلمة يمكن أن يعبر عنها فى لغتنا الأجنبية بكلمة « الأكبرين سنا » « Elders » ــ يقتسمون الحكم فيما بينهم (٣) .

ويعيش السكان على التجارة والصناعة ، ويبيعون عددا لا حصر له من أنياب الفيلة ، وذلك لكثرة ما بالجزيرة من أفراد ذلك الحيوان ، شأنه فى زنزيبار أيضا التى تصدر بالمثل مقادير ضخمة من سن الفيل (٤) . والطعام الرئيسى الذى يؤكل على مدار فصول السنة هو لحم الجمال . على حين أن لحم أنواع الماشية الأخرى ، يستخدم أيضا طعاما لهم ، وان فضل الناس عليها لحم الجمل ، بوصفه أصح وأشهى أنواع اللحم التى توجد بهذا الجزء من العالم (٥) .

وتحتوى الغابات على كثير من أشجار الصندل الأحمر . وبنفس نسبة كثرة وجوده يقل سعره . وهناك أيضا كثير من العنبر المستخرج من الحيتان ، فاذا قذفه المد على الساحل جمع ليباع .

ويصيد الأهالى الوشق (*) والببر وأنواعا أخرى من الحيوان (٦) ، مثل الوعل والظبى والأيل الأسمر ، وهى تتيح لهم رياضة وقبضا كثيرا ، شأن الطيور أيضا التى تختلف عن طيور بلادنا وأجوائنا ·

ويقبل الى الجزيرة كثير من السفن ، تقصدها من ارجاء مختلفة من العالم ، جالبة معها تشكيلات من البضائع ، تأتلف من الديباج المقصب والحراير ذات الرسومات المختلفة ، وهى تباع لتجار الجزيرة أو يبادل بها على بضائع أخرى ، وكلها تدر عليهم أرباحا طائلة · وليس ثمة ملجأ آخر للسفن بالجزر الأخرى العديدة الواقعة الى الجنوب أكثر ، اذ لا تقصد السفن الا هذه وجزيرة زنزيبار وحدهما ·

ويجيء ذلك نتيجة لجريان مياه البحر بسرعة هائلة فى ذلك الاتجاه ، تجعل عودتها مستحيلة · والسفن التى تبحر من ساحل مالابار الى هذه الجزيرة ، تقوم برحلتها فى عشرين يوما أو خمسة وعشرين ، ولكنها تضطر فى رحلة العودة أن تكافح فى البحر مدة ثلاثة أشهر ، فما أشد قوة تيار الماء الذى يجرى على الدوام نحو الجنوب ! (٧) ·

ويقرر سكان الجزيرة ، أنه فى فصل معين من السنة ، يظهر لديهم قادما من مناطق الجنوب ، نوع خارق من الطير يسمونه الرخ · ويقال انه يشبه النسر شكلا ، ولكنه أضخم منه حجما بما لا مجال معه لمقارنة ، لأنه من الضخامة وشدة القوة ، بحيث يمسك بالفيل ببراثنه ويحمله فى الجو ، ثم يتركه يهوى الى الأرض ، حتى اذا مات سطا على جثته وافترسها · ويؤكد من شاهدوا هذا الطائر أنه متى بسط

(★) الوشق بفتح الواو والشين : حيوان من فصيلة القط ورتبة اللواحم ، من الثدييات ، وهو بين القط والنمر ، رأسه كبير ، وعلى طرفى كل من اذنيه خصلة من الشعر ، وذيله قصير ، يقطن الغابات ، كما يوجد فى الصحارى والمناطق الزراعية (مج) · (المترجم عن الوسيط)

جناحيه كان امتدادهما ست عشرة خطوة من الطرف الى الطرف ، وان طول كل ريشة ثماني خطوات ، مع ما يناسبها من الغلظ • واذ تصور السير ماركو بولو أن هذا المخلوق قد يكون من نوع الجريفين Griffin المرسوم في الصور ، والذى نصفه نسر ونصفه أسد ، فانه اهتم بوجه خاص بالاستفسار حول هذه النقطة ممن قرروا انهم رأوه ، ولكنهم اصروا على أن شكله هو شكل طائر تماما ، أو قل انه شكل النسر • ولما أن سمع الخان الأعظم بهذه القصة غير العادية ، ارسل رسله الى الجزيرة ، متذرعا بالرغبة فى اطلاق سراح خادم له حبس هناك ، ولكن قصده كان في الحقيقة الفحص عن احوال ذلك البلد ومدى صدق الأشياء العجيبة التى رويت عنه • فلما عادوا الى حضرة جلالته ، أحضروا معهم (كما سمعت) ريشة من ريش الرخ ، التى أكدوا ايجابيا أن طولها تسعون شبرا ، وان محيط انبوبتها راحتان • وأحدث هذا المنظر المدهش لجلالته سرورا مفرطا ، وانعم على من قدموا اليه هذه الريشة بهدايا سنية (٨) • وحملوا اليه كذلك ناب خنزير برى ، وهو حيوان ينمو هناك حتى يبلغ حجم الجاموسة ، ــ فظهر أنه يزن أربعة عشر رطلا(٩) • وتضم الجزيرة بالمثل الزراف والحمير وحيوانات ضارية أخرى ، تختلف تماما عن حيوانات بلادنا • والآن وقد قلنا ما هو ضرورى فى هذا الموضوع ، فاننا سنتحول بحديثنا الى زنزيبار •

الفصل السابع والثلاثون

عن جزيرة زنزيبار .

تقع جزيرة زنزيبار وراء جزيرة مدغشقر ، ويقال ان
محيطها يبلغ ألفى ميل(١) . والسكان يعبدون الأوثان ولهم
لغتهم الخاصة ، كما أنهم لا يدفعون جزية لأية دولة أجنبية .
وهم ضخام الأجسام ، ولكن طولهم لا يتناسب مع ضخامة
جثثهم . فلو تناسب الأمران لبدوا مردة ضخاما . ومع ذلك
فانهم ذوو بنية قوية ، وان الواحد منهم لقادر على حمل ثقل
ينوء به أربعة من رجالنا (فى الغرب) . ولكنه فى الحين
نفسه يحتاج الى طعام خمسة من رجالنا . وهم سود البشرة ،
عراة الأجسام ، لا يسترون الا الأجزاء الخاصة من أجسامهم
بقطعة من قماش (٢) . وشعرهم مفلفل جدا حتى ليصعب
بسطه ولو غمس بالماء . وأفواههم واسعة وأنوفهم مقلوبة
لأعلى نحو الجبهة ، وآذانهم طويلة ، وأعينهم متسعة ومخيفة
بحيث تضفى عليهم شكل الشياطين . ولا تقل المرأة عن
الرجل نصيبا من هذه البشاعة ، فلهن الفم الواسع والأنوف
الغليظة الفطساء والعيون الكبيرة . وأيديهن ورءوسهن
أيضا ضخمة ضخامة تخرج عن كل تناسب (٣) . ويوجد
بهذه الجزيرة أبشع نساء العالم خلقة ، بما لهن من أفواه
كبيرة وأنوف غليظة ، وأثداء بشعة يبلغ حجم الواحد منها
أربعة أضعاف ثدى أية امرأة أخرى . وهم يقتاتون باللحم
واللبن والأرز والبلح (٤) . وليس لديهم كروم عنب .
ولكنهم يصنعون من الأرز والسكر نوعا من الخمر ، مع
اضافة بعض العقاقير اللاذعة ، وهى لذيذة الطعم جدا ، ولها

المفعول المسكر للأخرى · وتوجد الفيلة بأعداد هائلة في هذه الجزيرة ، وتشكل أنيابها سلعة تجارية مهمة · وينبغي ان يلاحظ بصدد هذه الدواب أن طريقة تزاوجها ، هي بعكس المخلوقات البهيمية جملة ، وذلك نتيجة لموقع العضو الانثوى وهي تماثل طريقة النوع البشرى (٥) ·

ويوجد بهذه البلاد أيضا الزراف وهو حيوان رشيق · جسمه حسن التناسب ، وقائمتاه الأماميتان طويلتان وعاليتان ، بينما الخلفيتان قصيرتان ، والعنق طويل جدا والرأس صغير ، وهو حيوان وديع · واللون الغالب فيه فاتح مع بقع مستديرة ميالة الى الحمرة · وارتفاعه (أو طول العنق) ، بما في ذلك الرأس ، هو ثلاث خطوات (٦) · وتختلف غنم هذه البلاد عن غنمنا ، فانها بيضاء الجسم تماما فيما عدا الرءوس فانها سوداء (٧) ، وهذا هو أيضا لون الكلاب هناك · والحيوانات بعامة لها شكل مختلف عن شكل حيواناتنا · وتزور المكان كثير من السفن التجارية ، وهي تبادل على ما تجلب من بضائع بأنياب الفيلة والعنبر ، الذى يكثر وجوده على سواحل الجزيرة ، نتيجة لامتلاء البحر بالحيتان ·

ويشتبك شيوخ الجزيرة في الحرب أحيانا بعضهم مع بعض ، ويبدى قومهم بسالة كبيرة في القتال واحتقارا للموت (٨) وليس لديهم خيول ولكنهم يقاتلون ممتطين الفيلة والجمال · وهم يضعون على ظهور الفيلة قلاعا ، تتسع لما يتراوح بين خمسة عشر الى عشرين رجلا ، مسلحين بالسيوف والحراب والحجارة ، وهي الأسلحة التي يقاتلون بها (٩) وقبل الاشتباك في القتال يعطون فيلتهم جرعات من الخمر ، ظانين أنها تجعلهم أكثر حيوية وأشد ضراوة في الهجوم (١٠) ·

الفصـــل الثامن والثلاثون

عن مجموعة الجزر الوفيرة ببحر الهنـــد .

عنــد معالجة ولايات الهند ، لم أصــف منها الا أهمها وأعظمها شهرة ، وفعلت نفس الشيء ازاء الجزر ، التى تبلغ في العدد مالا يصدقه عقل . وسمعت حقا من ملاحى هــذه البلاد وأبرز ربابنتها ، كما قرأت في كتابات من شقوا بسفنهم عباب البحار الهندية ، أنها تبلغ مالا يقــل عن اثنتى عشرة ألفا وسبعمائة جزيرة بما فيهــا الآهلة بالســكان والخالية منهم (١) . يمتد القسم المسمى بالهند الكبرى من المعبر الى كزما كوران ، ويضم ثلاث عشرة مملكة كبيرة ، عددنا منها عشرا . وتبدأ الهنــد الصغرى عند زيامبــا وتمتــد حتى مورفيلى ، مشتملة على ثماني ممالك ، عدا ما يوجــد منهــا بالجزر وهى كثيرة العــدد جدا . وسنتحدث الآن عن الهنــد الثانية أو الهند الوسطى ، التى تسمى أباسكيا (٢) .

الفصــل التاسع والثلاثون

عن الهند الثانيــة أو الوسطى
المسماة أباسكيا (عن الحبشة) •

ان أباسكيا قطر فسيح الأطراف، يسمى بالهند الوسطى أو الثانية • وملكها الرئيسى يدين بالمسيحية - فأما الملوك الآخرون وعددهم ستة وهم تابعون للملك الأول ، فثــلاثة منهم مسيحيون وثلاثة مسلمون (١) وقد نبئت أن المسيحيين بهذه الأصقاع يسمون أنفسهم ، لكي يعرفوا على هذا الدين، بثلاث علامات أو سمات (على الوجه) ، واحدة منهــا عــلى الجبين وواحدة على كل خد ، وهي توسم بحديدة محماة ، ويمكن اعتبارها تعميدا ثانيا بالنار ، بعد الذى كان بالماء • فأما المسلمون فليس لديهم الا علامة واحدة ، توجد فى الجبهة وتصل الى منتصف الأنف • على أن اليهود الذين يكثر عددهم هنا أيضا لهم علامتان تجعلان على الخدين •

وتقع عاصــمة الملك الرئيسى المسيحى فى وســط البلاد (٢) • فأما ممتلكات الأمراء المسلمين فتقع فى اتجاه ولاية عدن (٣) وتم تنصير هذا الشعب على يد الرسول المجيد القديس توما ، الذى ما لبث بعد أن بشر بالانجيــل بمملكة النوبة وهدى سكانها للنصرانية ، أن زار أباسكيا ، وهنــا تمكن بفضل تأثير أحاديثه ، وقيامه بالمعجزات من بلوغ نفس الأثر • ثم انتقل بعد ذلك للاقامة بولاية المعبر ، حيث نال بعد تنصيره عددا لا حصر له من الأفراد ، تاج الشهادة كما ذكرنا آنفا ودفن بنفس المكان • وسكان أباسكيا هؤلاء قوم

شجعان ومقاتلون أشداء ، وذلك لتمرسهم دوما بالقتال مع سلطان عدن وأهالى النوبة ، وكثير غيرهم ممن تتاخم بلادهم بلادهم . ونتيجة لممارسة النزال التى لا تقف عند حد، يعدون خير جند فى هذا الجزء من العالم (٤) .

وبلغنى أنه فى عام ١٢٨٨ ، عقد ذلك الأمير الحبشى العظيم العزم على ان يزور بنفسه انقبر المقدس للمسيح ببيت المقدس ، وهو حج يؤديه كل عام عدد هائل من رعاياه ، ولكن ثناه عن عزمه كبار رجال حكومته ، الذين صوروا له الأخطار التى سيتعرض لها أثناء مروره بهذا العدد الضخم من الأماكن التابعة للمسلمين أعدائه . وعندئذ صمم أن يرسل الى هناك أسقفا ليكون ممثلا له ، وهو رجل ذو شهرة عالية بالقداسة والورع ، ولما أن وصل الى بيت المقدس تلا الصلوات وقدم القرابين التى أوصى بتقريبها الملك . ومع هذا ، فانه فى أثناء عودته من تلك المدينة مخترقا ممتلكات سلطان عدن ، أمر ذلك السلطان به فقدم الى حضرته وحاول اقناعه باعتناق الاسلام . فلما أن رفض بالقدر المناسب من الحزم أن يتخلى عن دينه المسيحى ، أمر به السلطان فختن مستخفا بغضب العاهل الحبشى ، ثم أمره بالرحيل . فلما أن وصل وقدم تقريرا بما أنزل به من اهانة وعنف ، أصدر الملك أوامره على الفور بحشد جيش ، سار على رأسه ، بقصد القضاء على السلطان ، الذى دعا بدوره لمعاونته اثنين من الأمراء المسلمين من جيرانه ، فانضما اليه بقوات ضخمة جدا . ودار عقب ذلك قتال ، انتصر فيه الملك الحبشى ، حتى اذا استولى على مدينة عدن أسلمها ليد السلب والنهب، انتقاما للاهانة التى لحقته فى شخص أسقفه (٥) .

ويعيش سكان هذه المملكة على القمح والأرز واللحم واللبن . وهم يستخرجون الزيت من السمسم ، ولديهم كثرة موفورة من جميع المواد الغذائية . وتوجد بالبلاد فيلة

وأسود وزرافات وأضرب كثيرة من حيوانات أخرى ، كحمر الوحش والنسانيس التى لها شكل الناس ، فضلا عن كثير من الطيور ، البرية والمنزلية (٦) • وهى غنيـة بالذهب غنى مفرطا (٧) ، ويقصدها التجار كثيرا ، فيحصلون من ورائها على مكاسب كبيرة • وسنتحدث الآن عن ولاية عدن •

الفصـــل الأربعـــون

عن ولاية عدن (١) ٠

ويحــكم ولاية عدن ملك ، يتلقب بالســلطان (٢) ٠ وجميع الأهالى بها مسلمون ويمقتون المسيحيين أشد المقت ٠ ويوجد بهذه المملكة كثير من المدن والقلاع ، كما أنها تمتلك مزية مهمة ، هى ميناء ممتازة تؤمها السفن القادمة من الهند محملة بالعقاقير والأفاويه ٠ والتجار الذين يشترونها بقصد نقلها الى الاسكندرية ، ينزلونها من السفن التى استوردت فيها ويوزعون الحمولات على باركات أو سفن أصغر حجما ، يمخرون بها خليجا من البحــر مدة عشرين يوما ، تزيد أو تقل ، حسب الجو الذى يلاقونه ٠ حتى اذا بلغــوا ميناءهم حملوا بضائعهم على ظهور الجمال ، ونقلوها برا (فى رحلة ثلاثين يوما) حتى يصلوا نهر النيل ، وهناك توضع للمرة الثانية فى سفن صغيرة ، تسمى « الجرم Jerms » فيحملها تيار ذلك النهر الى القاهرة ، ومنها تنقل فى النهاية بقناة صناعية تسمى «الكاليزى» (Kalizene) الى الاسكندرية (٣) ٠ وهذا أقل الطرق التى يسلكها التجار ببضائعهم المنتجة ببلاد الهند طولا ومشقة ، من عدن الى تلك المدينة ٠ وفى ميناء عدن هذا ، يشحن التجار أيضا عــددا ضخما من الخيــول العربية ، التى يحملونها للبيع بجميع جزر الهند وممالكها ، حاصلين فيها على أثمان مرتفعة ومحققين مكاسب ضخمة (٤) ٠

ويملك ســلطان عدن كنوزا طائلة ، مما يجمعــه من المكوس التى يفرضها كذلك على البضائع التى ترد من الهند ،

فضلا عن تلك التى تشحن في موانيه بوصفها البضائع المقابلة ، وذلك نظرا لأن عدن أضخم سوق بتلك المنطقة ، لتبادل السلع ، كما أنها المكان الذى تلجأ اليه جميع السفن التجارية • وبلغنى أنه عندما قاد سلطان بابل (: القاهرة) جيشه أول مرة على مدينة عكا ، واستولى عليها ، زودته مدينة عدن هذه بثلاثين ألف حصان وأربعين ألف جمل ، بدافع من حقدها على المسيحيين (٥) • وسنتحدث الآن عن مدينة أسكيير •

الفصل الحادى والأربعون

عن مدينة اسكيير •

حاكم هذه المدينة مسلم ، يحكمها بعدل تضرب به الأمثال، تحت السيادة العليا لسلطان عدن • وبعدها عنها يقارب أربعين ميلا الى الجنوب الشرقى (١) • وتخضع لها كثير من المدن والقلاع وميناؤها صالحة لرسو السفن ، ويزورها كثير من السفن التجارية القادمة من الهند ، والتى تعود منها حاملة عددا من الخيول الصافنات ، التى تلقى أعظم التقدير بتلك البلاد وتباع بها بأسعار طائلة •

وتنتج هذه المنطقة مقدارا عظيما من اللبان الأبيض ، يعد من أجود الأنواع (٢) • وهو يسيل قطرة قطرة ، من شجرة صغيرة معينة تشبه شجر التنوب Fir ويجرح الناس جسم الشجرة بين حين وآخر ، أو ينزعون لحاءها ، ومن هذا الجرح ، ينضح اللبان رويدا رويدا ثم لا يلبث بعد ذلك أن يتجمد • وحتى لو لم تخدش الشجرة فقد كان يحدث النضح مع ذلك نتيجة لفرط حرارة الجو • وبها أيضا كثير من النخل الذى ينتج مقادير موفورة من أجود البلح • ولا يزرع بهذه البلاد من الحبوب عدا الأرز والدخن ، ومن ثم يستدعى الحال الحصول على مواد غذائية أخرى من المناطق الأخرى • ولا تصنع خمرهم من العنب ، وانما يجهز الناس شرابا من الأرز والسكر والبلح ، وهو شراب لذيذ الطعم(٣) • ولديهم نوع صغير الحجم من الغنم ، لا تقع أذناه بنفس موقعها مع بقية أصناف ذلك النوع ، حيث ينمو فى مكانهما قرنان

صغيران ، وهناك أسفل قليلا فى اتجاه الأنف فتحتان تقومان بعمل الأذنين ٠

وهؤلاء الناس صيادو أسماك مهرة ، يصيدون التونة بمقادير ضخمة ، حتى لقد يباع اثنان منها بغروت بندقى ٠ وهم يجففونه فى الشمس (٤) ، ونظرا لأن البلاد أصبحت بسبب شدة الحر تكاد تحترق بالرمضاء ، ومن ثم لا يشاهد بها أى نوع من أنواع النبات ، فانهم يعودون ماشيتهم وأبقارهم وأغنامهم وخيولهم على الاغتذاء بالسمك المجفف ، الذى أصبحت تلك السائمة تتناوله بغير مضض، لأنه يقدم، اليها بغير انقطاع ٠ والأسماك المستخدمة لهذا الغرض من الأنواع الصغيرة ، التى يصطادونها بكميات ضخمة أثناء شهور مارس وأبريل ومايو ، فاذا تم تجفيفها خزنوها فى بيوتهم طعاما لماشيتهم ٠ ومع هذا فان الماشية لا تأبى الاغتذاء أيضا بالسمك الطازج ، وان تعودت بالأكثر تناوله جافا ٠ ونتيجة كذلك لندرة الحبوب يصنع الأهالى ضربا من الخشكنان (البسكوت) من مادة الأسماك الأكبر حجما على النحو التالى : فانهم يقطعونها قطعا صغيرة جدا، ويبللونها بشراب يغلظونه ويجعلونه لزاقا بما يخلطونه به من الدقيق ، الذى يضفى على الخليط قوام العجينة ٠ ثم يشكلون العجينة أقراصا شبيهة بالخبز ، فيجففونها بعد ذلك ويجمدونها بتعريضها للشمس المحرقة ٠ وتخزن كمية من هذا الخشكنان لتستخدم فى الاستهلاك على مدار السنة ٠ ويبلغ من شدة رخص اللبان سالف الذكر بتلك البلاد أن يشتريه الحاكم بسعر عشر بيزنطيات (دوقيات ذهبية) لكل قنطار ، ثم يتولى هو بدوره بيعها ثانية للتجار بأربعين بيزنطية ٠ وهو يفعل هذا بارشاد سلطان عدن (٥) الذى يحتكر كل ما تنتجه المنطقة بالسعر السالف ، ويجمع مكسبا ضخما من اعادة بيعه ٠ واذ لم يبق شىء يستحق الذكر فى هذا المكان ، فاننا سنتحدث الآن عن مدينة دولفار ٠

الفصل الثاني والأربعون

عن مدينة دولفار .

تعد دولفار مدينة أو بلدة كبيرة وذات شأن ، وتبعد عشرين ميلا عن اسكيير (الشحر) ، في اتجاه جنوبي شرقي (١) . وسكانها مسلمون ، كما أن حاكمها خاضع لسلطان عدن (٢) . ويقع هذا المكان قرب البحر وله ميناء جيدة تقصدها كثير من السفن . وتحشد هنا أعداد من الخيول العربية التي ترد من داخلية البلاد ، والتي يشتريها التجار ويحملونها الى بلاد الهند ، وفيها يكسبون مكاسب طائلة بالتصرف فيها بالبيع . وكذلك اللبان فانه ينتج هو الآخر هنا ، ويشتريه التجار . وتقع في دائرة اختصاص دولفار (أو ظفار اليمن) مدن وقلاع أخرى . وسنتحدث الآن عن خليج قلاياتي .

الفصل الثالث والأربعون

عن مدينة قلاياتى ٠

ان قلاياتى انما هى مدينة كبيرة ، تقع على خيلج يسمى خليج قلاتو ، يبعد عن مدينة ظفار بما يقارب خمسين ميلا الى الجنوب الشرقى (١) ٠ والناس هنا من أتباع شريعة محمد ، كما أنهم خاضعون لسيادة ملك هرمز (٢) الذى يلجأ عندما تهاجمه وتضيق عليه الخناق دولة أخرى الى الاحتماء بهذه المدينة التى هى من بالغ القوة فى حد ذاتها ، ومن حسن الموقع الممتاز ، بحيث انها لم تقع اطلاقا حتى الآن فى يد عدو (٣) ٠ ولما كانت المنطقة المحيطة بها لا تنتج أى نوع من أنواع الحبوب ، فانها تستورد من مناطق أخرى ٠ وميناؤها مرفأ جيد ، وتصل اليه من الهند كثير من السفن التجارية ، التى تبيع قطع القماش والتوابل بمكاسب بالغة ، وذلك لأن الطلب عليها جسيم لتزويد المدن والقلاع الواقعة على مسافة من الشاطىء (٤) ثم تعود السفن بالمثل فتحمل وسقات من الخيل ، يبيعونها فى بلاد الهند بأسعار مجزية ٠

وتقع القلعة فى موقع منيع عند مدخل خليج قلاتو ، بحيث لا تستطيع مركب الدخول اليه أو الخروج منه بغير اذن منها ٠ ويحدث أحيانا أن يشق ملك هذه المدينة ، الذى تربطه ارتباطات معينة مع ملك كرمان كما أنه من أتباعه ، عصا الطاعة ، لأن الملك الأخير فرض عليه دفع مبالغ غير عادية ٠ فاذا هو رفض دفع المطلوب منه ، وجرد عليه مولاه جيشا لاجباره على الاذعان ، غادر هرمز ، واتخذ قلاياتى

مركزا له ، حيث يصبح في امكانه منع آية سفينة من الدخول أو الاقلاع • ومتى تعطلت التجارة على هذا النحو يحرم ملك كرمان من الرسوم التي يجبيها ، ومتى وقع عليه بسبب ذلك ضرر بليغ في ايراداته ، اضطر الى تسوية نزاعه مع الملك • والواقع اذن أن الحصن المنيع القائم بهذا المكان ، لا يشكل بالفعل فقط مفتاحا للخليج بل وأيضا للبحر نفسه ، وذلك لأن المقيم بالحصن يمكنه في كل الأوقات اكتشاف السفن التي تمر (٥) •

وعلى الاجمال يعيش سكان هذه المنطقة على البلح والسمك ، سواء منه الطازج والمملح ، وذلك لأن لديهم على طول المدى مقادير ضخمة منهما كليهما (٦) ، على أن ذوى المكانة أو القدرة المالية من الناس يحصلون على القمح ليتغذوا به من بلاد أخرى • وعند مغادرة قلاياتي ، والتقدم ثلاثمائة ميل نحو الشمال الشرقي تصل الى جزيرة هرمز •

الفصل الرابع والأربعون

عن هرمز ٠

يوجد على جزيرة هرمز مدينة جميلة وكبيرة مبنية قرب الشاطيء تماما (١) ٠ ويحكمها ملك ، وهو لقب يعادل لقب أمير الثغور (التخوم) عندنا ، ولديه كثير من المدن والقلاع الخاضعة لسلطانه ٠ والسكان مسلمون يعتنقون جميعا عقيدة محمد ٠

والحرارة التى تخيم هنا مفرطة ، ولكن القوم يتزودون بكل بيت بمراوح ، يدخلون بواسطتها الهواء الى مختلف الطوابق ، والى كل شقة من شقق المنزل حسب الارادة ٠ فلولا هذه الوسيلة ما أمكن العيش بتلك المنطقة (٢) ٠ ولن نزيدك الآن بيانا عن هذه المدينة ، لأننا أعطينا الكفاية فى كتاب سابق عنها ومعها كيسى وكرمان (٣) ٠

الآن وقد عالجنا بالتطويل الكافى ، ولايات الهند الكبرى ومدنها ، التى تقع قرب ساحل البحر ، فضلا عن بعض أقاليم أثيوبيا ، المسماة بالهند الوسطى ، فاننى سأعود أدراجى ، قبل اختتام الكتاب، رغبة في ملاحظة بعض الأقاليم التى تقع فى اتجاه الشمال وأغفلت الحديث عنها فى الكتب السابقة ٠

ومن ثم ينبغى أن يكون معلوما ، انه يقيم في الأجزاء الشمالية من العالم كثير من التتار تحت رئيس اسمه قايدو ،

وهو من عترة جنجيزخان ، ومن الأقرباء الأدنين لقبلاى ، الخان الأعظم (٤) ٠ وهو ليس تابعا لأى أمير آخر (٥) ٠

ويرعى الناس عادات وأعراف أجدادهم ، ويعتبرون تتاراً أصلاء ٠ وهؤلاء التتار عبدة أوثان ، ويعبدون ربا يسمونه نا آجاى (Naagai) ، أى رب الأرض ، لأنهم يظنون ويؤمنون بأن ربهم هذا له السلطان في الأرض ، وعلى كل ما تخرجه من أشياء ، ويضعون لربهم هـــذا الزائف أوثانا وتماثيل من لباد، على ما أسلفنا اليك صفته من كتاب سابق٠ وملكهم وجيوشه لا يتحصنون في قلاع ولا حصون ولا حتى في مدن ، ولكنهم يظلون ، في كل الأوقات ، في الســـهول الطلقة أو الوديان أو الغـابات ، التى تمــلأ فجـاج تلك المنطقة ٠

وليس لديهم حبوب أيا كان نوعها ، ولكنهم يعيشـون على اللبن واللحم ، ويتعايشون بعضهم مع بعض فى انسجام تام ، اذ ليس لملكهم ــ الذى يقدمون اليه طاعة مطلقة ، من هدف أعز من الاحتفاظ بحبل الوئام والسلام بين رعاياه ، وهو الواجب الجـوهرى لأى عاهل ٠ وهم يمتلكون رعلانا هائلة من الخيل ، والبقر ، والغنم ، وغيرها من الحيوانات المنزلية ٠

ويوجد بهذه المناطق الشمالية دببة بيضاء اللون ، هائلة الحجم ، طـول الواحـد منهـا فى أغلب الحـالات عشرون شبرا (٦) ٠ وبها أيضا ثعـالب ، فراؤها سـوداء فاحمـة كلها (٧)، وأعداد غفيرة من حمر الوحش ، وحيوانات صغيرة معينة اسمها الروند Rondes لها فراء بالغة الرقة ويسميها الناس عندنا فراء السمور أو الزيبلين Zibelines (٨) وفضلا عن هذه ، فان هناك أنواعا أخرى من الدويبـات من نـوع الدلق وابن عرس ، والنوع الذى يسـمونه فأرة فرعون ٠ وأسراب هذا الحيوان الأخير ٠ لا يصدق العقل أعـدادها ،

ولكن التتار يستخدمون وسائل شديدة البراعة في امساكها بحيث لا تستطيع واحدة منها أن تفلت من أيديهم ٠

ومن الضروري لمن شاء وصولا الى وطن هذا الشعب أن يقوم برحلة أربعة عشر يوما عبر سهل فسيح وبطحاء، لا يسكنها أحد على الاطلاق ــ وهي حالة ترتبت عن كثرة ما فيه من تراكمات الماء والينابيع التي تحوله بأكمله الى مستنقع (٩) ثم لا يلبث هذا المتسع كله أن يتجمد نتيجة لطول مدة فصل البرودة ، فيما عدا بضعة أشهر من السنة تذيب فيها الشمس الثلوج ، وتحيل التربة الى طين ، يكون السفر عليه أصعب وأعسر مما لو كان جليدا كله ٠

ومع هذا فان هؤلاء القوم عمدوا لكي يمكنوا التجار من ارتياد بلادهم وشراء فرائهم التي هي السلعة التجارية الوحيدة لديهم ، الى أن يبذلوا الجهد لجعل عبور هذه البطحاء المستنقعية ممكنا للرحالة بتشييدهم بيتا خشبيا عند نهاية كل مرحلة يوم يرتفع قليلا عن سطح الأرض ، وبه ينزل أشخاص ، يتولون استقبال التجار ومنحهم وسائل المقام والراحة ، وارشادهم في اليوم التالي الى المحطة التالية من هذا النوع ، وهكذا يتقدمون من مزلفة الى مزلفة ، حتى يتموا عبور البطحاء (١٠) ولكي يتمكنوا من السفر فوق سطح الأرض المتجمد ، ينشئون نوعا من المركبة لا يختلف عن مثيلتها التي يستخدمها سكان المناطق الجبلية شديدة الانحدار والتي يكاد يتعذر عبورها بالمناطق المجاورة لبلادنا ، وهى التي تسمى (تراجولا) أو زلاقة ٠

وهي خالية من العجلات ومسطحة القاع ولكنها تعلو من الأمام بانحناءة شبه دائرية ، وبهذا التركيب تصبح لائقة للجرى بسهولة على الجليد (١١) ٠ وهم يحتفظون لجر هذه العربات الصغيرة بأنواع معينة من الحيوانات تشابه الكلاب، بل يمكن تسميتها بهذا الاسم ، وان بلغت حجم الحمير ٠

وهي قوية جدا ومتمرسة بالجر (١٢) . وتربط ستة منها في أزواج بكل عربة ، والعربة لا تحمل الا السائق الذى يسوق الكلاب وتاجرا واحدا مع حمولته من البضائع (١٣).

فاذا تمت رحلة النهار ، غادرها هو ومجموعة الكلاب تلك ، واذ يغيرهما التاجر كليهما ، من يوم لآخر على هـــذا النحو ، فانه يتم في النهاية رحلته عبر البطحاء ، ثم يحمل معه بعد ذلك (في طريق عودته) الفراء التي تأخذ طريقها لتباع في هذا القسم الذى نسكنه من العالم .

الفصل الخامس والأربعون

عن الأقاليم التى تسمى منطقة الظلمات .

توجد بعد أقصى أجزاء بلاد هؤلاء التتار بعدا ، وهى التى يتم فيها الحصول على الجلود التى تحدثنا عنها ، منطقة أخرى ، تمتد الى أقصى الأطراف الشمالية وتسمى منطقة الظلمات ، وذلك لأن الشمس لا ترى فيها أثناء معظم شهور الشتاء ، كما أن الجو معتم بنفس الدرجة على نحو يشبه ما نجده قبيل انبثاق فجر النهار ، حين يمكن القول عنا اننا نرى واننا لا نرى (١) .

ورجال هذا القطر ضخام البنية طوال القامة ، ولكن بشرتهم شاحبة جدا . ولا تربطهم معا حكومة ملك أو امير ، كما أنهم يعيشون بغير ما قوانين مستقرة وعادات مرعية ، بل وفق الخليقة البهيمية . وأذهانهم كليلة أيضا ويريم عليهم جو من الغباء (٢) . وكثيرا ما يقدم التتار على حملات نهب وسلب على هؤلاء الأقوام بغية اغتصاب ما لهم من ماشية وبضائع .

وهم من أجل ذلك ينتهزون فرصة تلك الشهور التى تعم فيها الظلمة البلاد ، حتى لا يحس أحد باقترابهم ، ولكن لعدم قدرتهم من التحقق من الاتجاه الذى ينبغى أن يسلكوه للعودة الى ديارهم بما نهبوه من غنائم، فانهم يتخذون حيطتهم من أن يضلوا الطريق ، بركوب أفراس لها أفلاء صغيرة فى ذلك الوقت ، فيسمحون للصغار بمصاحبة أمهاتها حتى تخوم

بلادهم ، ولكنهم يتركون الصغار تحت الرعاية الواجبة عند بداية المنطقة المعتمة • ومتى أتموا عمليتهم بمناطق الظلام واشتهوا العودة الى منطقة الضياء ، وضعوا العنان على أعناق الافراس وتركوها حرة في أتخاذ طريقها •

وهنا تعمل غريزة الأمومة عملها فتقتادها مباشرة الى المكان الذى تركت فيها صغارها ، وبهذه الوسيله يتمكن الراكبون من العودة بسلام الى محل اقامتهم •

وينتهز سكان هذه المنطقة (القطبية) فرصة فصل الصيف ، حين يستمتعون بنهار دائم الضياء ، فيمسكون بأعداد غفيرة من حيوان القائم (الارمين) ، والدلق ، والأركولين (أو العرسة الرمادية والأركولين)(٣) والثعالب، وحيوانات أخرى من هذا القبيل، وهى حيوانات فراؤها أنعم وأرق ، فهي من ثم أثمن كثيرا ، من الحيوانات الموجودة بالمناطق التي يسكنها التتار ، الذين ، يدفعهم الجشع من أجل ذلك الى القيام بحملات السلب التي سبق وصفها (٤) • وفي أثناء الصيف أيضا يحمل هؤلاء القوم فراءهم الى الأقاليم المجاورة حيث يتصرفون فيها بالبيع بطريقة مجزية لهم الى أقصى حد ، وطبقا لما سمعته فان بعض ذلك الفراء يحمل حتي يصل الى الروسيا على بعدها (٥) وهى البلاد التى سنتحدث عنها فى هذا الجزء الختامي من عملنا •

الفصل السادس والأربعون

عن ولاية الروسيا (١) ٠

ان ولاية الروسيا ، وهى ولاية مترامية الأطراف ، تنقسم الى أجزاء كثيرة ، وتتاخم تلك الشقة الشمالية التى وصفت بأنها منطقة الظلمات (٢) ٠ وسكانها مسيحيون يتبعون الطقوس اليونانية فى صلواتهم ومراسمهم الكنسية٠ والرجال فيها حسان الوجوه الى آخر حد ، طوال القامة ، شقر البشرة ، فأما النساء فهن شقراوات أيضا ممتلئات الأجسام ، مع شعر فاتح ، تعودن ارساله طويلا ٠ وتدفع البلاد الجزية لملك التتار الغربيين ، الذين تتاخم حدودها الشرقية ممتلكاتهم (٣) ٠ وفيها تجمع بوفرة هائلة فروات التواقم والأركولين ، والسمور الأسود ، والدلق (العرسة الشهباء) والثعلب ، وحيوانات أخرى من هذه القبيلة مع قدر كبير من الشمع (٤) ٠ وهى تحتوى على مناجم عديدة ، يحصل منها على مقدار كبير من الفضة (٥) ٠ والروسيا اقليم مفرط البرودة ، كما أكد لى العليمون بالأمور أنها تمتد حتى تبلغ المحيط الشمالى ، حيث تصاد السناقر والبزاة الجوالة فى أعداد هائلة ، كما أسلفنا اليك فى جزء سابق من الكتاب ، وهى تحمل من هناك الى مختلف أجزاء العالم ٠

الفصل السابع والأربعون (١)

عن تركيا الكبرى :

يوجد بتركيا الكبرى ملك اسمه قايدو ، وهو ابن أخي الخان الأعظم ، لأنه ابن ابن كياجاتاى (أو جاغتاى) شقيق الخان الأعظم (٢) . وهو يملك مدنا وقلاعا كثيرة ، كما أنه سيد عظيم جدا . وهو تترى كما أن رجاله هم أيضا من التتار وهم من خيرة المقاتلين ، ولا عجب في هذا ، لأنهم جميعا رجال نشئوا على التمرس بالحرب ، واني لأقرر لك أن قايدو هذا لم يذعن بالطاعة اطلاقا للخان الأعظم ، قبل أن يخوض معه أولا ، غمار حرب عظمى . ولا يغيبن عن بالك أن تركيا الكبرى هذه تقع الى الشمال الغربى منا ونحن نغادر هرمز ، بالطريق سالف الذكر .

وتقع تركيا الكبرى وراء نهر ايون (٣) وتمتد منبسطة شمالا حتى ممتلكات الخان الأعظم . وخاض هذا الملك قايدو معارك كثيرة مع الشعوب التابعة للخان الأعظم ، وسأقص عليك كيف اشتبك معه في خلاف .

ينبغي أن تعلم علم اليقين أن قايدو أرسل ذات يوم الى الخان الأعظم ينبئه أنه يريد نصيب فيما حصلا عليه معا بالفتح ، مدعيا لنفسه نصيبا في ولاية كاثاى وولاية مانجى أيضا . وأبلغه الخان الأعظم أنه راغب ملء فؤاده في اعطائه نصيبه ، كما فعل مع أبنائه ، ان هو تردد ، من جانبه ، على بلاطه وحضر مجالسه بقدر ما يكتب اليه طالبا ذلك ، وأبدى الخان الأعظم ارادته فوق هذا أنه ينبغى له أن

يطيعه كالآخرين : آبائه وباروناته (أعني نبلاءه) ، وقال الخان الأعظم انه على هذا الشرط سيمنحه نصيبه من فتوحات الصين على أيديهم ·

ولكن قايدو كان لا يطمئن الى عمه الخان الأعظم ، ومن ثم رفض هذا الشرط قائلا انه يريد أن يقدم له الطاعة وهو في اقليمه ، ولكنه يأبى الذهاب الى بلاطه على أى اعتبار من الاعتبارات ، وذلك لخوفه من أن يلقى مصرعه ·

وهكذا نشأ الشقاق بين قايدو والخان الأعظم ، وهو الذى أدى الى اندلاع حرب كبرى ، ونشوب معارك ضخمة ، حامية الوطيس بينهما · ووضع الخان الأعظم جيشا حول مملكة قايدو ، لمنعه هو وشعبه من انزال أى ضرر بممتلكاته أو شعبه ·

ولكن رغم كل هذه الاحتياطات التى اتخذها الخان الأعظم أغار قايدو على ممتلكاته وقاتل عدة مرات القوات التى وجهت لاعتراضه ومقاومته · والآن استطاع الملك قايدو ، ببذل الجهد الشديد ، أن يحشد في الميدان مائة ألف راكب ، وكلهم من خيرة الرجال ومن المحنكة المدربين على الحرب والقتال · وفوق هذا ، كان منضما اليه عدة نبلاء (بارونات) من عترة الامبراطور ، أى من نسل جنجيز خان مؤسس الامبراطورية ·

وسننتقل الآن للحديث عن بعض المعارك التى دارت بين قايدو وشعب الخان الأعظم ، على أننا سنبدأ بوصف طريقة قتالهم · فانهم عندما يخرجون للحرب ، يكلف كل واحد منهم بحمل ستين سهما ، ثلاثون منها ذات حجم أصغر ، أعد للرماية عن بعد ، على حين أن الثلاثين الأخرى أكبر حجما ، ولها نصل عريض ، فيعمدون الى استخدام هذه الأخيرة عن قرب ، فيضربون بها أعداءهم فى وجوههم وأذرعهم ، ويقطعون

أوتار قسيهم وينزلون بهم بواسطتها أضرارا فادحة • حتى إذا افرغوا كل سهامهم يستلون سيوفهم ودبابيسهم ، وينقضون بها بعضهم على بعض بضربات عنيفة •

ومن عام ١٢٦٦ ، حشد هذا الملك قايدو ومعـه أبنـاء عمومته ، وكان اسم أحدهم جيسودار ، حشدا عرمرما من الناس ، هاجم به اثنين من نبـلاء الخان الأعظم ، كانا هما أيضا من أبناء عمومة الملك قايدو ، وان توليا حكم بلادهما بتنصيب من الخان الأعظم • وكان اسم أحـدهما تاباى أو كيبان • وهما من أبناء كيـاجانا (جاغتاى) ، الذى تلقى تعميدا مسيحيا ، وكان شقيقا للخان الأعظم قبلاى • والآن ، خاض قايدو ورهطه غمار معركة مع ابنى عمه هذين ومعهما أيضا جيش عظيم ، وذلك لأنه كان هناك زهاء مائة ألف خيال فى كل جانب من الجانبين •

وحمى وطيس القتال بين الفريقين ، وقتل الكثيرون من كل من الجانبين، ولكن المعركة انتهت أخيرا بفوز الملك قايدو بالنصر ، وانزال دمار فادح بأعدائه •

ولكن الأخوين ابنى عم الملك قايدو ، فرا دون أن يصابا بأذى ، وذلك لأنهما كانا يمتطيان جوادين فارهين حملاهما بعيدا بأعظم سرعة • فلما أن أحرز قايدو النصر على ماترى، تزايد كبرياؤه وصلفه ، وعاد الى بلاده ، حيث أقام سـنتين كاملتين فى سلام دون نشوب أى قتال بينه وبين الخان الاعظم ولكن قايدو عاود عند نهاية السنتين حشد جيش عظيم •

وكان يعلم أن ابن الخان الأعظم المدعو نوموجان كان فى قره قورم ، وأنه كان معه جورج حفيد البريسترجون ، ومع (الأميرين) أيضا ، جيش جرار من الفرسان • فلما أن جمع الملك قايدو جمـوعه ، زحف من بلاده ، وبلغ ، بغـير أحداث تستحق الذكر المنطقـة المجـاورة لقره قورم ، حيث

تجمع الأميران ، وهما ابن الخان الأعظم ، وحفيد البريسترجون ، مع جيشهما • وبدلا من أن يتسرب الخوف الى قلب الأميرين ، استعدا لملاقاتهم بكل حمية وشجاعة ، حتى اذا تم للقائدين حشد جيشهما بأكمله ، وكان مؤلفا من عدد لا يقل عن ستين ألف فارس ، زحفا وعسكرا على خير وجه وأحسن نظام وعن بعد حوالى عشرة أميال من الملك قايدو ، الذى كان معسكرا برجاله بنفس السهل •

وظل الطرفان مقيمين بمعسكريهما حتى اليوم الثالث ، وهما يعدان العدة للقتال على خير وجه ممكن ، وذلك لتعادل أعدادهما تقريبا ، حيث لم تكن عدة أى منهما لتتجاوز الستين ألف راكب ، مسلحين أجود تسليح بالقسى والنبال ، وبسيف ودبوس وترس لكل •

وكان كل جيش مكونا من ستة كراديس بكل منها عشرة آلاف رجل ، ولكل منها قائدة • فلما تراءى الجمعان محتشدين في الميدان ، ولم تبق الا الاشارة بقرع النقرزان (٤) ، رفعا عقيرتهما بالغناء وعزف الآلات الموسيقية بطريقة معجبة بديعة • وذلك لأنه لا يسمح للتتار بالشروع فى القتال، حتى يسمعوا نقارات قائدهم وقد أخذت تقرع ولكن ما تكاد تقرع حتى يشرعوا فى القتال ، كما أن من عاداتهم ــ وهم ينتظرون على هذا النحو ــ اشارة المعركة ــ أن يغنوا ويعزفوا على آلاتهم ذات الوترين بطريقة عذبة شجية ، ويمتلئون بالشدو والبهجة •

وما كاد النقرزان يسمع حتى ابتدأت المعركة ، ووضعوا أيديهم على قسيهم وثبتوا النشاب فى الوتر • وما هى الا لحظة حتى امتلأ الجو بسهام كأنها المطر ، وحتى كنت ترى الكثير من الرجال والكثير من الخيل ، قد سقطوا صرعى ، وحتى علا الصياح والضجيج الى عنان السماء ، وأصبح من العسير على المرء أن يسمع رعد الاله • والحق انهم تقاتلوا كأنهم أعداء ألداء •

والحق انه مادام لدى الفرد فيهم اية سهام في جعبته قان من كان مستطيما لم يكف قط عن الرماية ، ولئن اشتد القتل وكثر المصابون بجروح مصمية : (قاتلة) • بحيث ان المعركة بدأت بداية لا تبشر بالخير لأى من الطرفين • حتى اذا استنفدوا ما لديهم من سهام ، ألقوا بقسيهم فى قرابها ، وشهروا سيوفهم ودبابيسهم ، ثم اذا هما يندفعان بعضهما على بعض ويشرعان في كيل الضربات الرهيبة •

وهكذا ابتدءا معركة بالغة الشراسة والرهبة ، وقد أعملا القتل بعضهما في بعض حتى انه سرعان ما غطيت الأرض بأشلاء القتلى • وقام قايدو بوجه خاص بالمعجب العظيم من آيات القتال ، فلولا بسالته الشخصية ، التى أعادت الشجاعة الى أتباعه ، لأوشكت الهزيمة أن تحيق بهم عدة مرات • فأما فى الجانب الآخر ، فان ابن الخان الأعظم ، وحفيد البريسترجون ، أظهرا كذلك شجاعة عظيمة • وموجز القول ، كانت هذه واحدة من أشد المعارك الدموية التى دارت بين التتار ، وذلك لأنها استمرت حتى أرخى الليل سدوله ، ورغم الجهود العنيفة لم تتمكن أى من الطائفتين من زحزحة الأخرى من الميدان الذى غطته جثث لا عداد لها كان منظرها يثير الحسرة فى النفوس ، فكم من سيدة ترملت فى ذلك اليوم المشئوم ، وكم من ولد تيتم! • وعندما غربت الشمس توقف كل من الجانبين عن القتال ، وعادا الى معسكريهما ليستريحا فى هدأة الليل •

وفى الصباح التالى ، قام الملك قايدو ، بعد أن تلقى معلومات بأن الخان الأعظم ، جرد عليه جيشا جرارا ، بتعبئة جنده بأسلحتهم عند الفجر ، فلما امتطوا جيادهم أمرهم بالمسير نحو بلادهم • وبلغ من اعياء خصومهم من معركة اليوم السابق أن لم يبذلوا أية محاولة لتعقبهم ، بل تركوهم ينصرفون بلا أدنى مضايقة • وواصل جند قايدو تقهقرهم حتى بلغوا سمرقند بتركيا الكبرى •

الفصل الثامن والأربعون

ماقاله الخان الأعظم عن الأضرار التي ألحقها به قايدو .

ثارت ثائرة الخـان الأعظم بدرجة كبيرة عـلى قايدو ، الذى دأب دوما على الحاق أضرار جسيمة بشعبه ومملكته ، وقال في نفسه ، لو لم يكن ابن أخيه لما وجب أن ينجو من شر ميتة . بيد أن شعوره بروابط القربى حال بينـه وبين القضاء عليه وعلى أراضيه ، وهكذا أفلت قايدو من قبضـة الخان الأعظم . وسنترك الآن هذه المسألة ونحدثك حديثـا عجيبا عن ابنة الملك قايدو .

الفصل التاسع والأربعون

عن ابنة الملك قايدو ، وكم كانت قوية وباسلة ! .

ينبغي لك أن تعرف أن الملك قايدو كانت له ابنة تسمى بلغة التتار آبجيارم (١) ، ومعناها القمـر المنـير . وكانت هذه الآنسة من قوة البدن ، بحيث لم يوجد بالمملكة كلها شاب يستطيع التغلب عليها ، اذ كانت تصرعهم جميعا . وأراد أبوها الملك أن يزوجها ، ولكنها أبت ذلك قائلة انها لن تتخذ لنفسها زوجا ، حتى تلتقي برجل يقهرها قوة واقتـدارا ، فأعطاها أبوها وعدا مكتوبا بأنها تستطيع أن تتزوج بملء ارادتها . فأرسلت الى كافة أرجاء العالم رجالا يعلنون . أنه اذا جاء أى شاب لمنازلتها واختبار قوته مع قوتها ، فتغلب عليها بالقوة ، فانها ستقبله زوجا لها .

ولم يكد هذا الاعلان يذاع بين النـاس ، حتى توافد الكثيرون من كافة أرجاء الدنيا ليجربوا حظهم معها . وتمت التجربة بجدية مهيبـة . واتخذ الملك مقعـده في القـاعة الكبرى للقصر ، مع حشد كبير من الرجال والنساء ، ثم حضرت ابنة الملك في ثوب من السندال (: فاخر الحرير الرقيق) ، وقد زينت زينة فاخرة ، فتقدمت الى وسط القاعة ، ودخـل في اثرها الشاب وقد ارتدى أيضا ثوبا من السندال . وتم الاتفاق على أنه لو تمـكن الفتى من التغلب عليهـا بحيث يطرحها أرضا ، فانه سيحظى بها زوجة له .

ولكن لو حدث العكس وقهرته ابنة الملك ، خسر لها مائة

حصان • وبهذه الطريقة حصلت الآنسة على أكثر من عشرة آلاف حصان ، اذ أنها لم تلتق بانسان قادر على التغلب عليها، ولا عجب في ذلك ، فانها كانت من متانة التكوين في كل أطرافها ، ومن فارع الطول وقوة البنية ، بحيث تكاد تعد في المردة •

وأخيرا حدث حوالى عام ١٢٨٠ ، أن وفد على القصر ابن الملك ثرى ، كان شديد الجمال صغير السن ، وكانت تصحبه حاشية فائقة ممتازة وأحضر معه ألف حصان من أجمل الجياد •

وما كاد يصل حتى أعلن أنه جاء ليجرب قوته مع الأميرة • واستقبله الملك قايدو بحفاوة عظيمة لشدة رغبته ان يكون هذا الشاب ختنا له (أى زوجا لابنته) ، لعلمه أنه ابن ملك بامار (٢)، وعلى هذا أبلغ قايدو ابنته سرا أنه يريد منها أن تسمح بأن تقهر في هذه المرة • بيد أنها أبت قائلة ان أى شيء في هذه الدنيا لا يمكن أن يحملها على فعل ذلك •

وعندئذ تبوأ الملك والملكة مكانيهما في القاعة ، مع حشد عظيم من الجنسين ، وقدمت ابنة الملك نفسها على جارى العادة ، وكذلك فعل ابن الملك الذى استرعى الأنظار بجماله بقدر ما استرعاها بقوته وشدة مراسه • والآن ، فلقد اتفق عندما أحضر الطرفان الى القاعة ، بناء على سمو رتبة الخاطب، أن يكون شرط التجربة أنه اذا قهر الأمير الصغير ، وجب أن يخسر الألف حصان التى أحضرها معه للرهان • فلما أن تم هذا الاتفاق ، بدأ الصراع ، وتمنى كل من كان هناك بما فيهم الملك والملكة من كل فؤادهم ، لو كان الأمير هو الفائز ، وأصبح هو زوج الأميرة •

ولكن الأمور جرت على عكس آمالهم ، فبعد الكثير من الشد والجذب فازت ابنة الملك بالنصر ، وألقى الأمير الشاب على افريز القصر ، وخسر خيله الألف •

ولم يبق فى القـاعة انســان لم ينتحب على ما ناله من هزيمة • وبعد هذا صار الملك يأخذ ابنته معه فى معـارك قتاله العديدة ، فما كان فارس واحد فى جحفله كله ليبدى من البسالة ما كانت تبديه ، وأخيرا اندفعت الفتاة الى وسط الأعداء ، وأطبقت على أحد الفوارس وحملته الى قومها • والآن نترك هذه القصة ونتحرك للحديث عن معـركة كبرى دارت بين قايدو وأرغون ، ابن أباقا سيد ديار الشرق(٣) •

الفصـل الخمسـون

كيف ارسـل أباقا ابنه ارغون بجيش ٠

والآن ، فان أباقا سـيد الشرق ، كان يملك ولايات كثيرة وبلادا كثيرة ، نتاخم ممتلكات الملك قايدو في الجانب المتجه نحو الشجرة التي تسمى في كتاب الاسكندر : « الشجرة الجافة « Arbor Secco » (١) ٠ واضطر أباقا نتيجة للأضرار التي أنزلها الملك قايدو ببلاده الى ارسال ابنه أرغون على رأس عدد ضخم جدا من الخيالة، الى اقليم الشجرة الجافة ، حتى نهر ايون ، حيث أقاموا ابتغاء حماية الاقليم من غارات قوم قايدو ٠ وبهذه الطريقة ظل أرغون ورجاله مقيمين بسهل « الشجرة الجافة » وكونوا من أنفسهم حاميات لكثير من المدن والبلدان المجاورة ٠ وعند ذلك حشد الملك قايدو عددا ضخما من الخيالة ، جعل على امرتهم أخاه براق ، وهو رجل حكيم شجاع ، وأصدر اليه الأوامر بقتال أرغون ٠ ووعد براق بتنفيذ أوامره، وبذل قصارى جهده في حربه لأرغون وجيشه، ثم زحف بجيشه ، وكان جيشا جرارا ، وتقدم في زحفه عدة أيام ، دون أن يلتقي بأية حادثة تستحق الذكر ، حتى بلغ نهر ايون ، حيث أصبح على بعد عشرة أميال فقط من جيش أرغون ٠ وعلى الفور استعد الطرفان كلاهما للنزال وبعد اشتباك شرس حامي الوطيس ، شب بعد ذلك بثلاثة أيام ، دارت الدائرة على جيش براق ، الذي لاحقه عدوه بمذبحة عظيمة فوق مياه النهر ٠

الفصل الحادى والخمسون

وبعد هذا النصر بفترة وجيزة ، تلقى أرغون نبأ وفاة والده أباقا ، فأصابه من ذلك حزن عظيم ، ثم انطلق بجحفله كله ، ماضيا فى طريقه نحو بلاط أبيه ، وهى مسافة رحلتها أربعون يوما ، لكى يتولى الولاية • وقد كان لأباقا أخ اسمه أكومات سلطان ، اعتنق الاسلام ، فلم يكد يسمع نبأ وفاة أخيه أباقا ، حتى دبر خطة الاستيلاء على الملك ، على اعتبار أن أرغون كان على مسافة قاصية لا يستطيع معها منعه من تنفيذ خطته • وعندئذ جمع جيشا قويا وذهب رأسا الى بلاط أخيه أباقا ، واستولى على أزمة الأمور ، وهناك وجد من الكنوز مالا يكاد يصدقه عقل لبالغ ضخامته ، فعمد الى توزيع هذا باغداق على بارونات (أمراء) أباقا وفرسانه ، وبذا ملك أعنة أفئدتهم ، فأعلنوا أنهم لن يرضوا به بديلا • وفوق هذا فان أكومات سلطان أبدى صلاحية عظيمة وأصبح محبوبا من الناس أجمعين • ولكن لم يطل الأمد بسلطانه المغتصب ، حيث ترامت الأنباء بأن أرغون يقترب بجحفل جرار • ولم يبد أكومات أدنى جزع ، بل سارع حتى كان قد جمع عددا لا حد له من الراكبة ، أعلنوا جميعا أنهم على استعداد للزحف على أرغون ، وأنهم لا يبغون شيئا سوى أسره واعدامه •

الفصل الثاني والخمسون

(كيف تقدم أكومات بجيشه لمحاربة ارغون) .

عندما اجتمع لأكومات سلطان ستون ألف خيال كاملة ، انطلق في طريقه لمنازلة أرغون وملئه ، وتوقف بعد مسيرة عشرة أيام ، واذ ترامت اليه الأنباء بأن العدو كان على مسيرة خمسة أيام منه ، وأن عدده يعادل عدد جيشه . وعندئذ نصب أكومات معسكره في سهل فسيح جميل المنظر ، وأذن الناس بانتوائه انتظار عدوه هناك ، بوصف ذلك موضعا مناسبا للقتال . وما كاد يرتب معسكره ، حتى جمع ملأه ، أشراف القوم وسراتهم ، وخاطبهم قائلا : « أيها الأمراء ! . . تعلمون جيد العلم كيف ينبغي لي أن أكون أميرا متمتعا بحق الولاء الاقطاعي على كل ما كان يملكه أخي آباقا ، لأني كنت ابنا لأبيه واشتركت في فتح جميع البلاد والأراضي التي نملكها . أجل ان أرغون كان ابنا لأخي أباقا ، وان بعضهم يدعون أن الوراثة تذهب اليه كحق شرعي ، ولكن مع كامل احترامي لكل من يرون هذا الرأى ، فانني أقول لهم انهم على خطأ ، وذلك لأنه ، كما أن أباه ملك زمام هذه السيادة الضخمة ، فليس الا عدلا أن أتولاها بعد موته ، وكان ينبغي لي بالحق أن يكون لي نصفها أثناء حياته ، وان أتاحت له مكارمي الاحتفاظ بالكل . ولكن لما كان الأمر كما حدثتكم فهيا أرجوكم ولندافع عن حقنا ضد أرغون ، حتى تظل المملكة والسيادة في أيدينا جميعا . وذلك لأني أؤكد لكم ان كل ما أرغبه لنفسي هو الشرف والشهرة ، بينما تكون لكم

جميع المغـانم والطيبـات والسـيادات بكل أرجاء بـلادنا
وولاياتنا • ولن أقول بعد ذلك شـيئا ، وذلك لعلمي أنكم
رجال عقلاء محبون للعدالة ، وأنكم ستتصرفون من أجـل
شرفنا وصالحنا جميعا » • فلما انتهى من خطابه أجابه جميع
النبلاء والفرسان وغيرهم ممن كانوا هناك في صيحة واحدة ،
انهم لن يتخلوا عنه مادام بأجسامهم رمق من الحياة ، وأنهم
مساعدوه على الناس جميعا ، وبخاصة على أرغون ، مضيفين
أنهم لا يخشون شيئا ، وأنهم لابد آسروه فسلموه الى يديه •
وبعد هذا بقى أكومات وجيشـه في معسـكرهم ، منتظرين
اقتراب العدو •

الفصل الثالث والخمسون

كيف عقد ارغون مجلسا مع نبلائه قبل لقاء آكومات ·

ونعود الآن الى أرغون ، فانه ما يكاد يتلقى أنباء حركات آكومات ، ويعلم أنه معسكر بهذا الجيش المرمرم ، حتى اشتد به التأثر ، ولكنه رأى الحكمة تقتضيه أن يبدى الشجاعة والحمية أمام رجاله وبعد أن دعا كل نبلائه وحكماء مستشاريه للقائه فى خيمته ، لأنه كان معسكرا أيضا فى منطقة موائمة جدا ، خاطبهم على الوجه التالى : « أيها الاخوة والأصدقاء العادلون ، تعلمون علم اليقين كم كان أبى يحبكم بحنان ، وكيف أنه وهو حى كان يعاملكم كاخوة وأبناء وتعلمون كيف شهدتهم معه كثيرا من المعارك ، وكيف ساعدتموه فى فتح ما ملك من بلاد · تعلمون أيضا أنى ابن لذلك الذى أحبكم حبا جما ، وأنا نفسي أحبكم كأنكم قطعة من جسمي · فمن الحق والعدل اذن ، أن تساعدونى على من يقف ضد العدالة والحق لكي يحرمنا من ارثنا فى أرضنا · وتعلمون فوق هذا كيف انه خرج على شرعتنا ، بل لقد نبذها وتخلى عنها وأصبح مسلما يعبد محمدا ، وكم سيسوؤنا أن نسمح للمسلمين بالولاية على التتار · والآن أيها الاخوان والأصدقاء العدول ، كل هذه الأسباب ينبغى أن تبث فيكم الشجاعة والارادة لبذل قصارى جهدكم للحيلولة دون حدوث شيء كهذا ،

من أجل ذلك أتوسل الى كل فرد فيكم أن يظهر نفسه رجلا شجاعا ، وأن يبرز كل حميته حتي تكون لنا الغلبة فى المعركة ، وحتى تكون السيادة والولاية لكم وليس للمسلمين. والحق ان كل فرد فيكم ينبغى أن يعول على النصر ، ويطمئن اليه، وذلك لأن العدل فى جانبنا وأعداؤنا فى جانب الباطل. ولن أزيدكم بعد هذا شيئا الا أن أتوسل الى كل منكم للمرة الثانية أن يؤدى واجبه » .

الفصل الرابع والخمسون

كيف رد النبلاء على أرغون ٠

فلما سمع النبلاء والفرسان الذين كانوا حاضرين خطاب أرغون ، عقد كل منهم عزمه على تفضيل الموت على الهزيمة ، وبينما هم وقوف صامتين متأملين فيما قال ، نهض أحد كبار الأمراء وتحدث على هذا النحو : « مولانا أرغـون العادل ! مولانا أرغون العادل ، نعلم علم اليقين أن ما قلته لنا هـو الحق والصدق ، ولذا فانى سأكون المتكلم باسم رجالك جميعا الذين يقفون معك فى خوض هذه المعركة وانهى اليك على الملأ أننا لن نخذلك مادام فينا عرق ينبض بالحياة ، وأننـا نؤثر الموت على عدم ادراك النصر ، ونحن عـلى ثقة من أننا سنهزم أعـداءك ، بسـبب عدالة قضـيتنا ، والبغى الذى اقترفوه ، وبناء على هذا أشير بأن نزحف عليهم من فورنا ، وأرجو كل رفاقنا أن يبلوا فى المعـركة من البـلاء الحسن ما يجعل العالم كله يتحدث بذكرهم » ٠ فلما انتهى هـــذا الرجل من قوله ، أعلن الآخرون جميعـا انهم عـلى رأيه ، وتصايح الجيش بأكمله بأنهم يريدون من قائدهم أن يقودهم بغير امهال ، وطبقا لهذا ، شرع أرغون ورهطه زحفهم فى بكرة صباح اليوم التالى بقلوب مكينة العزم ، فلما أن بلغوا السهل الفسيح الذى عسكر فيه أكومات ، أسسوا معسكرهم على أحسن تنظيم على مسافة عشرة أميال منه تقريبا ٠ وما كاد أرغون يعسكر حتى أرسل رسولين ثقة برسالة الى عمه ٠

الفصل الخامس والخمسون

كيف أرسل أرغون رسوليه الى اكومات .

عندما بلغ هذان الرسولان الثقة وهما رجلان متقدمان فى السن جدا ، معسكر العدو ، ترجلا عند خيمة آكومات ، حيث كان يحيط به حشد كبير من نبلائه ، فلما أن دخلا عليه سلما بأدب جم . وكان آكومات يعرفهما جيد المعرفة فتلقاهما بنفس الأدب الجم ، وأبلغهما ترحابه بهما وأمرهما بالجلوس بين يديه . وبعد أن ظلا جالسين فترة قصيرة ، نهض احدهما واقفا على قدميه وألقى رسالته على النحو التالى : « مولانا العادل آكومات ، يعجب ابن أخيك أرغون لسلوكك في أخذك مملكته منه ، ومن أقدامك ، الآن كذلك على الحضور للاشتباك معه فى صراع قاتل ، والحق ان هذا ليس حسنا كما أنك لم تتصرف كما ينبغى أن يتصرف عم نحو ابن أخيه . وبناء على ذلك يبلغك على لساننا أنه يرجوك برفق ، بوصفك ذلك العم والوالد الطيب ، أن ترد اليه حقه ، حتى لا تنشب بينكما معركة ، فيغمرك بكل تكريم وتشريف وتكون مولى على كل أراضيه من دونه . فهذه هى الرسالة التى يرسلها اليك ابن أخيك على يدينا » .

الفصل السادس والخمسون

جواب آكومات على رسالة أرغون ٠

لما أن سمع آكومات سلطان (صلضان) ، رسالة ابن أخيه أرغون ، أجاب بالتالي : « سيدي الرسول ، ان ما يقوله ابن أخي ، لا يرقى الى شيء ، وذلك لأن الأرض أرضي وليست أرضه ، وقد فتحتها أنا وأبوه على حد سواء ، وبناء عليه ، أخبر ابن أخي أنه لو شاء ، جعلته أميرا عظيما ، وسأعطيه من الأرض القدر الكافي ، وسيكون مني كابني تماما ، وأعلى الأمراء مقاما بعدي ٠ فان لم يفعل ، فلتؤكد له أني سأبذل كل ما في وسعي لأذيقه الحمام ٠ فذلك ما أنتوى فعله بابن أخي ، ولن تحصل مني اطلاقا على أي شيء ولا أي ترتيب آخر » ٠ فلما انتهى آكومات من حديثه سأله الرسولان ثانية : « أهذا كل الجواب الذي سنحصل عليه ؟ » ٠ فأجابهم قائلا : « نعم ، ولن تحصلا على جواب آخر ما دمت حيا » ٠ وانصرف الرسولان على الفور ، وسارا بأسرع ما يمكنهما الى معسكر أرغون ، ثم ترجلا عند خيمته وأبلغاه كل ما حدث ٠ فلما سمع أرغون رسالة عمه ، ثارت ثائرته ، وصاح على مسمع من كل من كانوا قريبين منه : « مادمت تلقيت مثل هذا الاعتداء والاهانة من عمي ، فاني لن أعيش ولن أملك أرضا ما لم أثأر لنفسي بانتقام تتحدث بهوله الدنيا بأكملها ! » وبعد أن نطق هذه الكلمات خاطب نبلاءه وفرسانه قائلا :

« الآن لم يبق لنا من شيء نعمله الا آن ننطلق بأسرع مايمكننا وننذيق هؤلاء الخونة عديمي الوفاء كأس الموت ، وان ارادتي أن نهاجمهم غدا صباحا ونبذل قصارانا في القضاء عليهم» .
وظلوا تلك الليلة كلها يعدون العدة للقتال، واستعد أكومات سلطان للمعركة أيضا وقد علم على جواسيسه بخطط أرغون، ونصح رجاله بأن يتحلوا بالبسالة والاقدام .

الفصل السابع والخمسون

المعركة بين ارغون واكومات ٠

وفي اليوم التالي ، دعا أرغون رجاله الى السلاح ونظمهم بمهارة نظام المعركة ، ثم خاطبهم بنصائح مشجعة ، تقدموا من بعدها نحو الأعداء ٠ وفعل أكومات الشيء نفسه ، والتقى الجمعان أثناء تقدمهما واشتبكا بغير مزيد من المفاوضات ٠ وبدأت المعركة بوابل من السهام كان من الكثافة بحيث بدا كأنما هو مطر هاطل من السماء ، وكنت ترى الراكبة في كل مكان وقد قذفوا عن صهوات جيادهم وتسمع صيحات وأنات من يرقدون على الأرض مثخنين بالجراح المصمية ٠ فيهولك ما تسمع ٠ حتى اذا استنفدوا ما في جعابهم من سهام ، استلوا سيوفهم وهراواتهم ، وحمي وطيس القتال نارا متأججة واشتدت الجلبة والصياح ، حتى لم تكن لتستطيع سماع رعد الاله ٠ واشتد الذبح وتعاظم بكل من الجانبين ، ولكن ظهر أخيرا ، وان أبدى أرغون نفسه من البسالة كل خارق وعجيب ، وضرب من نفسه مثلا لكل رجاله، أن كل جهد عبث ، لأن الحظ قلب له ظهر المجن ، واضطر رجاله الى الفرار من الميدان ، وفي أثرهم مباشرة أكومات ورجاله ،، فشتتوهم كل مشتت ٠ وأسر أرغون نفسه أثناء الفرار ، فتوقفت المطاردة على الفور ، وعاد الظافرون الى معسكرهم وخيامهم ، قد أسكرتهم نشوة الفرح بغير حدود ٠

وأمر آكومات بحبس ابن أخيه أرغون وتضييق الحراسة عليه ، ولما كان رجلا مولعا بملذاته فانه عاد الى بلاطه ليستمتع بصحبة الغواني الجميلات المقيمات هناك ، تاركا قيادة الجيش للملك أو رئيس كبير، مع أوامر مشددة بالاحتفاظ بأرغون فى حراسة محكمة ، وأن يتبعه به الى البلاط فى مسيرات قصيرة ، حتى يتعب رجاله ·

الفصل الثامن والخمسون

كيف أخلى سبيل أرغون •

والآن ، تصادف أن نبيلا تتريا متقدم السن جدا ، مست الشفقة قلبه على أرغون ، وقال في نفسه ان من بالغ الشر وعدم الولاء أن يحتفظ بمولاهم على هذا النحو أسيرا ، وانه سيبذل خير ما في وسعه ليطلق سراحه • فبدأ باقناع كثير غيره من الأمراء يتبنى هذه المشاعر نفسها ، وبلغ من ضخامة تأثيره الشخصى ، نتيجة لعلو سنه وسمو خلقه المعروف بحبه للعدالة والحكمة ، أن ضمهم جميعا بسهولة الى جانب مغامرته فوعدوه بأن يكونوا رهن اشارته • وكان اسم زعيم هذه المغامرة بغا ، وكان كبار شركائه في المغامرة هم الكيداى ، وتوجان وتيغانا وتانجا وتيار أولاتاى وساماغار • وذهب بغا مع هؤلاء الى الخيمة التى كان أرغون محبوسا فيها ، وأبلغه أنهم نادمون على الدور الذى قاموا به ضده ، وأنهم اصلاحا لخطئهم في حقه جاءوا لاطلاق سراحه واتخاذه مولى عليهم •

الفصل التاسع والخمسون

كيف استرد ارغون ولايته على عرشه .

وعندما سمع أرغون كلمات بغا ، تبادر الى ذهنه لأول هلة أنهم جاءوا للهزء منه ، وامتلأ قلبه غضبا وحزنا . خاطبهم قائلا : « أيها السادة العدول ! انكم تأثمون أعظم لاثم اذ تتخذون منى هدفا لسخريتكم ، وكان ينبغى أن تقتنعوا بالظلم الذى أنزلتموه بى فعلا بحبسكم مولاكم لشرعى . وأنتم تعلمون أنكم تسيئون التصرف ولذا فاننى أرجوكم أن تذهبوا لسبيلكم وألا تسخروا منى بعد هذا » . قال بغا : « مولاى العادل أرغون ! تأكد أننا لا نسخر منك على الاطلاق ، ولكن ما نقوله هو الصدق الصراح ، ونقسم بديننا على هذا » . وعندئذ أقسم البارونات جميعا اليمين بأنهم سيتخذونه مولى لهم . وأقسم أرغون من جانبه أنه لن يؤاخذهم عما مضى ، وأنه سيضعهم فى موضع الاعزاز الذى كانوا فيه عند أبيه أباقا . وما أن تم تبادل هذه الايمان ، حتى أخرجوا أرغون من سجنه وتقبلوه سيدا ومليكا عليهم . وعندئذ أمرهم أرغون أن يطلقوا سهامهم على الخيمة التى كان فيها الملك الذى بيده الامرة على الجيش ، ففعلوا ذلك وبذا لقى الملك مصرعه . وكان اسم هذا الملك سلطان ، وكان أعظم سيد بعد آكومات . وهكذا استرد أرغون ولايته على العرش .

الفصـــل الســــتون

كيف امر أرغـون باعدام عمــه أكومات ٠

وعندما وجد أرغون أنه متأكد من ولايتــه لعرشــه ، أصدر أوامره الى الجيش بالشروع فى الزحف الى القصر ، وحدث ذات يوم أن آكومات كان فى بلاطه بقصره الرئيسى يقيم حفلا عظيما ، اذ جاءه رسول وقال : « مولاى ! أحمــل اليك أنباء ليست مما أشتهيه ، اذ أنها أنباء سوء ٠ فاعلم أن النبلاء خلصوا أرغون من الأسر ورفعوه الى منزلة السيادة ، وقتلوا سلطان صديقك العزيز ، وأؤكد لك انهم يسرعون الخطى الى هنا لأسرك وقتلك ، فتدبر على الفور خير ما يمكن عمله » ٠

وعندما سمع آكومات هذا القول ، أخذته فى البــداية الدهشة والخــوف ، حتى لم يعــرف ما يصنع أو ما يقول ، ولكنه أخيرا ، شأن الرجل الشــجاع الأريب ، أمر الرســول ألا يبلغ أحدا بالنبأ ، وأمر معاجــلا أشــد رجاله ثقة بحمل أسلحتهم وامتطاء خيولهم ، دون أن يخبر أحــدا بوجهتـــه ، ومضى في طريقه الى سلطان بابل ، معتقدا أن حياته ستكون عنده بمأمن ٠ وعند نهاية مسـيرة ستة أيام بلغ ممرا ، لم يكن من الممــكن تجنبه ، وعــرف حارس الممر أنه أكومات وأدرك أنه يطلب النجاة فرارا ٠ وعزم ذلك الرجل على أسره ، وهو أمر كان فى امكانه فعله بسهولة ، لقلة من حــوله من حاشية ٠ فلما تم اعتقال آكومات على هذا النحو ، توسـل

ضارعا ، وعرض عليه أموالا طائلة حتى يسمح باطلاق سراحه ، ولكن حارس الممر ، وكان مشايعا متحمسا لأرغون، اجابه بأن كنوز العالم قاطبة لن تمنعه من أداء واجبه نحو مولاه الشرعى • وبناء على هذا وضع أكومات فى حراسة قوية ، ومضى به نحو القصر ، فبلغه بعد استيلاء أرغون عليه بثلاثة أيام وقد أكمده الى أقصى حد فرار أكومات • ومن ثم فعندما سلم اليه أكومات أسيرا ، ناله أعظم ما يمكن تصوره من سرور ، أصدر ارادته بحشد الجيش على الفور دون مشاورة أى انسان ، ثم أمر أحد رجاله بقتل عمه ، والقاء جثته بمكان سحيق بحيث لا يراه أحد بعد ذلك أبدا ، وهو أمر تم تنفيذه على الفور • وهكذا انتهى الأمر الذى جرى بين أرغون وعمه أكومات •

وفاة ارغون ٠

بعد أن أتم أرغون هذا كله ، واستولى على القصر الرئيسي والسيادة ، جاء جميع النبلاء الذين كانوا يدينون بالخضوع لأبيه ، لتقديم فروض ولائهم له باعتباره مولاهم وطاعتهم له على هذا الاعتبار في كل شيء ٠ وبعد هذا أرسل آرغون ابنه قازان ، ومعه ثلاثون ألف راكب كاملة الى « الشجرة الجافة » Arbor Secco الموجودة بذلك القطر ، بقصد حماية أرضه وقومه ٠ وهكذا استرد أرغون ولايته في عام ١٢٨٦ لتجسد يسوع المسيح ، بعد أن احتفظ أكومات بصولجان الملك سنتين ٠ وحكم أرغون البلاد ست سنوات ، مات في نهايتها مسموما ، على ما شاع بين الناس ٠

الفصل الثاني والستون

كيف وضـــع قياكاتــو يده على الصولجان بعد وفاة ارغون .

عندما مات ارغون ، استولى على صـــولجان الملك عمـــه دعو قياكاتو ، ومما سهل له ذلك اكثر وجود قاسان بمنطقة الشجرة الجافة » السحيقة البعد . وغضب قاســـان اشـــد غضب عندما سمع بوفاة أبيه واغتصاب قياكاتو للملك ، يد انه لم يكن يستطيع مغادرة موقعه فى تلك اللحظة لخشيته عداءه . على أنه هدد مع ذلك بأنه لابد منتهز فرصة ينزل فيها انتقامه بنفس الصورة المتميزة التى انتقم بها أبوه من اكومات . وقبض قياكاتو على أعنـــة الســـيادة ، وقدم الكل اليه الطاعة عدا من كانوا حول قاسان ، واتخذ من زوجـــة أرغون ابن أخيه زوجا له وأكثر من الاخلاد الى الاســـتمتاع بالنساء ، لشدة ولعـــه بالملذات ، واحتفظ قياكاتـــو بالملك سنتين حتى أزيح عنه فى نهايتها بالسم .

الفصـل الثالث والسـتون

كيف استولى بايدو على الملك بعد وفاة قياكاتو ٠

عندما مات قياكاتو استولى على الصولجان بايدو وكان عما له ، كما كان مسيحيا ، فأذعن الجميع بالطاعة له عـدا قاسان ومن معه من الجند ٠ وحدث هذا فى عام ١٢٩٤ ٠ وعندما علم قاسان بما حدث ، ازدادت ثورته احتداما عـلى بايدو أكثر منها على قياكاتو ، واذ هدد بأن ينزل به انتقاما يتحدث به الناس جميعا ، صمم على ألا يؤخر الأمر بعد هـذا لحظة واحدة ، وأن يزحف عليـه فورا ٠ وطبقا لهـذا زود جيشه بما يلزمه من ميرة وبدأ زحفه ٠ وعندما أيقن بايدو أن قاسان قادم اليه ، جمع عددا ضخما من الرجال ، وتقدم بهم الى الأمام مسيرة عشرة أيام كاملة ، ثم عسكر وانتظـر منه أن يبدأ بالقتال ٠ وظهر قاسان فى الميـدان فى اليـوم الثانى ، وبدأت على الفور معركة ضارية ، انتهت بهزيمـة بايدو هزيمة ماحقة حيث لقى مصرعه أثناء القتال ٠ وعندئذ قبض قاسان على زمام الملك ، وبدأ حكمه فى عام ١٢٩٤ من التجسد ٠ وهكذا انتقلت مملكة التتار الشرقيين من أباقا الى قاسان الذى يحكم البلاد الآن ٠

الفصل الرابع والستون (١)

عن أمراء تتار الغرب •

كان أول سادة التتار فى الغرب هو ساين ، وكان ملكا عظيما وقويا • فغزا الروسيا وكومانيا وآلانيا ولاك ومنجيار (المجر) وترك ، وجوكيا وجزاريا • وكل هذه الولايات فتحها الملك ساين • وقبل هذا الفتح كانوا جميعا كومانيين ، ولكن لم تجمعهم حكومة واحدة تحت ظلها ، ونظرا لانعدام الاتحاد فيما بينهم فقدوا أراضيهم ، وتشتتوا بمختلف أرجاء العالم ، وكل من بقي هناك تحول الى حالة العبودية للملك ساين وبعد الملك ساين حكم الملك باتو ، وبعده الملك برقا ثم تلاه الملك منجلتيمور ، ثم الملك توتا مونجور وأخيرا توكتاى الذى يحكم الآن • والآن وقد أعطيناك قائمة بأسماء ملوك تتار الغرب ، فاننا سنحدثك عن معركة كبرى دارت رحاها بين آلاءو (هولاكو) ، سيد الشرق ، وبرقا (بركة) سيد الغرب ، فضلا عن سبب المعركة ونتيجتها •

الفصل الخامس والستون

**عن الحرب بين آلاءو وبـــرقا
(أو بركة) والمعركة التي خاضاها .**

في عام ١٩٦١ ، نشب خلاف شديد بين الملك آلاءو ، سيد تتار الشرق ، والملك بركة سيد تتار الغرب ، بسبب ولاية تتاخم حدود ممتلكاتهما كليهما ، ادعى كل منهما ملكيتها ، ونأت بهما الكبرياء عن النزول عنها كل للآخر . فتبادلا التحديات ، وأعلن كل منهما أنه سيخرج للاستيلاء عليها ، وسيرى من يجرؤ على اعتراض سبيله . وعندما بلغت الأمور هذا الحد ، دعا كل أتباعه للالتفاف حول رايته ، وبذل كل منهما قصاراه الى حد أنه في مدى ستة أشهر كان كل منهما حشد ثلاثمائة ألف فارس ، وتزودا أجود تزود بجميع ما يتصل بالحرب من عتاد حسبما تقتضيه عاداتهم . وعندئذ بدأ آلاءو سيد الشرق زحفه بكل جنده فساروا عدة أيام دون أن يلاقوا أية مغامرة تستحق الذكر . وأخيرا وصلوا الى سهل فسيح الأرجاء ، يقع بين «البوابات الحديدية» وبين بحر سراين ، فعسكروا على خير نظام ، وأقيمت جواسق وخيام فاخرة كثيرة . وهناك قال آلاءو انه سينتظر حتى يرى ما سيفعله بركة ، وذلك لأن هذه البقعة كانت على حدود الاقليمين .

الفصل السادس والستون

كيف تقدم بركة وجحفله لملاقاة آلاءو ٠

ولما ان أعد الملك بركة كل عدته وعرف أن آلاءوا بدأ زحفه ، خرج هو أيضا في طريقه اليه ، وبلغ في الوقت المناسب نفس السهل ، الذى كان أعداؤه ينتظرونه فيه ، وعسكر على حوالى عشرة أميال منه ٠ وكان معسكر بركة مزدانا بزخارف نفيسة كمعسكر آلاءو سواء بسواء ولكن عدد جيشه كان أكبر ، لأنه بلغ ثلاثمائة وخمسين ألف راكب — واستراح الجمعان يومين ، جمع فيهما بركة جحفله في صعيد واحد وخاطبه على النحو التالى : « أيها السادة المدول! تعلمون علم اليقين أننى منذ وليت أمر البلاد أحببتكم كاخوة وأبناء ، كما أن كثيرين منكم خاضوا معي معارك كبيرة ، كما أنكم ساعدتمونى في فتح شطر كبير مما في حوزتنا من الأراضى ، وتعلمون أنى أشرككم في كل ما أملك ، وينبغى عليكم — لقاء ذلك — أن تبذلوا كل نفيس لمساندة شرفي ، وهو الشيء الذى فعلتموه حتى الآن ٠ وتعلمون كم آلاءو رجل قوى وعظيم ، وكيف انه في خلافه هذا معى في جانب الباطل وكيف أننا نحن في جانب الحق ، وينبغى لكل منكم أن يوقن بأننا سنهزمه في المعركة ، سيما وأن عددنا يفوق عدته ، فاننا نعلم يقينا أن ليس لديه سوى ثلاثمائة ألف خيال ، بينما لدينا ثلاثمائة وخمسون ألفا ، وكلهم مقاتل من خيرة الرجال كجنده أو أفضل ٠ من أجل هذه الأسباب جميعا ينبغى لكم أن تروا بوضوح أننا سنفوز في يومنا

هذا ، ولكن لمـا كنـا ما زحفنا مثل هـذه المسـافة البعيـدة الا لنخوض معركتنا ، فان ارادتي أن نشرع فى القتال بعد ثلاثة أيام ، ثم نتقدم بحصافة بالغة وبنظام حسن كامل ، حتى نضمن النجح ، وانى لأرجوكم جميعا أن تظهروا فى هـذه المناسبة بمظهر الشجاعة ، حتى يتحدث العـالم طرا بأعمالكم • ولا أزيد بعد هـذا عن أنى أتوقع من كل منـكم أن يكون على أحسن استعداد لليوم الموعود » •

الفصل السابع والستون

خطاب آلاءو الى رجاله ·

عندما علم آلاءو بالتأكيد أن بركة قادم بهذا الجيش اللجب ، جمع هو أيضا رؤساء رجاله وخاطبهم على الوجه التالى : « أيها الاخوة والأبناء والأصدقاء العدول ! ·· تعلمون أني اعتززت بكم طوال حياتي وساعدتكم ، كما أنكم ساعدتموني حتى الساعة فى الغلبة والفتح فى كثير من المعارك ، كما أنكم حتى لم تكونوا حاضرين آية معركة الا فزنا فيها بالنصر ، ومن أجل ذلك السبب جئنا هنا لقتال ذلك الرجل العظيم بركة وانى لعلى علم تام بأن لديه من الرجال أكثر منا ، ولكنهم لا يضارعونكم مقدرة فى القتال ، ولاشك عندى أننا سنوردهم جميعا موارد الفرار والهزيمة · ونعلم من جاسوسنا أنهم سيخوضون معنا المعركة بعد ثلاثة أيام ، وهو أمر ملأني سرورا ، فأرجوكم أن تكونوا على استعداد تام في ذلك اليوم ، وأن تسلكوا المسلك الذى تعودتموه · على أن هناك شيئا واحدا فقط أريد أن أركزه فى أذهانكم ، هو أنه خير لنا الموت فى الميدان ذيادا عن شرفنا ، من أن نلاقى الهزيمة ، فليقاتل كل منكم حتى يسلم شرفنا من كل أذى ، وحتى يتجرع أعداؤنا مرارة الهزيمة والذبح » ·

وهكذا شجع كل من الملكين رجاله ، وانتظرا حتى آن يوم الموقعة ، واستعد كل منهما لها على أحسن وجه أمكنه ·

الفصل الثامن والستون

عن المعـركة الكبرى بين آلاءو
وبركة ·

عندما جاء اليوم الموعود للواقعة ، استيقظ الاءو مبكرا في الصباح ، ودعا برجاله لتقلد السلاح ، ونظم صفوف جنده بأقصى درجة من المهارة · فقسمه الى ثلاثين كردوسا Squadrons . يتألف كل كردوس منها من عشرة آلاف فارس، ووضع على رأس كل واحد منها قائدا متمكنا وصاحب امرة كفئا ، فلما أن تم تنظيم هذا على الوجه المناسب ، أمر جنده بالتقدم ففعلوا زاحفين بخطى بطيئة ، حتى بلغوا منتصف المسافة بين المعسكرين ، فتوقفوا وانتظروا قدوم العدو · فأما في الجانب الآخر فان الملك بركة حشد جنده مستنفرا ونظمهم في خمسة وثلاثين كردوسا ، بالطريقة عينها بالضبط التي استخدمها آلاءو ، كما أمر جنده أيضا بالتقدم ففعلوا ذلك حتى أصبحوا على نصف ميل من عدوهم · وهناك توقفوا برهة وجيزة ، ثم تحركوا الى قدام ثانية حتى أصبحوا على مسافة تقارب رميتي قوس قذوف معقوف Arbalest أحدهما من الآخر · وكان السهل منبسطا مواتيا مدهش الاتساع والرحابة كما ينبغي أن يكون الحال ، عندما يوضع ترتيب مثل هذا العدد الضخم من الرجال في جمعين متعاديين، تحت أقوى مقاتلي العالم شكيمة وأشدهم بأسا ، كما أنهما فوق هذا قريبان أدنيان، لأنهما كليهما من العترة الامبراطورية لجنجيزخان · وبعد أن تراءى العسكران هنيهة وجها لوجه ، ضربت النقاريات أخيرا ، فأطلق كل من الجيشين على صاحبه

وابلا منهمرا من السـهام ، غطى وجه السـماء فما تكاد تبصرها الا كدا وعم الذبح والتقتيل من الرجال والخيل • حتى اذا استنفدت كل سهامهم ، اشـتبكوا بعضهم مع بعض بالسيوف والقضبان (الدبابيس) وعندئذ بلغت المعـركة من الشراسة أن عجيجها أصبح أقوى من زئير رعد السـماء وغطيت الأرض بالجثث والأشلاء وتضرجت بالدماء • وأبدى الملكان كلاهما من الشـجاعة كل مدهش معجب ، ولم يقصر رجالهما دون التأسي بهما • واستمرت المعركة على هذا النحو حتى الغسق ، حين أخذ بركة ينهار ثم فر من الميدان ، ولاحقه رجال آلاءو ببالغ العنف وهم يصرعون ويقتلون بغير رحمة • وبعد مواصلتهم التعقب مسافة قصيرة استدعاهم آلاءو اليه ، فعادوا الى خيامهم ووضعوا أسلحتهم جانبا وضمدوا جراحهم ، واشتد بهم الاعياء من القتال ، حتى التمسوا الراحة بسرور • وفي الصباح التالى أمر آلاءو بدفن أجساد الموتى ، الأعداء منهم والأصدقاء ، وكانت الخسارة فادحة في الجانبين ، بحيث تتعذر على كل وصف • وبعد الفراغ من ذلك عاد آلاءو الى بلاده بكل من بقي من رجاله حيا بعد هذه المعركة •

الفصل التاسع والستون

كيف أصبح توتامنكو سيدا لتتار الغـــرب ·

ينبغي لك أن تعلم أنه كان في الغرب ملك للتتار يسمى منكو تيمور (منجو) وأن الملك انحدر منه الى تولوبغا وكان حدثا في فروسيتد (١) · وأقدم رجل قوى الشكيمة جدا ، اسمه توتا منكو على قتل تولوبغا ، بمسـاعدة ملك آخـر من ملوك التتار يسمى نوجاى · وهكذا حصل توتامنكو عـلى الملك بمساعدة نوجاى ، ثم ما لبث أن مات بعد حكم قصير ، واختير توكتاى ملكا وهو رجل بالغ الكفـاية والحصـافة · وفي الحين نفسه شب ولدا تولوبغا وأصبحا آنئذ قادرين على حمل السلاح ، كما أنهما اتصـفا بالحكمة وحسن التدبير · وجمع الأخوان سرية كبيرة جدا ، وذهبا الى بلاط توكتاى ، وقدما نفسيهما ببالغ الأدب والخضوع راكعين على ركبتيهما حتى رحب بهما توكتاى وأمرهما بالوقوف · وعندئذ قال أكبرهما للملك : « مولاى العادل توكتاى ! سأخبرك على خير وجه أستطيعه لماذا حضرنا هنا الى البلاط · تعلم أننـا ولدا تولوبغا(٢) ، الذى قتله توتامنكو ونوجاى · وليس لدى شيء أقوله عن توتامنكو، لأنه ميت، ولكننا نطالب بالقصاص في حق نوجاى على مصرع والدنا ، ونلتمس منك كملك قويم عادل أن تحقق لنا ذلك · فذاك هو هدفنا من زيارة بلاطك»·

الفصـــل الســـبعون

كيف ارسل توكتاى يطلب نوجاى للمثول فى قصره ·

وعندما سمع توكتاى كلام الفتى ، علم أنه صادق فيما قال فأجابه بقوله : « أيها الصديق الكريم ، سأخضع راضيا لطلبك تطبيق العدالة على نوجاى ، ومن أجل هـذا الغرض سنستدعيه الى القصر ، ونفعل كل ما تقتضيه العدالة » ·

ثم بعث توكتاى برسولين الى نوجاى ، وأمره بالحضور الى البلاط ليرد على ولدى تولوبغا في شأن مقتل والدهما ، ولكن نوجاى ضحك ساخرا من الرسالة وأبلغ الرسولين أنه لن يذهب ·

وعندما سمع توكتاى رسالة نوجاى ، أستشاط غضبا ، وقال على مسمع من كل من كانوا حوله : « بمعونة الله ، اما أن يأتى نوجاى أمامى لاحقـاق حق ولدى تولوبغـا ، والا فسأذهب اليه بكل رجالى وأقضى عليه » ·

وعندئذ أرسل رسولين آخرين ، انطلقـا بالخيـل بكل سرعة الى قصر نوجاى ، وعند وصولهما قدما نفسيهما اليه ، وسلما عليه بكل أدب ، ورحب بهما نوجاى · وعندئذ قال أحد الرسولين :

« أيها السيد الكريم ! يبلغك توكتاى أنك اذا لم تحضر الى قصره لتحق ولدى تولوبغـا بالعـدل ، فانه سـيأتيك

مهاجما بجحفله كله وينزل بك كل ما يستطيع من الاذى ، بكل من ممتلكاتك وشخصك ، فاختر ما يحلو لك ، وأعطه جوابك على لساننا » •

فعندما سمع نوجاى رسالة توكتاى ، ثارت نائرته ، وأجاب الرسول بالتالى : « أيها السيد الرسول ! ، الآن عد الى مولاك ، وأخبره عن لساني ، أني قليل المبالاة بعداوته ، وأخبره فوق هذا أنه ان هاجمني ، فانني سأنتظره عند مدخل بلادى • وذلك لأنني سألتقي به فى منتصف الطريق • فهذه هى الرسالة التى ستحملها الى مولاك » •

وعاد الرسول مسرعا ، وعندما تلقي توكتاى هذه الاجابة ، أرسل رسله على الفور الى جميع الأرجاء التى كانت تحت حكمه ودعا قومه للاستعداد للذهاب معه على الملك نوجاى ، ولم يلبث حتى جمع جيشا عظيما •

وعندما علم نوجاى علما أكيدا أن توكتاى يجهز عليه ذلك الجحفل الكثير ، قام هو أيضا باعداد عدة عظيمة ، ولكنها لم تبلغ ضخامة عدة توكتاى ، وذلك لأنه ، وان كان ملكا عظيما وقويا ، الا أنه لم يكن فى العظمة والقوة كفؤا للآخر •

كيف زحف توكتاى على نوجاى ٠

وعندما تجهز جيش توكتاى للحملة بدأ زحفه على رأس مئتى ألف خيال ، ووصل فى الوقت المناسب الى سهل نرغى المترامى الجميل ، حيث عسكر فى انتظار خصمه ٠ وكان معه ولدا تولوبغا ، اللذان جاءا بصحبة سرية كبيرة من الفرسان لينتقما لمصرع والدهما ٠

وكان نوجاى أيضا يتقدم فى طريقه ومعه مئة وخمسون ألف راكب ، وكلهم فتيان شجعان وجند أفضل كثيرا من جند توكتاى ٠ فبلغ السهل الذى عسكر فيه توكتاى بعده بيومين ، وضرب معسكره على مسافة عشرة أميال منه ٠

وعندئذ جمع الملك توكتاى رؤساء جنده وقال لهم : « أيها السادة ! ٠٠ جئنا هنا لقتال الملك نوجاى ورجاله ، ولدينا أقوى ما يبرر هذا من سبب ، وذلك لأنكم تعلمون أن كل هذا الحقد والضغينة نشأ عن رفض نوجاى احقاق حق ولدى تولوبغا ، ولما كانت قضيتنا عادلة ، فان لدينا كل سبب للأمل فى احراز النصر ٠ فاملأوا اذن قلوبكم بأطيب الرجاء ، ومهما يكن الأمر ، فاننى لأعلم أنكم جميعا رجال صناديد وأنكم ستبذلون أقصى الجهد للقضاء على أعدائكم » ٠

وخاطب نوجاى أيضا رجاله بالأسلوب التالى : « أيها الاخوة والأصدقاء الأكرمون ، تعلمون أننا كسبنا كثيرا من

المعارك الضخمة والضارية ، وأننا تغلبنا على رجال خير من هؤلاء • ولذا فانشرحوا وقروا عينا ! فالحق فى جانبنا ، وذلك أنكم تعلمون جيدا أن توكتاى لم يكن رئيسا لى حتى يدعونى لحضرته لاحقاق حق الآخرين بالقسطاس • وكل ما سأفعله ، أنى سأحثكم على سلوك نفس المسلك فى هــــذه الواقعة ، حتى تتحدث بنا الركبان بكل مكان ، وحتى يلقى ورثتنا وأنفسنا مزيدا من الاحترام من أجله » •

وفى اليوم التالى استعد الجميع لخوض المعركة • ونظم توكتاى جيشه فى عشرين كردوسا ، لكل منها زعيمه وقائده المحنك ، وشكل جيش نوجاى فى خمسة عشر كردوسا •

وبعد معركة طويلة مستيئسة ، أبرز فيها الملكان وكذا ابنا تولوبغا أنفسهم ببســـالة المستهين بالمـوت ، هزم جيش توكتاى هزيمة تامة ، وتعقبه رجال نوجاى خارج الميـــدان معملين فيهم الذبح الشديد ، وهم جند أكفأ كثيرا فى القتال من اعدائهم وان كانوا أقل منهم عددا • وقتل فى هذه المعركة ستون ألف جندى بالتمام، ولكن نجا الملك توكتاى وكذا ولدا تولوبغا •

تذييـــــل

١ ـ ملاحظة على الفصل ٥٤ من الكتاب الأول ، ص ١٤٠

هنا نجد أيضا تكرارا تفصيليا للقول بأن أنج خان ، لم يكن هو وحده يعتنق المسيحية ، بل وأيضا جميع أحفاده حتى أيام مؤلفنا ، ومع أنه شاع بين النـاس الشـك فى هــذه الحقيقة ، لم تستخدم آية حجج مستخلصـة من الشـــواهد التاريخية لتفنيدها • على أنها يؤيدها من ناحية أخرى شهادة كل من الرحالين كاربينى وروبروكين (مع بعض تنويعات فى الظروف) ، فضلا عن تصديقها بسند المؤرخ أبو الفرج، الذى لم يشك أحد فى أمانته وسداد رأيه كمؤرخ ، فى أية مسألة أخرى • فان أحدا من هـؤلاء لم يتحدث عن وجــود شخصية ببلاد التتار كشخصية بريسترجون على اعتبار أنه اكتشاف جديد يلحظ لأول مرة ، بل على أنه شىء معـروف معرفة سابقة ، وبخاصـــة لدى من اشتركوا فى الحـروب الصليبية •

وربما جاز التساؤل لماذا يبدى الناس مثل هــذا التردد الشديد فى تصديق ، أن العقيدة المسيحية انتشرت انتشارا واسعا ، فى هذا الوقت المبكر (على طقوس الكنيسة اليونانية)، بكل من بلاد التتار وتغلغلت حتى بلاد الصـين ، كأنما ذلك شىء غير محتمل • فبهذه الواقعة لا تقوم على شهادة الرهبان الكاثوليك وحدهم (وهم مع ذلك قوم كانوا أميــل الى الحط من قدر نجــاحات منافســيهم وأهميتهم السـياسية منهم الى المبالغة فيها) ، وانما تؤيد ذلك حوليات الكنيسة النسطورية •

ويلاحظ رئيس الدير رينودوه : « يوجد بين هذه الشعوب ، التي يجمعها الاسم العام وهو الترك والتتار ، عدد لا بأس بضخامته من المسيحيين ، ليس فقط عندما أسس جينجزخان امبراطوريته الضخمة ، بل قبل ذلك العهد بزمن طويل . وذلك لاننا نجد في تاريخ النساطرة ، أن تيموني جاثاليقهم ، الذى خلف حنا نيشع Hananjechiia ، الذى ورد ذكره في النقوش الصينية والسريانية والذى رسم حوالى عام ٧٨٨ للميلاد ، كتب الى سلطان (خاقان) التتار (أى امبراطورهم) والى بعض أمراء آخرين للتركستان بقصد حثهم على اعتناق العقيدة المسيحية ، وهو أمر نفذه مع مئتى الف من رعاياه .

ولا يستطيع المرء أن يشك في أن هذا الشعب لم يكونوا من التتار أو الترك الأقحاح ، لأن الجاثاليق نفسه كان يستشار بواسطة القسيس الذى أرسله الى البلاد ، حول الطريقة التي ينبغي أن يتبعوها في الصيام ، وكيفية أداء الصلوات : وذلك لأنه متعود على العيش على اللبن واللحم وليس لديه قمح ولا خمر .. ومنذ ذلك العهد ، يجد المرء بين الأخبار الكهنوتية للكنيسة النسطورية ، مطرانا للتركستان ، وآخر لتنجات وثالثا لكمباليك أو كمبالو ، وآخر لقشغر ونوياكات » . انظر : « Anciennes Relat. » ص ٣١٩ . انظر أيضا : Dissentatio de Syris Nest. تأليف ج . س . اسمانوس .

فلو سلمنا اذن أنه حدث في زمن مبكر أن اعتنق النصرانية بعض قبائل التتار ومعهم رؤساؤهم . (ولماذا يكون اعتناقهم ذلك الدين أمرا غير موثوق به بعكس اعتناق الأمم الأخرى بشمال وغرب أوربا ذلك ما لا ندريه)، لم يكن هناك سبب خاص في استثناء الأمير المدعو أنج خان ، الذى ربما جاز ملاحظة أن قبيلته التي اليها ينتمي ، كانت تحمل اسم كريت أو كيرائيت أو كرريت ، وهي طريقة مألوفة في الشرق لنطق كلمتي كرايست وكريستيان : أى المسيح

والمسيحي • وربما جاز الظن بأنه يوم تعميده تلقى ، من معلميه الروحيين ، اسما تعميديا سريانيا وليس هنـاك اسم أقرب الى الاحتمال من اسم يوحنا (أو جون) الانجيلي• واذا ظننا أكثر من هذا ، وهو ظـرف ليس اسـتثنائيا في تاريخ هؤلاء الناس ، أن رئيسهم كان في نفس الوقت « لاما » ، فانه ربما لم يرغب في تجريد نفسه من الطابع الكهنوتي ، كمـا ان المبشرين النسطوريين ، في تقاريرهم الى الجـاثاليق أو المطران المقيم ببغداد او انطاكية ، ربما ذكروه تبعا لذلك مسمى بلقب معادل للقب يوحانس برسبيتيروس Presbuteros بمعنى الأب أو القسيس •

ويستمد الاعتقاد بانتشار الانجيل في زمن مبكر بتلك المناطق قوة اضافية تدعمه ، من رأى أخذ به بعض من أوسع المبشرين علما بالأمور ، وهو أن ديانة اللاما ذاتها ليست الا نوعا محرفا من المسيحية ومع أن هذا ربما كان استنتاجا غلب عليه التعجل وصلوا اليه مما أتيحت لهم مشاهدته بتلك البلاد ، فانه لن يصبح بعد الفحص والامتحان بعيد الاحتمال بالدرجة الشديدة التي ربما بدا عليها ابتداء • وتمكننـا معرفتنا العصرية بمجموعة الأساطير (الميثولوجيا) الهندوكية ، وبخاصة بطقوس وشـعائر وتماثيـل بوذا ، الذى انتشرت طائفته المنشقة بالأقطار الواقعـة شـمال بلاد الهندسـتان والبنغـال وشرقيهما ، أن نقـول بملء الثقـة انه من حيث مبادؤها الجوهرية كانت ديانة البلاد التي تحمل أسم بوتان والتبت وتانجوت ، هي ديانة بوذيي الهند ، ولكن في الحين نفسه كانت المشابهة تستخدم أى حجج مستخلصة من الشواهد قوية بين كثير من مراسمها ومراسم الكنائس المسيحية ، على إختلاف أنواعها بين شرقية وغربية ، مما أوضحه وأشـار اليه كل رحالة زار بلاد التتار ، ابتداء من كاربيني وروبروكين اللذين لاحظاها لأول مرة ، الى أبناء وطننا (الانجليزى) ومعاصرينا : بوجل وترنر اللذين عاشا في بلاط أحد اللامات الكبار •

ونجد المشابهة نفسها معترفا بها حتى من رجال الارساليات التبشيرية اليسوعية ، الذين لا يمكن أن يظن فيهم أنهم تأثروا فى مشاهداتهم بأى هوى أو تحيز لا ضرورة له ، (وهى تهمة اتهموا بها في بعض الأحوال) ، وذلك لأنه لا غرورهم الشخصى كان يمكن اشباعه بذلك ، ولا مصالح عقيدتهم كان يمكن أن تتحقق باقامة هذه الموازنة المثيرة للاستياء .

فليس مدهشا أن بعض الناس ، وقد وقع تحت تأثيرات وانطباعات من هذا النوع من المشابهة ، يتبنى رأيا بأن الأمير الذى تسمى بين نصارى الشرق باسم البريسترجون ، لم يكن سوى اللاما الأعلى للتتار .

٢ ـ ملحوظة اضافية على ص ٢٣٢ هامشة ٢ :

٧٧٦ ـ يقول البروفسور مارتينى : «ان مدينة سى جان التى هى البلد الرئيسى ، لا تكاد ـ تبزها مدن أخرى ، اذا اعتبرنا موقعها وسط اقليم بالغ الجمال والترويح عن الأنفس ، وضخامتها ، وشدة قدمها ، وقوة متانة أسوارها ، وجمال منظرها وعظيم تجارتها .. ويمكنك أن تحكم على قدم عهدها فى التاريخ ، من أن الأسر الامبراطورية الثلاث ، تشيو وسن وهان ، كانت تتولى الحكم فيها » . انظر Thevenot تفنوه ج ٣ ص ٥٨ .

وكان أن اكتشف قرب هذه العاصمة نقش قديم على حجر ، سجل بحروف سريانية وصينية حالة المسيحية بتلك الولاية أو المملكة ، وأوضح الحماية والتسامحات التى كانت تنعم بها من أباطرة مختلفين ، وحوى قائمة بأساقفتها . يقول البروفسور مارتينى : « ان هذه الولاية ، مشهورة أيضا بحجر عريق القدم ، نقشت عليه شريعة الرب بحروف سريانية وصينية ، وقد نقلها الى الأحرف الصينية خلفاء الرسل :

وقد دونت عليه قائمة أسماء الأساقفة والقسوس في ذلك الزمان ، وأسماء الأباطرة الصينيين الذين أحسنوا معاملتهم ومنحوهم امتيازات : ويحوى الحجر أيضا شرحا موجزا للشريعة المسيحية ، ولكنه على ايجازه مثير للاعجاب حقا ، ومكتوب بلغة صينية شديدة البلاغة ٠٠ وقد عثر عليه في عام ١٦٢٥ بمدينة سان يوين ، أثناء حفر أساس احد الجدران : ولما ابلغ حاكم المدينة على الفور بهذا الاثر الذى تم العثور عليه ، تامل بتمعن ما فيه من نقوش ، ولما كان القوم من كبار هواة الآثار القديمة ، فانه أمر بطبعه ، ثم بعد ذلك أصدر مكتوبا يتغنى بالثناء على هذا الأثر ، ثم بعد ذلك حفروه على حجر آخر بنفس الحجم منشئين نسخة من الذى عثر عليه مع مراعاة نفس السمات والحروف مع كامل الدقة والأمانة اللازمة ٠ وقد حمل كبار الآباء في جمعيتنا منه الى روما نموذجا مطابقا للأصل ، مع الترجمة ، وهو محفوظ في الوقت الحاضر مع ترجمته بمكتبة دار رهبان يسوع الجزويت : وقد طبع في روما ١٦٤١ » ٠ انظر Thevenot ص ٥٧ ٠ ثارت بطبيعة الحال بعض الشبهات بالبلاد الأوروبية ، حول صحة أثر كهذا له مثل هذه الطبيعة العجيبة ، كما أنه دارت حوله مناقشات كثيرة ، ولكن من بلغت بهم الجرأة أن يعدوه وثيقة مزيفة ، يبدو أن دافعهم روح العداء لهيئة الجزويت ، التى أتيح لأعضائها وضع تلك الوثيقة أمام الأنظار ، لا مجرد الحب الصافي للصدق والحقيقة ولا لميل الى البحث غير المتحيز ، ونظرا لأن هذا الشعور العدائي هدأ كثيرا ، فانه يبدو أن صحته لم تعد موضوع منازعة من أولئك الذين تؤهلهم قدراتهم لاصدار حكم صحيح في الأمر ٠

يقول ده جنى الابن : « أفادت هيئة النساطرة ، عام ٦٣٥ بعد ميلاد يسوع المسيح أن شخصا معينا اسمه أولوبين جاء الى الصين في عهد الامبراطور تايسونج من أسرة تانج : وهذا تم اثباته في الأثر الذى استكشف في سينجان فو (١٦٢٥) ، في عهد هي تسونج من أسرة منج » ٠ (مج ٢

ص ٣٣٤) • وعن معلومات أدق حول هذا الأثر الشهير ، انظر الاعمال التالية : Athanasii Kircheri China illustrata (١٦٦٧) ، حيث يجد القارىء صورة طبق الأصل من النقوش ، مع ترجمة حرفية لكل الرموز الكتابية الصينية وانظر :

« Andrae Mulleri Opuscula ; De monumento sinico commentarius (1695) : Laurentii Moshemii, ad Historiam Ecclesiasticam Tartarorum Appendix, monumenta et epistolas exhibens (1741) ;

وكذا :

« Mémoires de l'Académie des Inscriptions,

الجزء الثلاثون ص ٨٠٢ » •

هوامش الجزء الثالث

● هوامش الفصل الأول

(١) لما كانت المنتجات النباتية ، وبخاصة الأخشاب ، بجنوب الهند أو الهند البحرية ، مختلفة عن الأنواع المعروفة بأوربا ، فان من الخطأ (ان كان مؤلفنا يتحدث عن السفن الهندية) أن يقال ان خشب السفن هو التنوب والسنوبر Abete and Zapino وذلك نظرا لأنه لا التنوب ولا السنوبر يوجد (بأى موقع يمكن الوصول اليه) بالمناطق الاستوائية • ولكن مهما يبد الأمر شاذا ، فان فى سياق الكتاب أسبابا تدعو الى استخلاص أنه انما يصف سفنا بنيت ببلاد الصين ، وان كان ذلك لأغراض التجارة الهندية •

(٢) تذكر طبعة بال اللاتينية أن عدد هذه المقاصير أربعون ، كما تقول انها فوق السطح العلوى لا تحته ، ومعلوماتنا عن السفن الهندية قبل الاختلاط بأوربا ضئيلة ، ولكن الكابينات فى الأزمنة الحديثة موضوعة عادة فوق الجزء الخلفى من سطح مؤخرة السفينة •

(٣) لم يشر أى وصف حديث لسفن الجنك Junk الصينية الى الدقل المتوسط (الجزء الثانى من الصارى) كما أنه غير واضح أنه هو المقصود ومن هنا فالتعبيرات يمكن بقول أصح أن يفهم منها الساريات التى يمكن رفعها أو خفضها ، على منوال الصوارى الموضوعة فى الصنادل عندنا وقد يكون معنى الفقرة هو : « ان لها أربعة صوار (عليها نفس العدد من القلوع) يمكن رفع اثنين منها أو خفضها ، حسبما تقتضى الحال » .

(٤) ان هذه طريقة صيانة قيعان السفن شائعة لدى الصينيين والهنود • يقول جروس : « يتفوق الأهالى فى سورات » فى صناعة بناء السفن • اذ تتكون قيعانها وجوانبها من فلنكات (ألواح غليظة) تعشق بعضها فى بعض ، بالطريقة التى تسمى بالتفريز – فى ما أفهم – بحيث لا يمكن النفاذ فيما بينها من الالتحام ، ولهم كذلك طريقة خاصة فى صيانة قيعان سفنهم بمواصلة دعكها بين حين وآخر بنوع من الزيت يسمونه زيت الخشب ، وهو زيت تتشربه الألواح (الفلنكات • انظر Voy. to the East Indies مج ١ ص ١٠٧)، وهذا ومزيج «الشونام» أعنى

الجير مع زيت راتنجى ، أو مع الدمر Dammar المذاب (وهو مادة شجرية صمغية) ، معروف فى مصانع السفن بالهند باسم جل جل Gulgul ويضيف جروس : « لن نبالغ ان نحن أكدنا انهم (الأهالى) يبنون بشكل لا يضارع افضل سفن فى العالم من حيث طول التحمل ، وذلك فى أى حجم كان ، ولو بلغ الف طن بل أكثر من ذلك .. وليس من النادر أن تعيش الواحدة من تلك السفن قرنا كاملا » ص ١٠٨ .

● هوامش الفصل الثانى

(١) من الواضح أن المقصود بهذا الاسم الذى ورد هنا وفى مخطوطتى المتحف البريطانى ومتحف برلين زيبانجو ، وفى طبعة بال زيبانجرى وفى اللاتينية الأبكر كيامابجو ، وفى طبعة بال زيبانجرى وفى اللاتينية الأبكر كيامباجو ، هى تلك الجزر التى نطلق عليها ، بمعنى جماعى ، اسم اليابان . ويسميها الصينيون جى بن Ge-pen أو (Sy-pen) ، حسب هجاء ده جنى . أو جيبه بون Jih-pun تبعا لهجاء موريسون ، ومن هذه تشتق جميع الأسماء الأخرى على درجات تتفاوت من الوضوح . ويظهر أن المقطع الختامى « جو Gu » هو كلمة « كويه Kue » الصينية ومعناها « مملكة » ، وهى كلمة تشيع اضافتها الى أسماء الأقطار الاجنبية .

(٢) ما كان بعد أقرب مكان فى الجزيرة الجنوبية عن ساحل الصين ، قرب ننج ، لا يزيد عن خمسمائة ميل ايطالى ، فربما أمكننا الظن بأن مؤلفنا حين ذكر أنه ١٥٠٠ ميل انما يتحدث بالأميال الصينية المسماة « لى Li » ، وهو نسبياً يقارب ثلث الميل الايطالى .

(٣) يعد الاستقلال السياسى الصفة المميزة للشعب اليابانى ، الذى لا يبدو أنه وضع على طول تاريخه المديد وضعا مستمرا تحت نير الأجنبى .

(٤) يقول كايميفر : « اللآلىء : ويسميها اليابانيون المعادن طرا فى ولايات عديدة بالامبراطورية اليابانية » . « ويدعى الامبراطور السيادة العليا على جميع مناجم الذهب ، كما يبسط ملكيته فعلا على جميع المناجم الأخرى بالامبراطورية .. وهو يدعى لنفسه الحق فى ثلثى ناتج جميع المناجم التى تشتغل » . (انظر : His . of Japan مج ١ ص ١٠٧) . ثم يردف ذلك بقوله : « ولكننى علمت أنه فى الآونة الأخيرة ، لم تعد عروق الذهب أندر فحسب ولكنها أيضا لا تغل نفس المقدار الذى كانت تغله فيما سلف » . (المرجع نفسه) .

(٥) يقول كايميفر متحدثا عن احد ملوك اليابان القدماء انه : « أمر ببناء قصر منيف فخم ، يسمى كوجاتو ، ليقيم فيه ، ووصف أرضياته بالذهب والفضة » (مج ١ ص ٨٢) ويوضح هذا البيان ، وان كان

خراقيا ، الفكرة التى شاعت بين الأهالى ، حول ما كان عليه ملوكهم الأوائل من فخامة ·

(٦) يقول كايميفر : « ان اللآلىء ، ويسميها اليابانيون كاينوتاما » ، وهو قول معناه « جواهر الأصداف » ، تكاد توجد بكل مكان تقريبا حول « صمايكوكف » ، داخل المحار وكثير غيره من الأصداف · ويباح لكل انسان صيدها » (مج ١ ص ١١٠) .

(٧) عقيدتان : الدين القديم ، أو دين السنتوس ، وهم الذين يعبدون الأرواح ، التى يسمونها « سن Sin » و « كامى «Kami» ، والدين الحديث (وقد ظهر بعد الحقبة المسيحية) ، أو دين البوذيين ، عباد بوذا الهندى ، الذى يعبدونه باسم « فوتوكيه » و « بودزد « Budsd » والأخيرون وحدهم – وهم الطبقة الغالبيـة الى أقصى حد – هم الذين يمارسون أحراق موتاهم · يقول كايميفر : « يبقى هنـاك شىء يستحق الملاحظة هو أن كثيرين ، وربما الأغلبية ، ممن ظلوا على الدوام فى حياتهم يعتنقون دين السنتوس بل حتى بعـض السيوتوسجـو Siutosjus أو الأخلاقيين يعهدون بأرواحهم وهم على فراش الموت ، لرعاية كهنة البوذية Bodsdoism مبدين رغبتهم فى أن تنشد لهم أناشيد الناماندا Namanda ، وأن تحـرق أجسامهم وتدفن على طريقـة أهل مـلة بوذا · ولا يؤمن أتبـاع ديانـة السـنتوس بالمـذهب الفيثـاغورى القـائل بتناسخ الأرواح ، وان اعتنقت الأمم الشرقية هذا المذهب بأبلغ شـكل شامل » · (إنظر Hist. of Japan مج ١ ص ٢١٣) ·

(٨) يبدو أن المقصود بهذين الاسمين هما أباقاخان ، وهو مغولى وفاتح سان تشن وهو صينى ، منذ كان كثير من أبناء الأمة الصينيـة يعملون فى خدمة قبلاى ، بكل من السلكين : المدنى والعسكرى ، وكانوا يحسنون عملهم والاخلاص فى خدمته . (والاسمان فى النسخة الباريسية اللاتينية هما أباتار وفونسانتشى) ·

(٩) لعل المقصود من قوله ميناء زاى تون هو آموى ، ومن كن ساى ميناء ننج بو أو تشوسان ، اللتان تقعان عند مدخل النهر الذى يفيض ماؤه بجوار هانج تشيوفو ، وهى كن ساى عند مؤلفنا ·

(١٠) تشيع بين أهالى الجزر الشرقية ، فكرة أن من يستخدم التعاويذ يكتسب حصانة من الجروح .

(١١) اذا كانت العمليات الأصلية وجهت كما قد يظن على العاصمة القديمة ، وجب علينا أن نستنتج أن المدينة المتحدث عنها كانت أوزاكا ،

الواقعة عند مصب النهر الذى تقوم بجواره على مسافة غير بعيدة من شاطىء مدينة مياكو Mia-Ku وهى المدينة التى من المعروف قديما أن السفن الصينية تكثر من ارتيادها . ولكن يرى الأستاذ جوبل أن الجزيرة هى جزيرة بنج هو أو فيراندو ، قرب مدينة ناتجازاكى ، التى لم تكن آنذاك مكانا على مثل هذه الدرجة من الأهمية التى بلغتها منذئذ .

(١٢) لا شك أنه هنا غلطة ظاهرة فى التاريخ ، الذى كان يجب أن يكون ١٢٨٤ ، بدلاً من ١٢٦٤ . على انه ورد فى خلاصة البندقية المبكرة أنه ١٢٦٩ (وكذا فى النسخ المبكرة التى طبعتها الجمعية الجغرافية الباريسية) ، وفى طبعة بال ١٢٨٩ . ولا يمكن أن يعد مؤلفنا مسئولا عن هذه التناقضات التى حدثت بين ناسخية .

(١٣) ليس هناك من أثر أو مفتاح يمكن به اكتشاف جزيرة اسمها زورزا أو جورجا (ان صح التسامح ازاء نطق البنادقة) . وربما جاز أن نجنح الى البحث عنها فى احدى بحيرات بلاد التتــان .

(١٤) لابد أن طريقة العقاب هذه كانت طريقة تترية لا صينيــة . ويخبرنا كتاب : « تاريخ السند » ، ان عبد الملك خليفة بغــداد (ولعله خليفة دمشق الأموى ــ المترجم) أنزل هذه العقوبة بأحسن قواده ، وقد اتهمته بعض الأميرات ــ وهن من الأسرى ــ بارتكاب اثم فاحش . يقول بوتنجر : « ان ذلك الجاهل احنقته هذه الاهانة المزعومة ايما حنق ، وأرسل أمراً الى القائد الذى يليه فى الرتبة بأن يحيط حول محمد بن القاسم جلدا طريا ، ويقدمه على تلك الحال ليمثل فى حضرته .. ومع أن ابن القاسم كان متأكدا من براءته ، فانه سمح بأن تنفذ فيــه عقوبة مولاه الجائرة . ولم يلبث أن مــات فى اليــوم الثالث » . (انظــر : Travels in Beloochistan and Sinde) ، ص ٣٨٩ .

● هوامش الفصل الثالث

(١) الأصنام الموصوفة هنا تابعة للبوذية Budsdo أو ما يسميه كايميفر : العبادة الوثنية الأجنبية ، وليست تابعة لعقيدة السنتو ، التي تبدو أن مناطى عبادتها وتمجيدها وهما السن وكامى ، يعدان التجسيد للأبطال الموتى ٠ أجل أن بوذا ، الذى كان اليابانيون يسمونه بودس بودز وسياكا ، يمثل عادة بالشكل الطبيعى وان جعل له فى كثير من الأحيان حجم هائل ، ولكن سواء أتم الأمر فى صحبة ديانته التى قيل انها أدخلت الى اليابان حوالى القرن الأول من الحقبة المسيحية) أو فيما يرجح أثناء فترة أسبق ، فان هؤلاء اليابانيين ، وكذا الصينيين ، يبدو أنهم تبنوا عبادة الآلهة الجمة الأشكال للأساطير الهندوكية ٠ ومن المعلوم أن كثيرا من هذه الأصنام له رؤوس حيوانات متنوعة ، كرأس الخنزير ، فى التجسيد الثالث للاله فشنو Vishun ، ورأس الفيل فى أشكال جانيزا Ganesa ، اللذين يمكن اضافة عجل سيفا Siva اليهما ، وهانومان أمين القردة ، والأمثلة على الأرباب ذات الرءوس العديدة فى ذلك النظام الدينى ، كثيرة ، كرءوس براهما الأربعة ، والرءوس الخمسة « لما هاديفا بانشاموخى » و « التريمورتى » أى الثالوث الهندوكى ٠ فأما التى تبدو فيها أذرع عديدة ، فهى تضارعها فى شيوعها ، على أقل تقدير ، فتلك فيما يبدو هى أصنام اليابانيين فى هذا الزمان : وان ألمت بها بعض تعديلات خاصة بهم ٠

● هوامش الفصـــل الرابع

(١) مهما يظهر من عدم تحقق حول الاسم الذى يطلقه الصينيون أنفسهم عن وطنهم ، فان من المعروف أن جميع شعوب الشرق الأخرى يسمونها تشين وتشينا (أى الصين) ، والأولى هى الطريقة التى ينطقها بها الفرس وسـكان هندوستان والأخرى هى طريقـة نطق أهل الملايو وغيرهم من سكان الجزر • وما يسميه ملاحونا باسم بحر الصين ، تسميه لغة أهل الملايو بصورة ثابتة « لاوت تشينا Laut China » •

(٢) نظرا لأن حدود بحر الصين ، لم تحدد بدقة ، صار من المستحيل تحقيق هذا التعداد المدعى لجزره ، وواضح أن المقصود به أن يشمل جزر مولوقا Moluccas أى تلك التى يحصل منها على التوابل بصفة رئيسية •

(٣) يقول المسيو بوافر : « ان المزارع مغطاة بغابات عاطرة .. فالمرء فيها يتنفس هواء معطرا بشذى مجموعة ضخمة من الزهور المتعة ، التى يعقب بعضها بعضا على مدار السنة ، والتى يتغلغل رياها العـذب حتى يبلغ الروح ويثير شهوة مغرية أبلغ الاغراء (انظر Voy. d'un Philosophe ص ٥٦) • ان هذه الصورة لأقطار الملايو ، وان كانت محملة فوق طاقتها ، انما تعد تبريراً تاماً لتقرير مؤلفنا عن منتجات تلك البـــــلاد .

(٤) من العجيب أن هذا التمييز بين الفلفل الأبيض والفلفل الأسود ، الذى يتم بعملية تبييض الحبوب وهى فى أتم نضجها ، كان ملحوظا فى مثل هذه الفترة الباكرة • فحتى قريب من نصف القرن الأخير كان المظنون بصفة عامة فى أوربا أنها ثمرتا نباتين مختلفين •

(٥) وتلك هى أيضا حال الملاحة فى الوقت الحاضر عند الصينيين ، الذين تستخدم سفنهم (جنكاتهم) فى التجارة الى جاوه وغيرها من جزر الأرخبيل ، ولكن نظرا لأنها غير مهياة ، لا من حيث التركيب ولا تجهيزات الأشرعة ، والصوارى للعمل ضد ريح مضادة فانها تحتاج الى ريحين موسميتين للقيام برحلتى الخروج والعودة • والبيـان الوارد هنا عن هذه الرياح الدورية أو الموسمية صحيح جوهراً . ففى بحار الصين يبدأ هبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية أى الشتوية ، وهى التى توائم الابحار من موانى الصين الجنوبية الى مضيق ملقا أو جاوة ، تبدأ حوالى

شهر أكتوبر أو نوفمبر ، وتدوم حتى قرابة فبراير أو مارس : فأما الرياح الموسمية الجنوبية الغربية فتبدأ حوالى أبريل أو مايــو ، وتهب حتى أغسطس وسبتمبر ، وفى أثناء ذلك الموسم الأخير تعود السفن الى وطنها ٠

(٦) هنــاك أسباب كثيرة تحمل على الاعتقاد بأن ماركو بولو ، وهو يعمل في خدمة الامبراطور ، زار بعض الجزر الشرقية ، الشديدة القرب من سواحل الصين ، مثل جزر الفلبين فيما يحتمل ٠ اذ الواقع أن رحــلة من هذا القبيل مذكورة ذكرا مباشرا ، بالقسم الخامس من الفصل الأول من الكتاب الأول ٠ يمكن أن يفهم أن الجزر التى لم يزرها « بسبب شدة بعدها عن مجالنا » هى جزر مولوقا ، التى لابد أن منتجاتها الثمينة جعلت اسمها مشهورا ووجودها معروفا على الدوام ٠

● هوامش الفصل الخامس

(١) لا جدال أن كاينان أو تشايذان Cheinan ، حسب الهجاء الطلياني ، هي هاي نان ، وهو اسم جزيرة كبيرة ومهمة ، تقع خارج الشاطيء الجنوبي للصين ، ويعدها بعضهم الولاية السادسة عشرة في تلك الامبراطورية ويمكن الظن بطبيعة الحال أنها أعارت اسمها للخليج الذي تقع عليه ، وان شاع بين بحارتنا تسميته باسم خليج تونج كنج .

(٢) ينبغي أن نفهم أن المقصود من آنيا هو اقليم أنان أو تونج كنج الذي يكتبه البرتغاليون أنام أو أنام ، وهو الاسم الذي سميت به لغة ذلك الاقليم ، واقليم كوشين صين ، في قاموس الاسكندر من رودس ، باسم Lingua Annamitica ، أي اللغة الآنامية • على أن الصينيين الذين لا يبدءون البتة كلمة بصوت حرف الألف » ينطقونها نجان نان ، على النحو الذي توجد فيه بخرائط الجزويت ودانفيل • أما فيما يتعلق باسم تولومان فقد أبديت بعض التخمينات في هامشه في صفحة سابقة • على أن السياق ربما اقتادنا الى الظن بأن المقصود منها هو كوتشين صين ، وهي كياوتشي لدى الصينيين ، ولكن هذين الظنين لا يؤيدهما أي تشابه في النطق كما أنه لا يبدو من الجزء السابق من خط سير الرحلة (الكتاب الأول • ف • ٤٨) (b.l.c. 48) ، ان تولومان أو ثولومان كانت تقع على الساحل . ومع هذا فلعل مؤلفنا لم يكن يعني بهذه الفترة توكيد موقعها البحري ، وانما أن يقول انه لما كان الخليج تحده الصين من جانب ، فانه يحد كذلك من الجانب الآخر بالأرض التي تحتوي أنان تونج كنج وتولومان (التي قد تكون بولومان ، أرض البرمانيين ، حسب النطق الصيني) ، وولايات أخرى تحدث عنها فيما سلف .

(٣) يمكن الظن بأن البيان المقدم حول هذه الجزر ينطبق ــ لا على الجزر الصغيرة الواقعة قريبا من أرض الصين الأصلية نفسها ، عند قاعدة الخليج ــ وانما على جزر الفلبين وكذا بالاوان أو باراجوا ، الواقعة قبالته ، وان كانت على مسافة بعيدة • ويبدو أن في ذكر اتساعه الهائل ، فيما بعد ، ما يبرر هذا الاستنتاج .

(٤) يوجد النحاس ، فضلا عن الذهب بالفلبين وكثير غيرها من الجزر الشرقية ، ولكن أعظم كمية منه وأجود صنف ، هي التي تستخرج من بلاد اليابان •

● هوامش الفصل السادس

(١) لا مجال لشك فى أن زيامبا الواردة فى نص راموسيو ، وهى زيامبا أيضا كما وردت فى النص اللاتينى الباكر ، وفى نص بـ..ال كيامبا وفى الخلاصة الايطالية المبكرة كيانبان ، ـ هى نفسها تسيامبا أو سيامبا أو كيامبا أو تشامبا الواردة فى خرائطنا ، وهى واقعة جنوب شرقى كوشين صين ، وفى الجزء الجنوبى الشرقى مما يمكن تسميته شبه جزيرة كمبودجا ـ (كمبوديا) ٠

(٢) تقول « Les Mémoires » متحدثة عن تشين لا : « ان دين فو هو الدين الوحيد السارى بالبلاد » ٠ (ص ١١٩)) ٠ ويقول الأستاذ الاسكندر من رودس ، متحدثا عن أهالى كوتشين صين : « وديانتهم هى نفس ديانة الصين ، التى كانت ملحقة بها فيما سلف ، بدرجة قوية » « تعادل صلة تونكين » ٠ انظر : Voyage ey Missions ص ٦٤ ٠

(٣) فى عام ١٣٧٣ نجد ملك « تشن لا » يرسل الجزية (وهى هدايا للتحية على يد سفير) الى الامبراطور هونج أو سليل قبلاى ٠

(٤) يصور المؤرخون الصينيون عمليات الحملة ، بلون مخالف ولعله أصوب ٠

(٥) غالبا ما تكون تواريخ ماركو بولو خاطئة ، والراجح أن يعود ذلك الى أخطاء الناسخين كما أنها تختلف اختلافا بعيدا فى النصوص المختلفة ٠ اذ حدثت هذه الحملة فى ١٢٨١ ـ أو ١٢٨٢ ٠

(٦) لم يمكن تعقب اسم أكامبال فى تواريخ الأقاليم ونظرا لأنه لا يوجد بالنسخ الأخرى لمؤلفنا ، فقد حرمنا من فرصة الحصول على تهجئة أصح لهذه الكلمة ٠ ولكن اسم الملك الذى حكم فى « جان نان أو تون كين » بين ١٢٦٢ و ١٢٩٠ كان تشن جوى هوانج ، فيما يروى مؤرخ « الهون » ، وهو المسمى أيضا كوانج بنج ، واضاف المؤرخ قوله : « وفى تشن تشنج أو كوشين صين اشتبك » بوبيبو بولاتشيه أو « فى ١٢٨٢ ، فى حرب مع قبلاى خان » ٠ انظر Liv. 3 ص٠ص ١٧١ ـ ١٧٣ ٠

(٧) يصف كتاب الحوليات الصينيون هذه الأحداث بطريقة أقل تشريفا لجيوش مليكهم ٠ ومع هذا فمن المحتمل أنه نظرا لأن الصينيين

كانوا ينقمون على هذه المحاولات في الغزو الأجنبى ، فلربما دفعهم ذلك الى المبـالغة فى عواقبها الوخيمـة ٠

(٧) ربما كان من الضرورى اعلام بعض القراء أن خشب الصبر أو اجالوتشام أو خشب الأجيلا (Agila) الذى يسميه أهل الملايو وشعوب شرقية أخرى كالامباك خشب دهنى وبال متحلل فيما يبدو ، يذوب تماما اذا احترق كما يذوب الراتنج ، باعثا دخانا عطرا يقدره الناس أعظم تقدير كعطر ٠

(٩) يبدو أنه لم يكن من دأب ملوك المنغال (أى المغول) حتى عهد هذه الغزوات لا الفتوح — لأقاليم ميين أو آفا ، ونجان نان أو تونج كنج، استخدام الفيلة ، لا كسلاح عسكرى ولا كدواب حمل . ثم حدث فيما أعقب ذلك من العهود أن الفيلة كانت يحتفظ بها بقصد الاستعراض فحسب ، أو لنقل متاع البلاط الامبراطورى من قصر الى آخر .

(١٠) ان كان هذا حدث فعلا فى ١٢٨٠ ، فلابد أنه كان مكلفا آنذاك بمهمة خاصة فى خدمة الامبراطور ٠ على أن الخلاصة الايطالية الباكرة تحدد — دون أن يبدو عليها مظهر الصدق الصحيح تماما — تاريخ ١٢٧٥ ولعل من المحتمل أن الأسطول الذى رحل فيه رحيله الختامى من الصين رسا هناك أيضا حوالى عام ١٢٩١ ٠

(١١) ورد فى كتاب النبات (فلورا) تأليف لورايرو حين تحدث عن « Ebenoxylum verun » أى الأبانوس الحق :

Habitat vastas sylvas Cochinchinac, maximè prope confina cambodia: ad 11 gradum lat. ubi has arbores itcrato vidi.

هوامش الفصل السابع

(١) يبدو أن ماركو بولو خلط فى هذا الفصل بين معلومات جمعها حول جزيرتين ، احداهما جاوة والثانية بورنيو ، وبعضها ينطبق على احداهما وبعضها على الأخرى ٠

(٢) ينتج الفلفل بكل من بورنيو وجاوة ، على أن القرنفل وجوزة الطيب ليسا من منتجاتهما كليهما ، ولكن باتافيا (جاكارتا بعد الاستقلال) كانت فى العصور الحديثة سوقا عظيمة لبيعها ، وكان ذلك نتيجة لوقوع جزر مولوقا تحت سيطرة من يحكمون جاوة ٠ وربما كان هذا هو بالمثل الحال فى الفترة التى تحكم البلاد فيها ملوك ماجاباهيت ، وهو موضوع لدينا عنه معلومات عجيبة كثيرة كتبها السير ت ٠ استامفورد رافلز ، فى تاريخه الممتاز لتلك الجزيرة الشائقة . فانه يلاحظ متحدثا عن الأحداث السياسية التى جرت فى تلك الفترة قائلا : « (بعد شبوب عصيان) وقعت جميع الولايات مرة ثانية تحت سيطرة الماجاباهيت . وتروى بعض الروايات أن دامار وولان نجح أيضا فى رد غزو من كامبودجا (كامبوديا) (مج ٢ ص ١١٢) وتكررت ملاحظة العلاقة بين جاوة وتسيامبا أو تشامبا أيضا ٠

(٣) ليست جاوة مشهورة بانتاج الذهب ، بينما يجمع الكثير منه ، بعكس ذلك ، فى بورنيو ٠

(٤) هذه الملحوظة تنطبق على جاوة اكثر كثيرا مما تنطبق على بورنيو ، وذلك لأن الملاحة الى بورنيو ، من موانى الصين الجنوبية ، لا هى بالبعيدة الشقة ، ولا هى محفوفة بأية صعوبة خاصة ٠ وربما صح لنا أن نلاحظ هنا ، أن المؤرخين الصينيين يتحدثون عن مملكة تسمى كوا أوا ، سير عليها قبلاى قيام حملة عسكرية ، حوالى عام ١٢٨٧ حسب رواية الأستاذ اميوت أو ١٢٩٢ حسب رواية ده جنى الأكبر ٠

● هوامش الفصل الثامن

(١) اذا كانت جزيرة كوندور – وهناك أسباب وجيهة للذهاب الى ذلك – هى جزيرة كوندوره الواردة بخرائطنا (ويسميها أهل الملايو كوندور Kondûr التى تعنى نوعا من القرع) ، فمن الواضح أن الاتجاه والمسافة المعينين لها خاطئان ، وذلك لأن اتخاذ طريق جنوبى بجنوب غربى من جاوة لا بد له – بدلا من اقتياد الملاح الى جزيرة على شاطىء كمبودجا – أن يحمله الى المحيط الجنوبى · ويبدو أن هذه الأخطاء نشأت عن سوء فهم لخط سير الرحلة ، التى يدخل فيها مؤلفنا ، باعترافه ، أماكن ليس لديه عنها معلومات الا بسبيل السماع ، بالاضافة الى الأماكن التى زارها فعلا · فأما ان رحلته لم تقتده الى جزيرة جاوة (مميزة عن التى يسميها فيما بعد جاوة الصغرى) ، فشىء واضح يتجلى من نفس عباراته ، ولكنه عند مغادرته الصين وبلوغه تسيامبا ، التى اما أن يكون رسا بها ، أو رآها وهو يمر أمامها ، يدخل فى استطراد لقصته لكى يذكر بعد هذه الجزيرة الشهيرة ويشير الى بعض تفصيلات خاصة عنها ، فاذا انتهى من ذلك عاد الى النقطة التى تركها ، ومنها يتقدم (بطريقته الاستطرادية المفككة) الى متابعة طريقه الصحيح ، الذى يؤدى به بصورة طبيعية الى جزيرة كوندور الصغيرة · نظرا لأن نساخ مخطوطه الأوائل لم ينتبهوا الى هذا الفارق الضخم ، فانهم حاولوا أن يجعلوا اليومية أكثر انتظاما طبقا لفكرتهم ، باقحام هذه الملحوظات عنوة – مهما بلغ من عدم استقامتها مع حقائق الجغرافيا – واظهارها بشكل تسلسل واحد متسق ، مع المعالجة الى تعيين اتجاهات – خيالية ، بقصد بلوغ تلك الغاية . لا يمكن التعرف على اسم صونذور . فان كانت فى الحقيقة مكانا آخر مميزا ، وليس قراءة أخرى لكلمة كوندور ، (التى تتألف فى حد ذاتها من جزيرتين صغرى وكبرى) ، فربما كان المقصود منها هو بولو ساباتا ، التى تقع على الطريق ، ولكن على مسافة ضخمة من الأولى (يعنى كوندور) ·

(٢) ان لوتشاك بنص راموسيو ولوتشاتش فى الخلاصة هى نفسها لاتش فى احدى النسخ اللاتينية الباكرة وبوياتش فى طبعة بال · وتذكر احدى النسخ أنها تقع فى اتجاه جنوبى شرقى ، وأخرى انها فى اتجاه جنوبى وجنوبى بغرب من كوندور : وكلا القولين لا يستقيم والحقيقة الجغرافية · ويبدو من الظروف ان المقصود بها جزء ما من اقليم كمبودجا

التى كانت عاصمتها تسمى لوتتش ، طبقا لرواية جسبار ده كروز الذى زارها اثناء حكم سيباستيان ، ملك البرتغال · (انظر بوتشاس Puchas مج ٣ ص ١٦٩) وكتب الاسم فى خريطة دانفيل ليفيك ·

(٣) لست أعلم فيما عدا منطقة سولو ، قرب الشاطىء الشمالى الشرقى لبورنيو ، عن انتاج ودع العملة بأى جزء من أجزاء البحار الشرقية أو الصينية ، كما انى أشتم هنا زحزحة للفقرات عن مكانها أو غلطة من نوع آخر ، وذلك لأن كلمات النص لا تنطبق الا على جزر الملديف وحدها · وورد فى النص اللاتينى ما يلى :
« Utuntur incolar pro moneta glebis quibusdam aureis »

وهو قول يمكن أن يفهم على أن المراد منه هو قطع صغيرة من الذهب وهى تشبه فى شكلها القطع الفضية التى تشابه الرصاصات المسطوحة (القذائف المبططة) ، والتى تتداول فى سيام : على أن هذه لا يمكن تصويرها للتداول فى اقاليم أخرى ·

(٤) من المحال علينا بغير معاونة وصف أدق لهذه الفاكهة ، حتى ولو استعنا بقاموس Loureiro's Flora Cochinchinensis تأليف لوريير والتحقق من نوع الفاكهة المسماة هنا بالبرسى أو البرتشى Berchi . على انه فى بلاد يوجد بها المانجوستان : Gorcinia mangostna (المنجو) ربما جاز الظن أنها تستحق هذه الملحوظة الخاصة ، لكن المؤلف لم يخبرنا ان هذه الفاكهة الرائعة من منتجات كامبودجا ·

(٥) تنسب هذه الحالة المنعزلة للاقليم الى أسباب بعيدة الاختلاف · فنحن نجدها تنسب هنا الى دوافع سياسة الغيرة ، والسبب الوارد فى نسخة بال هو :
« Adeo inhumani and habitatores ejus »

كما أنه وارد فى الخلاصة الايطالية هكذا :
Perche elli sie fora de via.

ولأن الأخير هو أبسط التعديلات ، فانه قد يكون أصدقها ·

(١) يبدو أن بنتان ، التى هى فى طبعة بال بيتان ، ولكنها فى اللاتينية الأقدم بنتاين ، انما هى جزيرة بنتان ، أو بنتانج بطريقة كتابتها الأشيع قرب الفتحة الشرقية لمضيق ملقا ، التى تعد ميناؤها المسماة رئيو أورهيو ، مكانا عظيم التجارة · ويتجه الطريق اليها من كامبودجا نحو الجنوب تقريبا ، كما هو وارد بكل من النصين الايطالى واللاتينى ، هذا الى أن المسافة لا تختلف اختلافا كبيرا عن خمسمائة ميل ·

(٢) يجد الملاحون أثناء رحلتهم بين ساحل كمبوديا وجزيرة بينتان ومضيق ملقا عدة مناطق ضخمة وشعبا مرجانية ، ولكن الشقة المعينة من المياه الضحلة التى تشير اليها الفقرة الواردة فى النص ، لا يمكن تحديد موقعها بدقة ·

(٣) لا يكاد يتطرق شك الى أن جزيرة ومملكة مالايور (وهى فى طبعة بال ماليتور ، ولكنها فى اللاتينية الأقدم ماليبور) انما عنى مؤلفنا بها التحدث عن مملكة الملايو ـ (Orang Malâgu) التى أسست قبل عهده بما يقارب القرن ، عند الطرف الجنوبى الشرقى لشبه الجزيرة التى تحمل ذلك الاسم ، فرغم أنه حدث حوالى عام ١٢٥٢ أن مقر الحكم نقل الى ملقا ، فان اسم أرض الملايو Tanah malâyu يبدو انه ظل بالتاكيد يطلق دائما على ذلك الجزء من البلاد ، الذى اقيمت فيه المنشأة الأصلية ، التى تدخل الآن ضمن مملكة جوهر · وعن اسم مدينتهم الأولى ، حصل المضيق ـ الذى كونته جزيرة تقع قريبا جدا من الطرف الأقصى من البر ـ على اسم مضيق سنغافورة أو سنكابور كما يسمى عند العامة ·

● هوامش الفصل العاشر

(١) تكاد تجمع جميع الظروف على توكيد الرأى القائل بأن المقصود من جياوا الصغرى فى نص راموسيو ، وجاوا Jaua الصغرى فى اللاتينية ، هو جزيرة سومطرة ، وهو اسم لا يكاد يعرفه الأهالى الا قليلا ، لعله من أصل هندوكى .

(٢) العقاقير الأخرى المشار اليها هنا ربما تكون اللبان الجاوى Gum benzuin والكافور المحلى الأصيل (مميزا عن الكافور المقلد الذى يباع فى الدكاكين مستوردا من الصين واليابان) ، وهما سلعتان تجاريتان دائمتان أساسيتان فى سومطرة .

(٣) نظرا لأن خط الاعتدال (الاستوائى) يقطع الجزيرة ، فمن الطبيعى الا يبدو نجم الشمال لسكان القسم الجنوبى كله منها ، بل ان سكان شطرى الشمالى لا يرونه الا نادرا ، وتحت ظروف خاصة فقط .

(١) الاسم الوارد هنا فليتش هو فى الطبعة اللاتينية فيرلتش ، وفى الخلاصات الايطالية فيرلاتش ، المعادلة لفيرلاك · ومن ثم يبدو أن المعنى بها مكان يسمى بيرلاك،ويقع على الطرف الشرقى للساحل الشمالى ، ونظرا لأننا نجد فى سياق الكلام أن تعطيل الأسطول باحدى موانى هذه الجزيرة ، كان مرده الظروف الجوية غير الموائمة ، يمكن الظن بأن الجماعة بعد مغادرتهم جزيرة بنتان ، وقطع المضيق تقريبا ، التقوا بالعواصف الغربية ، وهم يجتازون أرض القارة عند تانجونج برلاك ـــ أى « النقطة الماسية» فى خرائطنا ـ وعندئذ اضطروا الى التماس ملجأ فى خليج قريب ·

(٢) مما يبرر تماما تأكيدات مؤلفنا بأنه وجد مسلمين بين هذا الشعب حوالى عام ١٢٩١ ، ما روته حوليات أمراء ملقا ، التى تذكر أن تأسيس ذلك الدين فى شبه الجزيرة حدث أثناء حكم ملك تبوأ العرش فى ١٢٧ ومات فى ١٣٣٣ ، وذلك بينما هو فى نفس الوقت واضح فى اعتناق الأفراد للدين الجـديد ـ حتى فى أعداد كبيرة ـ ربما سبق بأعوام كثيرة اتخاذ الديانة الاسلامية دينا رسميا للحكومة ـ انظر History of Sumatra الطبعة الثالثة ص ٣٤٣ ·

(٣) تشير هذه الصفة بوضوح الى الشـعب المسـمى « الباتا Battas » ، الذى يسكن شطرا ضخما من داخلية سومطرة ، بالقرب من نهايتها الشمالية ، والذين لاحظ الرحالة والكتاب فى جميع العصور ، اكلهم لحوم البشر ، منذ أن عرفت الجزيرة الأوربيين لأول مرة ·

(٤) « لا يعمد شعب « الباتا » الى ذبح الماشـية لاتخاذها طعاما ، الا فى المناسبات العـامة ، ولكن نظرا لأن شهيتهم لم تجبل على رقة ولا تهذيب ، فانهم لا يتورعون من تناول لحم جاموسة ميتة أو خنزير أو فار أو تمساح أو أى حيوان متوحش يتصادف أن يلتقوا به · انظر : History of Sumatra ط ٣ ص ٣٨٠ ·

(٥) وهناك تأكيد مماثل أدلى به Ludovico Barthema عن شعب جاوة ، يقول هذا الرحالة غير العادى والأصيل أيضا :
La fede loro è questa, alcuni adodano gli i doli come

(أعنى أنهم يعبدون آلهة الهندوك)

fanno in Calicut, e alcuni sono che adorano il sole ; altri la luna, molti adorano il bue ; granparte la prima cosa che scontrano la mattina ».

انظر راموسيو مج ١ ص ١٦٨ .

◎ هوامش الفصل الثانى عشر

(١) ذهب بعضهم ، على أساس مشابهة صوتية عادلة فى الأسماء الى أن « باسما » فى نسخة راموسيو الايطالية الأقدم ، أو باسمان فى طبعة بال ، انما تشير الى باسمان ، على الشاطىء الغربى ، تحت خط الاعتدال الاستوائى مباشرة ، ولكن ليس هناك أى احتمال بأن مؤلفنا زار أى مكان على هذا الجانب من الجزيرة ، وبخاصة أن يكون مكانا متوغلا غربيا الى هذا الحد البعيد · وتقتادنا جميع الظروف ـ بعد ذلك ـ الى الحكم بأن المقصود بها هو بازيه Pasé (ويكتبها الرحالة القدماء باسم) ، على الساحل الشمالى ، غير بعيد من « النقطة الماسية » ·· يقول ج ده باروس : « كانت بيدير Pedir المدينة الرئيسية بهذه النواحى قبل انشاء ملقا ، ولكنها بدأت فى الاضمحلال بعد هذه الفترة ، وبخاصة بعد وصول البرتغاليين ، كما شرعت مدينة باسم الواقعة فى جوارها فى الصعود أهمية وشأنا » · انظر Decad ٢ ورقة ١١٥ ·

(٢) مما يجعل هذا البيان ممكنا ما نعرفه من طموح قبلاى الى بسط شهرة امبراطوريته الى أماكن بعيدة تقع وراء منال جيوشه ، وبصفة خاصة الى تأسيس « تابعية اقطاعية » ، وان تكن اسمية فقط بين أمراء الجزر الشرقية ·

(٣) والفيل والخرتيت (الكركدن) كلاهما معروف لدى سكان سومطرة · أما فيما يتعلق باستعمالات قرنة كسلاح دفاعى ، والتركيب الشوكى للسان ، فقد خدع فيها مؤلفنا بحكم ما سمع أو قرأ · وكان الاعتقاد بتمزيقه اللحم باللعق يعم العالم قاطبة منذ أيام بلينى الى فترة قريبة جدا · وينبئنا برنتيوس ، وهو طبيب هولندى كتب فى باتافيا فى ١٦٢٩ : « ان هو استثير ، اطار الرجل أو الحصان كما تطير الزبابة ، فيقتله بلعقه ، بينما يجرد العظام من اللحم بخشونة لسانه » · انظر : An account of the Descuses ص ١٨٣ ·

(٤) يتطابق ما قيل عن ابتهاج الحيوان بالبرك الطينية مع ما هو معروف من عادات الحيوان · يقول كتاب The Hist of Quadrupeds « الكركدن ـ شأن الخنزير ـ مغرم بالتمرغ فى الروبة الطينية والوحل » ص ١٧٧ ·

(٥) (كان من الخرافات الشائعة فى العصور الوسطى ، التى وردت فى جميع الرسـائل المسطرة فى « التاريخ الطبيعى » (أو كتب علم الحيوان (Bestiaries) على ما كانت تسمى) ، ان هناك طريقة واحدة فقط للقبض على وحيد القرن وهى وضع عذراء طاهرة قرب الأماكن التى يرتادها • وكان المعتقد أن الحيوان يصبح لتوه انيسا ، بحيث يتقدم ويضع رأسه فى صدر العذراء فينتهز الصائد الفرصة ليقتله) •

(٦) ليس بمستبعد اطلاقا ، فى عهد لم تكن فيه الأجزاء الشرقية من العالم معروفة الا قليلا لدى الأوربيين ، الذين إتصفوا بسرعة التصديق على نحو متناسب مع جهالتهم ، ان يمارس هذه الخدع رحالة من العرب وتجار الأرمن ، الذين زاروا الجزر التى كان يوجد بها الاورانج أوتان أو البونجو (Simia Satyrus) ، وربما اعتادوا بيع هذه الجثث المحشوة الى الباحثين الايطالين ، على انها مومياوات جنس قزم من الناس •

● هوامش الفصل الثالث عشر

(١) المكان الذى يبدو أنه يتجاوب وسمارا على احسن وجـه هو سمالانجا ، التى تقع بين بيدير وبازيه على الساحل الشمالى نفسه ، والذى يوصف فى كتابات أهل الملايو بأن لهم ميزة امكان الرسو المحمى جيداً أى الآمن من الرياح .

(٢) اذا كانت الحملة التى صحبها مؤلفنا ، رحلت من الصين حوالى بداية عام ١٢٩١ (كما هو مستنتج فى هـ I ص 27) واستغرقت ثلاثة أشهر فى رحلتها الى جاوة الصغرى أى سومطرة (كما ذكر ذلك هو نفسه فى الفصل الأول من العمل ص 27) فانها كانت لتقابل الرياح الموسمية الجنوبية الغربية عند الفتحة الغربية لمضيق ملقا قرب شهر مايو من تلك السنة ، فلما أن ألفوا من الضرورى الرسو ـ نتيجة لهذا ـ بأحد الخلجان بالشاطىء الشمالى من تلك الجزيرة ، فلربما تطلعوا هناك حتى يمكنهم مع عودة الرياح الشمالية الشرقية توقع جو لطيف ومستقر .

(٣) عندما يخبرنا مؤلفنا انه لم يكن يمكن رؤية النجم القطبى ، من مكان لا يبعد عن خط الاستواء الا حوالى خمس درجات ، نسلم فورا بهذه الحقيقة ، على أن توكيده التالى بأن نجوم الدب الأكبر كانت غير مرئية هى الأخرى ، شىء ـ على عكس ذلك ـ لا يمكن تعليله الا أن تنسب اليه الفكرة الخاطئة بأنه نظرا لأن المجموعة النجمية لم تكن تظهر فوق الأفق ليلا ، اثناء الشطر الأكبر من مدة اقامته بالجزيرة ، فانها لم تكن لترى اثناء اى فصل اخر .

(٤) مما يذكر أنـه حدث فى عام ١٥٢٢ ، أن أصيبت الحامية البرتغالية فى قلعة مبنية فى باسم (بازيه) ، قرب المكان المتحدث عنه هنا ، بمحنة بسبب « اعوازها الى الطعام ، الذى حجبه اهل البلاد عنهم ، بايقافهم الأسواق التى الفوا اقامتها ثلاث مرات أسبوعيا » . انظر « Hist. of Sumatra » ، ط ٣ ، ص ٤١٩ .

(٥) من هذه النخلة التى تسمى فى سومطرة أناور Anau ويسميها أهالى الملايو الشرقية جوموتو Gomuto هى من فصيلة بوراسوس جوموتوس عند أوربيرو ، وهى التى وردت فى (The Batavian Transactions) باسم ساجوير وسى بيناتوسى ، ويعمد الأهالى للحصول

على النيرة « niva » أو التودية (عصارة النخيل الطازجة) الذى يلقى منهم تقديراً أعظم مما يلقى المستخرج من شجرة جوز الهند — الى قطع احدى أكواز الطلع — أى الفروع المستخدمة فى الأخصاب عن بعد بضع بوصات من الجذع حيث يربط الجزء الباقى ثم يدق ، وعندئذ يعمل حز يرشح منه الشراب فى وعاء أو خيزرانة ، تربط تحتها باحكام ، وتستبدل هذه بأخرى مرة كل اربع وعشرين ساعة — انظر :
Hist of Sum., p. 88 ص ٨٨ •

(٦) ربما كانت الخواص العلاجية لهذا الشراب وهمية ، شأن كثير غيره من الوصفات الدوائية ، على أن مؤلفنا لم يكن يملك الا أن يتحدث بما سمعه من اعتقاد شائع حول مزاياه • غير أنه يعتقد بصفة عامة أن الاشراف فى استخدامه يجلب الزحار (الدوسنتاريا) •

(٧) من الطبيعى الاعتقاد بأن ارواء الأشجار أثناء فصل الجفاف ، يعود بزيادة مقدار العصارة ، ويعود بالتبعية بزيادة العصير أو الشراب المتوح (المستنزف) •

(٨) هذا الوصف لجوز الهند « cocos nucifera » معروف — حتى لمن شهدوا الثمرة مجلوبة الى اوربا — انه صحيح تماما ، بيد أن الانتعاش المستحب الذى يولده شرابه ، متى شرب من الجوزة الصغيرة بينما القشر الخارجى لا يزال أخضر ، والقلب (اللب) لا يزال طريا جيلاتينيا ؛ لا يمكن أن يبدى الحكم فيه الا من قاموا بالرحلات ، تحت شمس محرقة ، بتلك البلاد التى ينتج بها •

◙ هوامش الفصل الرابع عشر

(١) يعتقد فالنتين وغيره من الكتاب الهولنديين أن المقصود من دراجويان التى وردت بنفس الهجاء فى طبعتى بال واللاتينية الأبكر ، ووردت فى المخطوطات داجويام ، وفى الخلاصات الايطالية ديراجولا ، ـ هو اندراجيرى أو آندراجيرى حسب الطريقة الأشيع فى كتابتها ، وهو نهر ضخم فى الجانب الشرقى من الجزيرة ، وهو وان كان بعيدا فى اتجاه الجنوب ، وكان من ثم بعيدا عن المكان الذى ألقى الأسطول فيه مراسيه ، الا أنه ربما زاره رحالتنا المغامر أثناء فترة تعطله فى الأشهر الخمسة ٠

هوامش الفصل الخامس عشر

(١) يظهر اسم لامبرى بغير أدنى تغيير فى الطبعات والنسخ المتعددة ، وذلك فيما عدا موضعا واحدا ، اذ هو يظهر فى النسخة اللاتينية الباكرة ، مطبوعنا جامبرى · فان كانت المنطقة المذكورة اخيرا هى اندراجيرى ، لكان هذا الاسم هو جامبى فيما يبدو ، وهو اسم آخر كبير ، يقع جنوبا اكثر · وفى الطبعة الألمانية (نورنبرج) الصادرة فى ١٤٧٧ ، تسمى هذه المملكة أو الناحية جامبو ، وهو اسم يكاد يقترب من اسم جامبى ·

(٢) هذا هو الخشب المسمى Caesulpinia Sappan عند لينايوس Lin. ، وهو المشهور بأنه مادة صباغة تشتهر باسم خشب البريزيل ؛ وهو اسم يظن الناس عموما بأنه اكتسبه من اسم اقليم البرازيل ، ولكن يبدو أن العكس هو الواقع · ذلك أن كلمتى فرزينو Verzino بالايطالية وبارسينو barcino بالاسبانية وتحرفان الى برزن وبيرزيل ، كانتا موجودتين قبل اكتشاف العالم الجديد بزمن طويل ، كما ان الاسم أطلق على ذلك الجزء من أمريكا الجنوبية بسبب امتلائه بالأشجار التى تنتج تلك الصباغة النافعة ·

(٣) ربما شاهد مؤلفنا الكافور بمدينة جامبى ، ولكن لابد انه حمل اليها ليباع هناك ، من المناطق الداخلية الواقعة بعيدا فى الشمال الغربى وذلك لأن تلك الشجرة لا تنمو بأى مكان جنوب خط الاستواء ·

(٤) ما يقال هنا عن نوع آخر من مواد الصباغة ، متميز عن الفرزينو ، يختلط فى الطبعات اللاتينية معه ، ويطلق على النوعين اسم برسى Berci وهو اسم اتصاله ببرزن وبارسينو واضح تماما · وفيما عدا نبات النيلج (Indigofera Tinctoria) فانى لا أعلم نباتا يستخدم فى الصباغة ؛ وتستخدم كل اجزائه جميعا بلا تمييز : الجذور والأوراق والساق · على أن هذا النبات نفسه يوصف بتفصيل أكثر فى الفصل العشرين من هذا الكتاب تحت اسم النيلج Endigo ·

(٥) يبدو أن الأصل فى فكرة الجبليين ذوى الذيول هو اسم الأورانج أوتان أو « الانسان الوحشى » الذى يطلق على بعض أنواع القردة العليا التى تشابه بوجه أخص النوع البشرى ·

● هوامش الفصل السادس عشر

(١) ظن بعضهم أن فانفور المقصود بها هو جزيرة بانشور ، التى يفصلها عن شاطىء سومطرة الشرقى مضيق ضيق ، ومع أن هذا الظن لا يؤيده التشابه الصوتى ، فانى أميل الى الظن بأن المقصود منه هو كامبار (التى ينطقها ربابنة العرب كانفار) التى تقع على نهر يصب بنفس المضيق ، التى كانت فى المدة التى ازدهرت فيها بازيه ، تعد مكانا له بعض الأهمية ، وكثيرا ما يرد ذكرها فى كتابات ج · ده باروه وغيره من الكتاب المبكرين ·

(٢) سبق أن لاحظنا تفوق الكافور المحلى (فى رأى الصينيين ، (وهم أهم الشعوب التى تشتريه) ، على ما ينتج منه ببلاد الصين نفسها وباليابان · وثمنه ، وان لم يعد بأية حال معادلا لوزنه من الذهب ، فى الزمان الحديث ، الا أنه يتجاوز ضعف وزنه من الفضة · وطبقا لقائمة أسعار البضائع فى باتافيا ، عن عام ١٨١٤ ، ورد أن أجود أنواع الكافور Camphor-barus يباع بسعر خمسين روبية أو ستة جنيهات انجليزية وخمسة شلنات للرطل الواحد ، بينما سعر الكافور فى سوق الصين أو اليابان أقل من روبية واحدة أو حوالى شلنين للرطل ·

(٣) يقصد بهذا شجرة الساجو المسماة الرومبيا Rumbiya والبوهن ساجو عند أهل الملايو ·

(٤) التعبير الوارد فى النص هو « Cime quella del carvolo » وهى كلمة لم يمكن العثور عليها بالقواميس الايطالية تسمية لأى نبات . والكارفالهو Carvalho فى البرتغالية هو البلوط ·

(٥) قام رومفيوس وبوافر وغيرهما ، بعمل وصف واف لطريقة اعداد الساجو من اللب الدقيقى والفروى للشجرة ولكن هذا تم بطريقة محكمة أكثر فى Asiatic Rerearches · يقول صديقى الجليل المرحوم جون كرسب ، متحدثا عن سكان جزر بوجى ، الواقعة غير بعيد خارج ساحل سومطرة : « ان المادة الرئيسية فى طعامهم هو الساجو ، الذى يوجد بوفرة فى هذه الجزر فمتى نضجت الشجرة ، قطعت ، واستخرج اللب أو النخاع الذى يشكل الساجو ، وفصل الجزء الدقيقى من الألياف بالنقع فى الماء ، وبالدوس بالأقدام فى حوض أو جرن ، يزود بالماء النقى

باستمرار ، فيرسب الجزء الدقيقى ، ويحتفظ به فى جوالقات مصنوعة من نوع من سمار الحصير ، فيمكن حفظه فى هذه الحالة مدة طويلة • ومتى استخرجوه من مخزنهم للاستخدام الفورى ، صار من الضرورى اجراء عملية تجهيز أخرى قوامها الغسل ، ولكنهم لا يجرشونه • وقد تعطى شجرة واحدة فى بعض الأحيان مائتى رطل من الساجو ، ومتى طبخوه وضعوه فى الأوصال المجوفة للخيزران الرفيع ثم حمصوه على النار ، مج ٦ ص ٨٣ •

(٦) أحضر الكابتن توماس فوريست الى انجلترا فى ١٧٧٨ ، كعكا من خبز الساجو بمنزل السير جوزيف بانكس وهى مما جهزه أهـــالى نيوجنى ، كما أحضر الفرن الطينى المستخدم فى خبزها ، والذى رسم صورته فى البيان الذى كتبه بتلك البلاد • (ص ٣٨٨) •

(٧) من الواضح ان مؤلفنا وقع فى خطأ ؛ حيث ظن أن هذا الخشب الصلب والثقيل الذى يسمح بأن يشق طوليا الى شرائح ، ـ شأن قصب الخيزران ـ هو الجزء الخشبى من شجرة الساجو ، الذى يختلف تركيبه اختلافا بينا ـ فان ما يصفه بأنه صالح لعمل الرماح انما هو جذع نوع آخر من النخل ينمو بنفس هذه الجهة من البلاد ، ويسميه أهالى سومطرة وجاوة نيبونج ، ويسميه علماء التاريخ الطبيعى « كاريوتا يورنز » ، الذى خلط المؤلف بينه وبين الشجر الآخر المجاور • ومع هذا فان بعض ذوى الشهرة الكبيرة من علماء النبات ، لم يبدوا قدرة أكبر على التمييز ، فيما يتعلق ببعض الأنواع التى تتألف منها رتبة order النخيل •

● هوامش الفصل السابع عشر

(١) من الواضح أن الجزيرة المسماة هنا باسم نوكويران ، وفى نسخة بال نيكورام ، وفى اللاتينية الأقدم نيسكوران ، وفى الخلاصة الايطالية ـ انما هى احدى جزر نيكوبار ، وهى المسماة بخرائطنا تونكورى ونونكافرى وفى خريطة دانفيل نيكافرى ، وهى وان لم تكن اكبرها مساحة فانها أشدها شهرة بسبب مرفئها الجيد ، وهى تبعد عن الطرف الأقصى لسومطرة حوالى درجتين ونصف أى مائة وخمسين ميلا بحريا .

(٢) يقول كاتب فى مجلة (Asiatic Researches) مج ٣ ص ١٦٠ : « تشاهد فى غاباتهم أشجار عظيمة الارتفاع والحجم ، » ملحوظة . « قطع قومنا احدى هذه الأشجار وكان محيطها تسع قامات أى ٥٤ قدما » . وهى اشجار باسقة حقا ! على أن المنتجات التى يعتنون بها بوجه أخص هى اشجار جوز الهند والفوفل : (الكوثل أو الأريقة ..) وينمو هناك أيضا القرفة البرية والساساذراس . وهو ضرب من الغار الأمريكى .

● هوامش الفصل الثامن عشر

(١) لا يمكن ان يخالجنا شك إن المقصود من انجامان فى نص راموسيو والنصوص اللاتينية القديمة وانجاليا فى طبعة بال ، ونانجاما فى الخلاصات الايطالية ، ـــ هو تلك الجزر الواقعة فى الجانب الشرقى من خليج البنغال ، التى نسميها جزر اندامان الكبرى والصغرى .

(٢) يقول المستر ر. هـ. كولبروك : « يسكن جزر الاندامان جنس من الناس لعلهم اقل سكان العالم تمدينا ، فهم اقرب الى الحالة الفطرية البحتة من اى جنس آخر نقرأ عنه. ولونهم اقتم ما يكون، وقامتهم قصيرة على وجه الجملة ، كما أن هيئتهم غريبة غير مالوفة . واطرافهم قبيحة التكوين هزيلة ، وكروشهم بارزة ، وهم كالأفريقيين رؤوسهم صوفية الشعر (مفلفلة) ، وشفاه غليظة وانوف فطساء . وهم يعيشون عراة تماما » . انظر (Asiat. Res.) مج ٤ ص ٣٨٩ . يقول الرحالة العرب : « وهم سود البشرة ، وشعورهم جعدة . ووجوههم وعيونهم مخيفة ، واقدامهم كبيرة جدا تكاد تبلغ الذراع طولا ، كما انهم يعيشون عراة الأجسام تماما » . (انظر .Anciennes Relat ص ٥) . وهذا الوصف القديم يفند بكفاية القصة التى لا اساس لها حول الجزر وانها كانت تسكنها فى الأصل شحنة من العبيد الأفريقيين الذين نجوا من حطام سفينة برتغالية ، وهى القصة التى اخترعها وصدقها اشخاص كانوا يجهلون ظروف كثير من الجزر الشرقية وانها هى الأخرى يسكنها جنس من الزنوج .

(٣) يقصد بتفاح الجنة Pomi paradisi النبات المسمى موز الجنة ، المسمى بيسانج ببلاد الملايو ، و Musa Paradisiaca عند ليناايوس Linnaeus (عالم النبات السويدى) .

● هوامش الفصل التاسع عشر

(١) لا شك أن اسم هذه الجزيرة المهمة ، التى ينطقهـا الفرس وسكان الهندوستان ــ سيلان (ويسمونها أيضا سيرنديب) ، تم الاحتفاظ به بكل النسخ العديدة بصورة خلت من التحريف أكثر من أى اسم آخر فى العمل كله . فهو يكتب زيلان فى نسخة راموسيو ، وفى طبعـة بال سـيلام Soilam وفى اللاتينيـة الأقدم سـيلان Seylan وفى الخلاصات الايطالية سيلان ، وكلها أفضل من هجائها سيلون Ceylon وهو الهجاء الذى اعتدنا كتابة الكلمة بها (نقلا عن الهولندية فيما أظن). واتجاه أشد أجزائها امعانا فى الجنوب من جـزر اندامان يكاد يكون الجنوب الغربى الجنوبى ، كما أن المسافة ، حسب القياس على الخريطة ، تبلغ أكثر قليلا من تسعمائة ميل جغرافى .

(٢) بالنص : (Sicut dicit Mappa mundi)

وأوردت الترجمة الحرفية للألفاظ اللاتينية لا ترجمة مارسدن لنص راموسيو . والخريطة العالمية (Mappa-Mundi or Mappe Monde) كانت الاسم الذى كان يطلق فى العصور الوسـطى على نوع خريطة العالم المستخدمة آنذاك ، كما أنه كان يستخدم أيضا أحيانا عنوانا لرسالة فى الجغرافيا . والواقع أن خريطة للعالم ، كانت الى حد ما ، رسالة فى الجغرافيا ، وذلك لأن وصفا كتابيا كان يضاف عادة الى اسم كل مكان على الخريطة ، وهو الوضع الذى يفسر كلمة (Dicit.) ولا شك أن « الخريطة العالمية » التى استخدمها ماركو بولو كانت خريطة شرقية : صينية أو عربية وذكر المسـتر كورديئر ، فى كتابه « وصـف سـيلان « Description of Ceylon » ، الذى نشر فى ١٨٠٧ ، أن هناك روايات متوارثة تناقلها الأهالى (تؤيدها فيما يقـال الملاحظات الفلكيـة) بأن الجـزيرة نقصت نقصا كبيرا فى حجمها عما كانت عليه فيما سـلف ، وهى رواية ذكرها بوجه خاص ماركو بولو ، وهو رجل من البنادقة ، زار بلاد الشرق فى القرن الثالث عشر » . مج ١ ص ٢ .

(٣) ان أسماء الأعلام الهندية لها على الدوام معان ودلالات . ويبدو أن المقصود من سندرناز هو تشـاندرالناش ، ومعناها ، محاق القمر أو اختفاؤه . وهو وان لم يكن ربما ملك كاندى ، أو الجزيرة بأكملها ، فانه ربما كان يحكم منطقة على الشاطىء الغربى والراجح أن يكون حكمه

على المنطقة التى يسكنها شعب من الناس هبطوا الجزيرة من القارة المقابلة ·

(٤) يقول المستر كوردينر : « ان ملابس العامة ليست سوى قطعة من العبك ـ (القماش القطن الخام) أو الموسلين ، لفت حول الوسط ، يتفاوت حجمها ونوعها باختلاف ظروف لابسها . وكلما زاد الواجد منهم فقرا ، زاد قلة فى الاستتار » · مج ١ ص ٩٤ ·

(٥) ويقول الكاتب نفسه : « ان الفاكهة هى المادة الأساسية فى طعامهم · والأرز ترف يندر أن ينال معظمهم منه نصيبا : فأما السمك واللحم فينطبق عليهما نفس الأمر تقريبا » · « وهم يشربون الماء الحلو الرائق الذى يوجد داخل جوز الهند ، كما يحتسون خمر النخيل أحيانا أى الشراب المستخرج من قمة النخلة ، قبل أن يصل الى درجة الاسكار » · (ص ١٠٤) · ويقول نوكس : « ومن الأرز لديهم أنواع عديدة » : « والتللا Tolla حبوب يستخرجون منها الزيت » · (ص ٧ ـ ١٢) وهذا هو التل Til أو حب السمسم الوارد ذكره فى Materia Medica لجلادوين ·

(٦) يقول كوكس Knox ، توجد بهذه الجزيرة عدة أنواع من الأحجار النفيسة ، يملك الملك منها الكفاية ولذا فانه لا يحرص على اكتشاف المزيد منها ·· وتوجد أيضا بعض أنهار ، يقال على وجه العموم ، انهم يستخرجون منها بالفعل اليواقيت والياقوت الأزرق لاستخدام الملك خاصة ، وكذا أحجار عين الهر · » (ص ٣٩) · ويعدد المستر كوردينر بين منتجات سيلان ، الياقوت والزمرد ، والتوباز والجشمت والياقوت الأزرق وعين الهر (أو الأوبال)» وحجر القرمة أو العقيق الأحمر واليشب وأنواع الجذع العقيقى ؛ فضلا عن أنواع أخرى · (مج ١ ص ١٤) ·

(٧) يبدو أن المقصود بهذا الوصف هو ما يسمى اجمالا باسم العقيق الأحمر ، الذى يعرفه المستر وود ورد بأنه : « حجر من نوع الياقوت له لون أحمر دموى قان » ؛ ويعتقد أنه يتصف بالتألق فى الظلام ·

(٨) لو أن لهذا الحجر الخارق وجودا حقيقيا ، فلربما كان كتلة من البلور الملون · ولكن ليس شيئا غير مألوف أن يصدر عن أمراء الشرق ، فى ديباجة رسائلهم وتراخيصهم ، المفاخرة بامتلاك تحف خيالية ومستبعدة ، وفى هذه الواقعة بالذات يعد كذب هذه الادعاءات تعليلا كافيا يعلل لرفض الملك العرض الفاخر الذى قدم لشرائها من امبراطور الصين ·

(٩) يقول المستر كوردينر : « ان أهل سيلان قوم فقراء عديمو الضرر كسالى وغير مقاتلين ويمتازون بالاتزان والاعتدال والخجل والجبن » ٠ « وبذل منذ بضع سنوات جهد لتدريب بعضهم على الجندية ، ولكن تلك المحاولة فشلت تماما بعد جهود مضنية طويلة » ٠ (ص ٩٢) ٠ (وتتفق بيانات أخرى ، قديمة وحديثة ، على صدق اتصافهم بهذا الطابع) ٠

● هوامش الفصل العشرين

(١) يبلغ طول المسافة بين اربيو فى سيلان واقرب جزء من القارة ستين ميلا جغرافيا بالضبط ، ولكن نظرا لعدم استمرار هذه الدقة فى عمل مؤلفنا ، فانه ينبغى ألا يعول عليها ، هذا الى أن من المحتمل أن تكون الميناء التى رسا بها الأسطول هى ميناء كولومبو وليست اربيو ٠

(٢) ان أسماء هذا القطر ، التى وردت ما ابار فى طبعة بال اللاتينية الأقدم ، ومو آبار فى الخلاصات ، هى مالابار فى نسخة راموسيو ، وذهب بعضهم الى أن الاسم الأول تصحيف ، ولكن العكس هو الحقيقة ، وذلك لأن الظروف تشير بغير لبس الى الجزء الجنوبى من ساحل كورماندل أنه المكان الذى بلغه الأسطول بعد مغادرته سيلان ، ومما يخرج الأمر عن كل شك ، ان ولاية مالابار ذكرت بعد ذلك فى موقعها الصحيح ٠ اذ أن « ما ابار » ، ومعناها جيزة أو معدية أو مخاضة أو معبر (انظر قاموسى مينسكى وريتشاردسون) ، — كانت تسمية أطلقها المسلمون ، على ما نسميه « التنفلى ما دورا » ، أو ربما اقاليم تانجور ، بسبب قربها ، فيما يبدو من سلسلة الركامات الرملية الشهيرة المعمورة بالماء ، والشعاب المرجانية المسماة قنطرة راما أو قنطرة آدم ،ولم تعد تستخدم الآن ، ولكنها موجودة فى أعمال جميع الجغرافيين والمؤرخين الشرقيين الذين عالجوا الكتابة عن هذا الجزء من بلاد الهند ٠

(٣) كان المظنون أن أمراء الهند ينتسبون الى الكشترى أى القبيلة العسكرية ، وينحدرون من واحد من اثنين من جنسين نابهين ، يسميان السوريا فانجسا أى جنس الشمس ، وشاندرا فانجسا أى جنس القمر ٠ ويبدو أن الملك المتحدث عنه هنا ينتمى الى الجنس الثانى ، وربما أمكن أن يفهم اسمه شاندرا باندى على أن معناه « عبد القمر أو خادمه » ٠ (وتكتبه النسخة اللاتينية الباريسية ساندرا ملك فار) ٠

(٤) والشطوط التى يجرى فيها صيد اللؤلؤ يبدو أنها تحتل ، الى حد كبير ، الساحل الواقع على جانبى الخليج الذى يفصل جزيرة سيلان عن القارة الهندية ، أو بعبارة أدق جانبى ذلك القسم من الخليج الذى يقع الى جانب من قنطرة آدم ٠ فأما من الجانب الشرقى فان الشطوط التى يتم فيها صيد اللؤلؤ بالأكثر تقع قرب جزيرة منار الصغيرة وعلى

الجانب الغربى أو القارى قرب خليج توتاكوزين · وربما أمكن الظن بأن هذا المكان الأخير أو مكانا آخر قربه كان يشهد ملاحظات مؤلفنا .

(٥) يقول كورديئر : « ان عمق الماء فوق الشطوط المختلفة كان يتفاوت من ثلاث قامات الى خمس عشرة قامة · ولكن خير مصائد اللؤلؤ يوجد حيث يكون العمق بين ست وثمان · انظر Description of Ceylon مج ٢ ص ٤٠١ · وتذكر ورقة وردت Asiatic Researches مج ٥ ص ٤٠١ ، ان العمق يتراوح بين ٥ الى ١٠ قامات وفي سولو يصاد محار اللؤلؤ من أماكن أعماقها من ٣ الى ٥ قامات فقط ·

(٦) يرجح أن امتياز صيد محار اللؤلؤ كان التزاما شأنه حتى اليوم ، لواحد أو أكثر من التجار المغامرين ·

(٧) يتألف طاقم البخارة من ثلاثة وعشرين شخصا · عشرة منهم غواصون · « وقد زود كل قارب بخمسة أحجار للغوص ، وخمس سلال شبكية » · انظر Description of Ceylon ان هؤلاء الهنود المتعودين على الغوص منذ بواكير نعومة اظافرهم ، يهبطون بلا أدنى خوف الى قاع البحر على عمق يتراوح بين ٥ ـ ١٠ قامات بحثا عن الكنوز · وترتبط الشبكة وحجر الغوص بالمزورق بواسطة حبلين · فيغطس الغواص في الماء وقد وضع أصابع قدمه اليمنى على الحبل الشعري لحجر الغوص وأصابع قدمه اليسرى على الشبكة ، ثم يمسك الحبلين بيد واحدة ويسد منخريه بيده الأخرى · فاذا وصل الى القاع علق الحبل حول عنقه ، وجمع فيها محار اللؤلؤ بأسرع ما يمكنه أثناء المدة التى يجد فيها نفسه قادرا على المكث تحت الماء ، وهى مدة تقارب فى العادة دقيقتين · وعندئذ يستعيد وضعه الأول ، واذ يعطى اشارة بجذب الحبل ، فانه يرفع على التو الى القارب » · ويقول : « عندما يخرج الغطاسون الخمسة الأول من البحر ويتنفسون ، ينزل الخمسة الآخرون بنفس الأحجار · ويخرج كل منهم حوالى مائة محارة فى شبكته ، واذا هو لم تفاجئه حادثة فربما أمكنه القيام بخمسين رحلة قبل ظهر يوم واحد » · انظر (Asiat. Res.) (مج ٥ ص ٤٠١) ومع هذا فان بيان هذه العمليات ، على ما أورده المستر كورديئر أكثر تفصيلا ، ولكن ما أوردناه كاف للدلالة على صدق مؤلفنا فيما رواه ·

(٨) عرف عن أحد الزوارق انه أحضر الى البر ، فى يوم واحد ، ثلاثة وثلاثين الف محارة ، وفى يوم آخر مالا يزيد عن ثلاثمائة » · « وحدث فى كثير من مصائد اللؤلؤ أن اجتلب الغواصون الى الشواطىء ما يزيد على مليونى محارة فى يوم واحد » · ـ انظر : Description of Ceylon ص ٥٧ ·

(٩) نجد في خريطة لشبه جزيرة الهند ، أوردها فالنتين في مجلده الخامس ، مكانا يسمى ورالا أوفيداله ، يقع على الطرف الشمالي لخليج توتاكورين ، كما يقع بصفة مباشرة داخل جزيرة راميسيرام . وربما كانت هذه هي بيتالا الواردة في نسخة راموسيو ، التي لم يرد ذكرها في اية ترجمة أخرى للكتاب .

(١٠) ان ما يشيع بين الغواصين من خرافات يجعل عمل سحرة القرش دورا ضروريا في مؤسسة مصايد اللؤلؤ . وينتسب هؤلاء الدجالون جميعا الى عائلة واحدة ، وليس لأي شخص لا يكون منتسبا اليها ، الحق في التطلع الى تلك الوظيفة ويثق الأهالي بقوة في سلطانهم على تلك الوحوش البحرية ، كما أنهم يأبون النزول الى قعر البحر اذا لم يعلموا أن أحد هؤلاء السحرة كان موجودا على ظهر الأسطول . ويستخدم منهم إثنان على الدوام . يخرج أحدهما بانتظام في زورق الربان الريس ، بينما يقوم الآخر بمراسم معينة على الشاطىء . « ويسمى ساحر القرش كادال كاتي » بلغة الملابار ، وفي الهندوستانية « هيباندا » وكل منهما معناها « مقيد القرش » . (انظر : Desc. of Ccy. مج ٢ ص ٥٦) .

(١١) لا شك أن هذه الخرافة ، من تلك الجهة ، موائمة تماما لمصلحة الحكومة ، لأنها تمنع بواسطة رعبهم من الغوص بغير وقاية التعازيم ، اية محاولة لنهب شطوط المحار . (ص ٥٣) وربما اخترعت تلك الخرافة أو شجعت من وجهة النظر هذه .

(١٢) أصاب مؤلفنا كبد الحقيقة فيما يتعلق بطول مدة الصيد وأنه في العادة ثلاثون يوما ، وان تجاوز القوم هذه المدة في بعض الأحيان اذا حدثت فيها انقطاعات ، على أنه ذكر البداية متأخرة شهرا على الأقل عما جرت عليه عادة الأهالي . فان صح ما يظن بعضهم ، من أن هناك تغييرا بطيئا مضطردا في فصول السنة ، فلربما كانت الرياح الموسمية فيما سلف من الزمان تغير اتجاهها في موعد متأخر قليلا عما تفعله في الوقت الحاضر . أو لعله حدث في عام ١٢٩٢ ، شيء خاص في الجو أخر بداية المصايد وساعد على مد أجلها . على أنه من المرجح جدا أن مؤلفنا كتب في مذكراته أبريل ومايو عن خطأ بدلا من مارس وأبريل .

(١٣) بدلا من أن تأخذ الحكومات العصرية عي سبيل حق « الالتزام » نسبة من الناتج ، الأمر الأكثر انطواء على العدل ، وان كان أسلوبا غير مريح تماما ، ــ جرت عادتها ببيع امتياز الموسم لأي شخص مسئول يدفع أغلى ثمن ، أما العاملون في المصايد من الغطاسين وغيرهم من العملاء فيتلقون أجورهم عينا .

(١٤) لم يظهر من هذا القول أى مكان هذا الذى يبعد ثلاثمائة ميل ، والذى اعتادت السفن الانسحاب اليه عند مغادرتها مصايد هذا الساحل . وطبقا لرواية كورديئر : « فان الزوارق ، بما حملت من بحارة وغواصين ، تجىء من منار وجافنا وراميسيرام وناجورة وتيوتاكورين وترافانكور وكالكيرى ومن اجزاء أخرى من ساحل كوروماندل » ، ولكن ورد فى Asiatic Researches ما نصه : « ان الدونى (أى القوارب Donies) المستخدمة فى المصايد لا تجىء جميعا من سيلان ، فان كثيرا منها يفد من سواحل كوروماندل ومالابار » . (مج ٥ ص ٤٠٠) وربما جاز لنا أن نلاحظ هنا أن الفصول فى شاطىء مالابار عكس ما هو موجود فى كجهة الشرقية من شبه الجزيرة الهندية .

(١٥) حدث فى بعض الفترات أن طالب الملوك بأن تعد جميع اللآلىء التى تتجاوز حجما معلوما ملكا خاصا للملك ، يحتفظ بها لاستعماله الخاص .

(١٦) يقول سونيراه : « وفى الأحيان تكون ثيابهم أبسط من هذا أيضا ، اذ لا يندر أن يشاهد المرء هنودا كل ما عليهم من ثياب سوى قطعة من قماش تستر الأجزاء الطبيعية » . انظر Voyage aux Indes, etc. مج ١ ص ٢٩ .

« L'habito di queste genti à que vanno tutte nude, salvo que partano uh panno intorno alla parte inhoneste ».

انظر Itin. di Lodovico Barthema ورقة ١٥٨ ـ ٢ .

(١٧) تستخدم السبح أو المسابح ـ وفائدتها أن تعين الذاكرة على عد الصلوات أو الدعوات المكررة ـ لهذا الغرض عند اتباع براهما ، وبوذا أى فو ومحمد (ص) وكذا عند بعض المذاهب المسيحية . ويقال ان عدد حبات السبحة التى يحملها أهالى الهندوستان وكذلك عباد «فو» مائة حبة وثمانية) . ومن هذا يحتمل أن عدد ١٠٤ الذى ذكره مؤلفنا فى النص الوارد أعلاه ، غلط ، وذلك لأن طريقة تدوين الأرقام فى المخطوطات القديمة ، بالأعداد الرومانية معرضة للخطأ على نحو مفرط ، على أنى لابد لى أن اعترف فى الوقت نفسه ، أننى لم أتمكن من التحقق بدقة من العدد فى اقسام السبحة التى يستخدمها هندوكى أو مسلم .

(١٨) يتفق وصف الحلى التى يلبسها هذا الأمير مع ما نقرؤه فى رحلة لودوفيكو بارثيما ، الذى يقول :

« Non si potria stimare le gioie e perle che parta il re ». « Portava tante gioie nell'orrechie, e nelle mani, nelle braccha, ne piedi e nelle gambe, che era cosa mirabile a vedere ».

(الورقة ١٦١) • انظر أيضا : تاليف Anciennes Relations رينودوت •

(١٩) يبدو أن مؤلفنا لا يتحدث عن راجا منطقة محدودة مجاورة لساحل مصايد اللؤلؤ ، وانما هو يتحدث عن ملك شملت ممتلكاته الاقليم الداخلي الذى يعثر فيه على الماس وغيره من الأحجار الكريمة • والواقع ان ملك نارسنجا ، الذى كانت عاصمته في زمن تال هى بيجا نجار أو جولكوندا ، لم يكن يحكم فقط فى تلك المدة اقليمى تلنجا وكارناتا ، بل وساحل كوروماندل بأكمله ايضا ، حتى رأس كومارى أو قومورين جنوبا •

(٢٠) ان اسناد عادة حرق خدام أمراء الهندوك فضلا عن زوجاتهم ، مع اجسام اسيادهم ، كثيرة جدا • وانا لنجد أيضا فى فقرة فى رواية باربوزا ، توكيدا لممارستهم تلك التضحية التى كانت تجىء نتيجة لارتباط تطوعى سابق •

(٢١) ان الموانى المذكورة في النسخة اللاتينية هى كورموز وتشيزى ودور فار وسيرودان • ولا داعى للحديث فى هذا المكان عن كورموز فيرموز (أو أورموز) ، وكذا عن أدن أو عدن • وتشيزى هى كيس أو قيس وهى جزيرة بالخليج الفارسي ، كانت تجارة سيراف تنقل اليها • فأما ديوفار (ظفار) وبشر ، اللتــان هما فى طبعة بال دورنار وسير ، فيبدو انهما هما نفس اسـكير ودولفار في الفصلين ٤١ و ٤٢ ، ومن ثم يمكن الظن بأنهما مدينتا شهر وظفار على الساحل العربى ، شرقى عدن •

(٢٢) لا توجد ، حتى فى هذه الأيام ، اية سلالة من الخيل فى الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة الهندية ، ولذا فان جميع الأحصنة المستخدمة هناك أجنبية •

(٢٣) مهما يكن فى ذلك من غرابة خارقة للمألوف ، فان من الحقائق المؤكدة أن الخيل تطعم ، الفينة بعد الفينة على ساحل كورو ماندل ، باللحم ، وبخاصة لحم رءوس الضان المسلوق والمكور كرات ، وذلك بالاضافة الى الحمص (Dolichos, biflois. Lin.) وجذور العشب ، وتستخدم وسائل مماثلة بماكن أخـرى • ويقول باربوزا متحدثا عن ساحل السند :

« In questo paese, mangiano li peschi secchi et ancho li danno a mangiare alli cavalli e ad altri bestiami ».

ورقة ٢٩٥ •

(٢٤) نجد في بيانات عصرية متعددة سندا لا شك فيه لممارسة التضحية بالذات بين سـكان الهند ، في أعياد جاجارناتها وغيره من الأصنام ،

حيث يلقى ضحايا التعصب الدينى بأنفسهم امام عجلات ماكينات هائلة الضخامة والثقل ، لكى يسحقوا حتى الموت ٠

(٢٥) يزودنا كل بيان عن شعب الهندوك وعاداته بوصف للاحتفال بحرق الزوجات أنفسهن مع اجسام أزواجهن المتوفين وللفنون التى تستخدم لاثارة حماستهن ، وللمهانة والعزلة التى ستترتب على رفضهن الاذعان لهذه العادة المرعبة ٠ والمظنون أن ممارستها قلت كثيرا بتأثير المسلمين والأوربيين ، عما كانت فيما سلف من الزمان ٠

(٢٦) يقول بوكانان فى يوميات طريقه فى الكرناتى الجنوبى : « يعد سكان هذا الجزء من البلاد الثور الها حيا ، يمنحهم خبزهم ، كما انه يوجد بكل قرية ثور او ثوران ، تقدم العبادة اليهما كل اسبوع أو كل شهر » ٠ « على أن هذه الخرافة غير منتشرة فى الجانب الشمالى من نهر كافرى Cavery ٠ اذ يعد الثور هناك جديرا بالاحترام ، لأن « أزوارا » اختار واحدا من الثيران جوادا له » ٠ مج ٢ ص ١٧٤ ٠

(٢٧) ربما فهم من هذا البيان عن اخلاق شعب الجاوى ، أن مؤلفنا يتحدث عن قبيلة المنبوذين التى تسمى على الجملة بارية وتشندالا ، والتى تعرف كذلك بأسماء أخرى فى أجزاء مختلفة من الهند ٠

(٢٨) يقول جروس : « متى كانت الجلة طازجة ، صنعوا منها عجينة يلطخون بها بيوتهم وارصفتهم وجوانبها ، على سبيل التطهير » ص ١٨٥ — ويقول بارثيما :

« Il piano della casa è tatto imbrattato con sterso di vacche per honoroficentia ».

راموسيو ، ص ١٦١ ٠

(٢٩) يقول فراير : «كانت تسكن حول هذا الجبل طائفة من الناس، تبلغ احدى قدميها فى ضخامة قدم الفيل ، وهو أمر يتيح الساعة أن ذلك قضاء حكم عليهم به ، بأنهم سلالة سفاحى الرسول القديس توما المبارك وقتلته ، وقد شهدت واحدا منهم فى قلعة سان جورج » :

(New Acc. of East India and Persia ص ٤٣ ٠

(٣٠) تكثر زراعة السمسم (Sesamum indicum) المسمى تل Til باللغة الهندوستانية ، بمعظم ارجاء بلاد الهند ، من اجل الزيت الذى يحصل عليه من حبوبه ٠

« Nell paese di Calciut si trova gran quantità di zerzelino del quale ne fanno oglio perfetissimo ».

(انظر بارثيما ص ١٦٢) ٠

(٣١) كان تأنث سكان الهند وبخاصة سكان الولايات الجنوبية ، موضع ملاحظة الناس فى كل العصور ٠

(٣٢) نجد فى Oriental Repertory لد الريمبل مج ١ ص ٤٩ ، قائمة بأسماء الطوائف الهندوكية التى يحظر عليها تناول الطعام الحيوانى من أى نوع كان ، وأسماء من يسمح لهم بتناول أنواع معينة منها ٠ ويذكر بين الأخيرة « البرهمانيين المحاربين » ، الذين يجوز لهم تناول السمك ، ولحم الضأن والصيد ، ولكن ليس الطير ، وكذلك طائفة « الراجاوات » ، ومع ذلك فلا يسمح لأى واحد من أية طائفة بتناول لحم البقر (كما هو المعتقد بوجه عام) كما أن ذبح بقرة جريمة لا يعلوها سوى قتل برهمانى ٠

(٣٣) وعليهم طبقا لقواعد دينهم أن يصلوا ثلاث مرات فى اليوم ٠٠ وعليهم فى الحين نفسه التطهر بوضوئهم ، ، واذا أتيحت لهم الفرصة ، وجب عليهم ايثار مجرى ماء جار على الماء الساكن ، ولكن عليهم واجبا لا مفر منه هو الاغتسال قبل تناول الطعام » ٠ انظر Hindoo Sketches مج ١ ص ٢٢١ ٠

(٣٤) هناك لوحة توضح طريقة صب الماء هذه فى الفم ص ٨٧ من Account of Ceylon تأليف كنوكس ٠ فهو يقول ويكاد يكرر كلمات مؤلفنا : « وعندما يشربون لا يمسون الاناء بأفواههم ، ولكن يرفعونه عن بعد ويصبون ما فيه فى حلوقهم وهذه الممارسة منتشرة أيضا بأقطار أخرى فى الشرق » ٠ يقول كتاب Hist. of Sumatra : « وأثناء الشرب يمسكون الاناء على وجه العموم (وهو فى العادة بقطينة أو ترعة) على مسافة فوق الفم ويتلقون السائل وهو ينصب ، حيث ينزل رأسا الى المعدة بغير عملية بلع » ٠ الطبعة الثالثة ص ٦١ ٠

(٣٥) يذكر سونيرات (مج ١ ص ٢٥٧) حالة الأرز المغلى الذى يوضع فى راحتى الشحاذ الذى ليس لديه وعاء يتلقاه فيه ، ولكن ليس من الأمور الغريبة أيضا أن يصب السائل فى كفى مثل ذلك الرجل ، الذى يقربهما تماما من فمه لهذا الغرض ٠

(٣٦) قام لودوفيكو بارتيما بتدبيج وصف تفصيلى لهذه العملية القانونية ٠ يقول هاملتون : « ولديهم طريقة حسنة لاعتقال الناس من أجل الديون ، وأعنى بذلك ، أن يرسل القاضى انسانا من العدول يحمل عصا صغيرة ، ويكون [illegible] البراهمة ، فاذا وجد ذلك الشخص المدين ، رسم حوله بتلك العصا دائرة ، وكلفه ، باسم الملك والقاضى ، بعدم الحراك

منها ، حتى يرضى الدائن بالدفع أو الضمان ، ولا يلقى الذين عقوبة أقل من الموت ، ان هو خرق محبسه بالخروج من الدائرة». مج ١ ص ٣١٦ .

(٣٧) الكلمات الواردة في النص اللاتيني هي « Vini usus apud eos interdicus, est » ، كما انه ليس من المحتمل أن يتحدث مؤلفنا عن خمر العنب ، وبخاصة بوصفه شيئا محظورا ، وذلك في بلاد لا تكاد تعرفها · فما عناه في هذا المكان وعدة أماكن أخرى التي استخدم فيها كلمة « الخمر » ، هو اى شراب مسكر ، ولكن بوجه أخص كل شراب يصنع بالتخمير من عصارة النخل ، وبالتقطير من تلك العصارة ومعها الأرز · يقول كروفورد : « لا يباح لهندوكي من الطوائف الأربع بحكم دينه أن يذوق أي شراب مسكر ، فلا يشربه الا الغرباء والراقصون واللاعبون والتشندالا أو المنبوذون » انظر Sketches مج ١ ص ١٤٠ ·

(٣٨) مع أن بين الهندوك ملاحين ، وبخاصة في السفن التي تسير بين ساحل كوروماندل وأتشن ومضيق ملقا ، فان الناس بميلهم الطبيعي ، يكرهون البحر ، وكذلك لا يستطيع أن يعلوه أشخاص ينتمون الى أية طائفة محترمة بغير التعرض المتنجس من كل من ناحيتي الملامسة والطعام ، مهما تكن الاحتياطات التي تتخذ لتجنبه · ومع هذا فان مؤلفنا يعزو كرههم للشعوب الماخرة للبحار ، الى الرأى السائد بينهم بأنه ما من أحد سوى أرباب الحظوظ المحفوفة بالتهور والأخلاقيات المنحلة يكرس نفسه لمهنة ، يضحى فيها بالراحة البيتية وتتعرض فيها الحياة للمخاطر ، طلبا لمصلحة لا تقوم على أساس وطيد ·

(٣٩) لا شك ان الموسم المطير الموصوف هنا هو الذى يسود منطقة ساحل مالابــــار .

(٤٠) ان كلمة تشوباتش أو كوباتش (ولعلها أصابها) كثير من التحريف) ، ليست مما يجوز اعتباره من المصطلحات التنجيمية البربرية الخاصة الشائعة بجنوب الهند » · يوجد عند شعوب الناشترون واليوجون والتيدين واللاكينون والكارينون ، وكذا أيام الأسبوع — (كما يخبرنا سونيراه) — « ما هو خير وما هو شر » . « ولم أستطع قط أبدا معرفة واحد منها .وليس برام سوى بوجوني وكارينوني » . « والأيام الطيبة والسيئة والساعات المشئومة أو المسعودة والعودة من رحلة وشفاء مريض ، ونقد بعض المتاع بل الواقع ان كل شيء يتيح للناس مسادة يلجأون بها الى العرافين » . ص ص ٣٠٥ — ٣١٢ .

(٤١) ان التقسيم الكنسي للنهار المسمى بالتيرس أو الساعة الثالثة (Hora tertia) كان يبدأ في الساعة التاسعة صباحا ،

ويستمر حتى الثانية عشرة وكانت صلاة العصر Nono تبدا فى الثالثة بعد الظهر • فأما صلاة الضحى Mi-tierce (وهى Mezza-trrsa أو فى اللاتينية Media-tertia) ، فليست مثبتة فى القوائم النظامية لساعات الصلاة الكنسية ولكن يمكن الظن بأنها تقع فى موقع وسط بين الساعة التاسعة Tierce وبين الثانية عشرة Sext •

(٤٢) والكتب المتحدث عنها هنا هى تقاويم ، تسمى « بانجانجان » بلغة التامول •

(٤٣) كانت الطريقة الهندية القديمة لتقدير الارتفاع الزاوى للشمس وخط عرض مكان ، هى قياس طول الظل الذى يسقطه شاخص عمودي ذو ارتفاع محدد ، أو غياب ذلك الظل عندما تكون الشمس فى سمت الرأس • وعلى أساس هذا المبدأ ، يستطيع الانسان ، فى المناطق الواقعة بين المدارين وبخاصة قرب خط الاستواء ، أن يصدر حكما صائبا بدرجة مقبولة على الساعة من النهار ، وذلك بملاحظة ظله هو نفسه ، وهو ظل ، ينبغى أن يبين متى كان مساويا لارتفاع قامته ، أن الارتفاع الزاوى للشمس هو ٤٥ درجة ، فتكون الساعة تبعا لذلك هى التاسعة صباحا أو الثالثة بعد الظهر •

(٤٤) يقول باربوزا :

« Come passano dieci anni, vanno facendo il mediesimo come li pardri, di andar comprando monete piccole. et imparare il mestiere ».

(ورقة ٣١٠ ــ ١٢) •

(٤٥) ربما بدا فى هذا التأكيد شيء من المبالغة فى التعميم ، ولكن يبرره الى حد كبير مشاهدات الدكتور ف • بوكنان ، الذى يخبرنا انه لا الخيل ولا الحمير ولا الخنازير ولا الشياه ولا المعز ، تربى فى الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة ، أو على الاقل ان عددها ضئيل تماما لا يعتد به ، وأن الأهالى الأصليين ليس لديهم دواجن ، ولا حتى الدجاج العادي وكذلك الأوز والبط والديكة الرومية ، اذ انها ادخلها الأوربيون الى هناك » • مج ٢ ص ٣٨٣ •

(٤٦) والخفافيش هى Vaspertilio vampyrus فى تصنيف لنايوس عالم النبات السويدى وامتداد اجنحتها اربعة اقدام ، فأما الثانية وهى (نسور بونديتشيرى الملكية ، فان ظهورها وبطونها وأجنحتها وذيولها سوداء) ؟

انظر : Sonnerat مج ٢ ص ١٨٢ ••

(٤٧) ان هذا البيان عن الاناث اللائى يلحقن بخدمة المعابد ويسهمن ببيع أجسامهن فى البغاء بقصد جلب الايرادات الى تلك المؤسسات ، ربما أمكن أن يلقى التعزيز الكافى من أسناد كثيرة ·

(٤٨) ما يوصف هنا هو « الناموسية » أو الكلة التى تصنع من نوع من الشاش ، وتصمم بحيث تبعد فعليا البعوض وغيره من الحشرات الطيارة · والأشباث والبراغيث المذكورة فى نص راموسيو (ولكن ليس فى النص اللاتينى) لابد وانهما من نسج خيال بعض مترجمى مؤلفنا الأذكياء ·

(٤٩) تشيع بين الأهالى فى بنارس ومدن أخرى قديمة ، تضيق فيها الشوارع الرئيسية ، وتتحدد فيها حركة الهواء ، أثناء الجو الحار عادة اخراج فرشهم الى خارج البيوت ، والنوم مع عائلاتهم فى الشوارع العامة ·

(٥٠) يبدو من هذه الفقرة أن مؤلفنا اعتبر مملكة المعبر ، انها تمتد من الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة ، بامتداد ساحل كوروماندل . بقدر مدى انتشار لغة التامول ، التى تمتد قليلا شمال مدينة مدراس : وهى منطقة يسميها الجغرافيون الهندوك درافيدا ديزا · فان صح هذا التمييز ، فربما أشار الى منطقة مارافار الصغيرة او ماراوار قرب الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة .

(٥١) المكان المتحدث عنه هنا ، هو المدينة الصغيرة سان تومية ، التى تقع جنوب مدراس ببضعة أميال ، حيث تشاهد ، على جبل ـ كما يسمونه ـ أو قل صخرة مرتفعة (وهى تسترعى الأنظار أكثر لاختلافها عن الاقليم المجاور المسطح فى جملته) ، كنيسة مسيحية قديمة · وكانت فى قديم الزمان مدينة لها بعض الشأن ، ويسميها الأهالى ماليابور ، أو ربما مايلا بور بتعبير أصح · ويسميها العرب بيت توما أى كنيسة توماس ·

(٥٢) لو سلمنا بصحة قراءة هذه الفقرة فى نص راموسيو ، وجب أن يلاحظ ان اسم أنانياس ، ليس له فى العبرانية ولا الغربية نفس المعنى المعطى له هنا ، ولكن الشاهد الباطنى يؤيد قراءة أخرى بالغة الاختلاف ، تقدمها لاتينية طبعة بال ، وقد ورد فيها ما يلى :

Incolae regionis illius dicunt Apostolum probbetam magnum fuisse, vocantque eum Avarijam, hoc est sanctum virum ».

وهنا يذكر أن الأهالى الهنود ـ وليس المسلمون ـ هم الذين أطلقوا على القديس توما اسم « الشخصية المقدسة » ، ونجد فى كتاباتهم أن كلمة « أفيار » هى لقب فيلسوف تاموالى شهير ·

(٥٣) يلاحظ هذا الحج كل من كتب في موضوع مسيحيي شاطيء مالابار أو القديس توما ٠

(٥٤) الشائع أن الجانب الشرقي من شبه الجزيرة كان يحكمه تلك الفترة ملوك تارسنجيا ، التي كانت فيجا ياناجارا قصبة لها ، أو بتعبير اللهجة العامية الحوشية بيجانا جار ، بيد أننا نعلم من أبحاث الدكتور ف٠ بوكانان أن المدينة الشهيرة المسماة بهذا الاسم لم تؤسس حتى عام ١٣٣٥ـ١٣٣٦ ، وان الجزء الجنوبي من الساحل (الذي يسميه الجغرافيون الهنود درافادا) ، كان خاضعا لأمراء ، مقر حكمهم ووراجولا (ولوانكول لدى المسلمين وورنجول في خرائطنا) ، وهي المكان الرئيسي في أوتلنجانا ٠ وكان اسم الملك الذي حكم في المدة من ١٢٦٨ الى ١٣٢٢ ، التي تضم السنة المذكورة في النص ، هو براتابا رودرا ، ومما يستحق الملاحظة ، أنه حدث في ١٣٠٩ ، أي بعد حوالي ستة عشر عاما بعد زيارة مؤلفنا لهذا الجزء من الهند ، ان غزت جيوش علاء الدين ، امبراطور دلهي المسلم ، مدينة تلنجانا ، واضطرت راجا وورانجولا أن يصبح تابعا له ، ومع هذا فربما كان كل ما حدث هو أن هذا الأمير المتحدث عنه هنا ، لم يكن الا راجا ، حكم الاقليم تحت هيمنة مولى أعلى ٠

(٥٥) يرجح أنه ينبغي لنا بدلا من غروت أن نقرأ فانام (Fanam) وهو العملة المتداولة بهذا المكان ، وتقدر قيمتها ببنسين ونصف البنس ٠ وذلك يجعل الضريبة السنوية شلنين ونصف ٠ وفي سومطرة يقدر انتاج شجرة جوز الهند بوجه العموم بدولار اسباني أي ما يقارب خمسة شلنات ٠

(٥٦) يكتب باولينو موضحا التحليل الهجائي والتاريخي لأصل أسماء الأماكن في هذا الجزء من شبه الجزيرة الهندية قائلا :

« Mailapuri o Mailaparum, città de paroni; Meliapur ost. Tomè degli Europaei ».

فلو سلمنا بصحة هذا التفسير ، فربما جاز لنا التساؤل ، إذا كانت الأسطورة التي فيها الطاووس ظاهرة شديدة البروز ، لم يقترحها اسم المكان نفسه ٠ علما بأن الطائر نفسه موفور الكثرة ببلاد الهند ٠

(٥٧) لا شك أن السكان الأصليين بالجزء الجنوبي من شبه الجزيرة اليوم ، لون بشرتهم مفرط القتامة على وجه العموم ، ولذا فالمراجح أن مؤلفنا أخطأ في ظنه أن هذا أي شيء صناعي في درجة سوادهم ٠ فأما عادة دلك أجسام أبنائهم بالزيت فربما الغرض منها أشياء أخرى ٠ والواقع أنه جرت العادة في معظم أجزاء الهند أن الناس من جميع الأعمار كثيرا ما يمسحون أجسامهم بالزيت ٠

(٥٨) الأشيع فى الأوثان الهندوكية أنها اما ان تكون من النحاس ، أو متى كانت كبيرة من نوع من الجرانيت الأسود ، ولكن مهما تكن المادة المصنوع منها الوثن ، فانها جميعا تكتسب لونا سناجيا من دخان المصابيح او البخور المحترق داخـــل المعابد ، وكذلك من عادة مسحها بالزيت . كانت فكرة رسم الشيطان أبيض عند افراد الجنس البشرى الذين هم فى بعد ذاتهم من السود ، شائعة جدا ، وربما أمكن تبريرها بأمثلة معينة من اسورات (Asûrs) أى أبالسة الميثولوجيا الهندوكية التى يتم تصويرها على هذا اللون ، على أنه ليس بتلك الميثولوجيا شخصية تتقابل ووصف الشيطان أو ابليس . ونقرأ فى القصص الرومانسية الفارســية عن ديف سيفيد أى الشيطان الأبيض ، وهو خصم شهير لرستم .

● هوامش الفصل الحادى والعشرين

(١) المملكة التى تسمى هنا مورفيلى أو مونصول (ولعل ذلك بدلا من موصول)،وهى فى طبعة بال مورفيلى،وفى مخطوطى المتحف البريطانى ومتحف برلين مونفيلى ، كما انها فى النسخة اللاتينية الباريسية مولفولى ، بدلا من موصولى) ولكنها محذوفة حذفا تاما فى الخلاصات ، ليست فى الواقع سوى موتشلى باتان ، أو كما تسمى على نحو أشيع ماصولى باتام وهو اسم مدينة قصبية ، حلت – بغلطة ليست نادرة فى الكتاب – محل اسم الاقليم – يقول رنل : « ان هذه مدينة وميناء قرب مصب نهر الكستنا ، ويبدو انها تقع داخل المنطقة التى اسماها بطليموس الجغرافى ميسوليا » . انظر : (Memoir ١٧٩٣ ، ص ٢١٠) وهى تتبع ما كان يسمى في احدى الفترات مملكة جولكوندا ، التى كان اسمها فى زمن اشد قدما تلنجانا ، أما فيما يتعلق بالمعبر فان مؤلفنا غير متناقض مع نفسه (مهما يكن الظن فى صحة جغرافيته) ، وذلك لأنه انبأنا بالفعل انها تضم المكان الذى دفن فيه القديس توما ، غير بعيد من مدينة مدراس العصرية . وواضح أنه كان يعدها تمتد جهة الشمال بامتداد المنطقة التى يتكلم فيها الناس بلغة التامول ، أى بعبارة أخرى الى الخط الذى يبدأ عنده نهر التلنجا (قرب نهر بنا) ، الذى ستجد انه يبعد اقل قليلا من خمسمائة ميل من رأس قومورين . والحق انه ليبدو انه محتمل جدا أن اطلاق اسم المعبر على هذا الجزء من ساحل كروماندل ، ربما كان مرد ظهور عادة الخلط عند الأوربيين (الذين كانوا يخلطون بين الكلمتين) من حيث تسمية سكان الجانب الشرقى لشبه الجزيرة باسم خاطىء هو الملاباريين .

(٢) تشتهر جولكوندا ، التى ميناؤها الرئيسية هى ماسوليباتام ، بانتاج الماس .

(٣) يقول تافارنييه متحدثا عن مناجم سميهولبور ، الواقعة فى جزء آخر من الاقليم ، : « اليكم الطريقة التى يبحث بها عن الماس فى هذا النهر . فبعد أن تنتهى الأمطار العظيمة ، وهى تهطل عادة فى شهر ديسمبر ، ينتظر الناس أيضا شهر يناير بأسره ، حتى تصفو مياه النهر ؛ لأنه فى ذلك الوقت توجد أماكن كثيرة ، لا يتجاوز العمق فيها قدمين .. فيبدأ الناس فى البحث عن النهر بمدينة سومبلور ، ويتجهون دائما صاعدين حتى الجبال التى ينبع منها النهر » . (انظر : Voy. des Indes) مج ٢ ص ٣٤٦ ، وعلم المستر توماس مور الذى زار هذا المكان فى ١٧٦٦

من شخص يقيم بنفس المكان بأن « عمله هو البحث فى النهر بعد الأمطار ، عن الثرى الأحمر المجلوب من الجبال ، وهو الثرى الذى كان الماس يعثر عليه فيه على الدوام » انظر Asiat. Miscellany ٢ ص ٥٨ .

(٤) هذه الرواية عن طريقة الحصول على الجواهر النفيسة من واد لا سبيل الى ولوجه تتطابق والقصة المروية فى احدى مغامرات السندباد البحرى بكتاب الف ليلة وليلة . ومن المحتمل أن قصة وادى الماس كانت دارجة بالهند وأصقاع أخرى من عالم الشرق ، كما أن شدة قدمها تثبت بطريقة مرضية من الاقتباس التالى من ابيفانيوس :

« de duodecim lapidibus rationali sacredotis infixis ».

وهو عمل كتب فى القرن الرابع للحقبة المسيحية :

« Ibn igitur in eremo magnae seythiae penitiori vallis est quae hinc atque inde montibus lapidies veluti muris cincta ».

وهو يضيف التالى فى هامشة : « كان أبيفانيوس أسقفا لسلاميس ، وتوفى فى عام ٤٠٣ . ويتحدث عنه كثير من رجال الكنيسة الكتاب بعبارات ملؤها الاحترام الجم .

كما أن القديس جيروم يلقب الرسالة الصغيرة التى اقتبست منها الفقرة السابقة » :

« egregium volumen quod si legero volucris plenissimam scientiam consequeris.»

(٥) اشتهر ساحل كوروماندل فى جميع العصور بقيام أرق وأتقن صناعة للمنسوجات القطنية مما أطلق عليه الأوربيون اسم العبك أو البفتة ، كما تشتهر ماسوليباتام ، بصفة خاصة ، بالشيت (أو قماش البفتة) . هنا تقول نسخة باريس اللاتينية :

« Item, in ista contracta de Molifili fit melior vochosame et magis subtile quod sit in mundo. et magis corum, et videtur tela aranei ».

● هوامش الفصل الثاني والعشرين

(١) ليس بين الأماكن الواقعة على القارة الهندية التي لاحظها مؤلفنا ، ما هو أبعد كل البعد من أن تعرف هويته عن طريق تشابه في الصوت أو الحروف والهجاء ، من هذا الاسم الذي يدور حوله موضوع هذا الفصل ، كما أنه لا يبدو أنه زاره بنفسه فعلا . فان لاك او لوالة أولار ، وهي الصورة المتنوعة التي يكتب بها الاسم في نسخة راموسيو ، ولاهية (Lahi) في الخلاصات الايطالية المبكرة ، ولائيه في طبعة بال ، ولاتش في اللاتينية الأقدم ، يقال انها ولاية أو ناحية تقع الى الغرب من المنطقة التي دفن فيها القديس توما ، ومن ثم وجب أن تكون هي الجهة التي تقع فيها مدينة اركوت (أروكاتي) ، وكذلك المعابد الشهيرة ، او البادوجات في كونجيفرام (كانجيبورام) الشهير ، حيث توجد في الوقت الحاضر مؤسسة ضخمة للبراهمة . انظر : (بوكانان Journey from Madras, etc. مج ١ ص ١٢) . وسواء أوجدت أم لم توجد ، أية رواية تاريخية ، أو سجل يسجل أن هذه هي النقطة التي انتشرت منها القبيلة المقدسة الى كل ارجاء شبه الجزيرة ، فأمر نترك البت فيه لغيرنا ، ولكننا نعثر في الخريطة المرافقة لكتاب دانفيل Antiquité de l'Inde على كلمة براتشمية (استنادا الى بطليموس) موضوعة قرب اركاتيس ، وفي موقع كونجيفرام ، التي تقع غربا على بعد يقارب الأربعين ميلا ، بميل الى الغرب من مدينة سانت توميه . نلتقي ايضا في نص هذا الجغرافي العليم بالفقرة التالية : « أن المجوس البراهمة ومدينتهم المسماة براشمية بين آركات ، والبحر في كتاب بطليموس ، تركز أبصارنا على مدينة كانجيه فارام ، تقع تقريبا بدرجة متساوية وعلى ما يقارب عشرة فراسخ من كل من اركات والبحر على السواء ، وفيها يحتفظ البراهمة بواحدة من اشهر مدارس مذهبهم » . ص ١٢٩ .

(٢) ربما بدت حرف كهذه غير متمشية مع الصفة المقدسة المظنون أن هذه الطائفة تتصف بها ، بيد أن لدينا أسنادا كثيرة تظهر لا أن البراهمة ليسوا مقتصرين بالضرورة فقط على وظائف الكهانة ، بل أن كثيرين منهم يعملون في أشغال دنيوية بحتة .

(٣) ربما لم يمل كثيرون الى الاقرار بهذه الصفة الطيبة لهيئة البراهمة ، ومع هذا فليس مؤلفنا هو الوحيد في رأيه في فضائلهم . يقول مور : « أن البراهمة ، على وجه الجملة ، فيما أظن أشد من لقيت

من اجناس النـــاس تمسكا بالأخلاق وافضلهم سلوكا » • انظر :
Hindu Pan theon ص ٣٥٩ • ويلاحظ المؤلف المتحرر لكتاب الآيين الأكبرى : « وموجز القول أن الهندوك متدينون ، ذوو بشاشة ولطف ، مع التأدب مع الغرباء ، مرحون ، مولعون بالمعرفة ، مغرمون بانزال ألوان التقشف بأنفسهم ، محبون للعدالة ، ميالون الى العزلة ذوو اقتدار فى العمل ، شاكرون للجميل ، معجبون بالصدق ، أصحاب أمانة ووفاء لا حد له فى كل معاملاتهم » • مج ٢ ص ٢) • ويضيف هذا الكاتب المسلم نفسه : « لابد أن نتذرع بالانصاف فنقرر أن من يكرسون منهم حيواتهم لعبادة الههم يفوقون رجال كل ديانة أخرى (وهو قليل الدراية بالمسيحيين) فى التقوى والقنوت » • ص ٨١ •

(٤) يقول باربوزا :

« Questi bramini, e cori parimente brancani (baniani), tolgano moglie all'usanza nostra, et ciascuno piglia una sola, et una volta solamente ».

(الورقة ٢٩٥ ــ ٢) •

ولم أتمكن من أن أكتشف ، فى كتاباتنا العصرية فى موضوع هيئة البراهمة ، ولا فى ترجمات السنن الهندوكية ، أى تأكيد مباشر بأن تعدد الزوجات محرم لديهم ، وأنه يجب على البرهمانى أن يكون زوجا لزوجة واحدة » ، وان كان من الأمور الضمنية الشائعة الراسخة فى الأذهان ، وبخاصة فى « نظم مينو » ، ان من اللياقة الامتناع عن التزوج ثانية ، متى توفيت الزوجة الأولى •

(٥) يبدو أن بعض هذا الوصف ينطبق على طبقة من النـــاس مشتغلة بالتجارة تماما ، وهناك أسباب كثيرة تدعو الى الاعتقاد بأن مؤلفنا لم يعالج فى هذا الفصل ، شأن البراهمة فقط ، بل وأيضا طبقة من التجار البانيانيين أو البانيانى Baniani حسب الكلمة الايطالية ، وهى كلمة اختلط الأمر فيها على مترجميه فظنوها خطأ نفس كلمة البراهمة •

(٦) يلاحظ المســتر ولكنز فى هامشـــة فى ترجمتــه للهيتوباديزا Hitopadesa « انه وان لم يقتصر البراهمة بأية حال على تناول غذاء نباتى بحت ، كما يظن الناس بصـــفة عامــــة ، فانهم ، شـــأن اليهود والمسلمين ، محرم عليهم تناول أنواع كثيرة من اللحم والسمك » (ص ٣١٨) . وبدهى ، انه لا بد أن هذا ينطبق بوجه أعم وأوسع على الطوائف الدنيـــا .

(٧) يقول كراوفورد : « ان « الزنار » أو الخيط المقدس يعلق حول الجسم من الكتف اليسرى » • انظر : Sketches مج ٢ ص ٤١ •

(٨) ان كانت هذه حقا مملكة منفصلة ، فلابد انها كانت مع ذلك ذات تبعية لملك تلنجانا ، الذى ورد ذكره فى هامشة سابقة ، والذى يبدو أن ممتلكاته ، بعد أن غزاها امبراطور دلهى الباتانى ، قد اندمجت فيما بعد فى ممتلكات ملك نارسنجا الهندوكى ، كما يسمونه عادة وهو الذى كانت عاصمته بيجانار أو فيجاناجارا ٠

(٩) عندما يشاهد هؤلاء الناس ظلهم ، متى اوشكوا ان يعقدوا صفقة أو يقوموا بأى عمل آخر،فانهم لا يقصدون الا مجرد معرفة الساعة من النهار ، باستخدام زاوية ارتفاع الشمس ، ليحكموا اذا كانت موائمة أم هى بخلاف ذلك ٠

(١٠) المقصود هنا من التركيب المسمى بالفوفل أو الكوثل ، المكون من ورق نبات الفوفل أى جوز الأريقة Areca Nut ، وجير الصدف المكلس ، الذى هو معروف جدا لدى العموم ، بحيث لا يحتاج الى مزيد من وصف .

(١١) اسم تنجوى هذا ، الذى هو فى خلاصة البندقية الباكرة كويجنى Cuigni ولكنه لا يبدو فى الترجمات لا شك أن المقصود به هو الفلاسفة الزهاد ، أو كما قد يسميهم اخرون المتسولين الدينيين ، الذين تسمى طبقة منهم باسم جوجى أو يوجى ، وطبقة أخرى باسم سانياس وكثيرا ما يسمون أيضا باسم « الفقراء » ، ولكنها تسمية خاطئة ، نظرا لأن تلك الكلمة ينبغى الا تطلق الا على المتسولين المسلمين .

(١٢) ونتيجة لحالة العرى المطلق هذه ، اسماهم القدماء : الزهاد الباطنية أو الجمنوزوفبستيين « Gymnosophists » ٠ ويلاحظ كراوفورد أن « كالانوس ، الذى أحرق نفسه بحضرة الاسكندر ، اسماه بعضهم بالبرهمانى ، ولكن من الواضح انه كان أحد أولئك المتبتلين الذين يجولون بأرجاء البلاد ٠ ويقال انه كان يسير عاريا ، أما البراهمة فانهم لا يسيرون عراة على الاطلاق ، ولا يرتكبون أى عمل من أعمال الاسراف ومجاوزة الحد » . (مج ١ ص ٢٤٧) .

(١٣) يوضع الثور موضع التمجيد عند السايفا Saivas بوجه خاص ، وهم الطائفة التى تعبد سيفا وبهوانى ، الذى يعد ذلك الحيوان لديهم مركبا أو محملا (اداة نقل) أى فاهانا أو مونتور ، ولكن الشىء الذى يرتدونه بصفة عامة اكثر ، ومعلقا فى أعناقهم ، ليس تمثال لنجاويونى ، الذى ربما حمل الحياء ورقة النفس مؤلفنا أو مترجميه على العزوف عن وصفها ٠ (انظر Asiat. Res. مج ٧ ص ٢٨١) ، ويقول باولينو :

« Lingam o fallo del dio Shiva, simbolo della virtù generativa del sole. Alcuni lo portano al collo, alteri al bracico, altri, dipinto sulla fronte ».

(ص ۳۰۰) .

(١٤) تتميز جميع طوائف الهندوك المختلفة بعلامات خاصة تجعل على الجبهة والصدر . والأشيع كثيراً أن الرماد المستعمل فى التركيبة المستخدمة فى عمل هـذه العلامات أو رسمها ، متخذ من جلة البقر ، أو من أية مادة تحرق على الموقد القربانى وهو ما يخلطونه أو ينوعونه باضافةتراب خشب الصندل فضلا عن عناصر أخرى يقول مور: «بالاضافة الى الجبهة ، يلاحظ أن الهندوك يضمخون أذرعتهم وصدورهم أيضا ، وكذا نحورهم أحيانا . فمسحوق الصندل ، والكركم ، والشونا أو الجير ، ورماد نار قربان ، وجـلة البقر ، وغيرها من المواد المقدسة القابلة للاشتعال ، مع جعلها دبقة بالمادة اللزجة فى ماء الأرز ، أو دلكها جافة فى بعض الأحيان ، هى العناصر والممارسات التى تجرى فى هـذه المناسبة . فالشائع أن تشاهد مرسومة على الأذرع والصدور عدة خطوط ذات لون رمادى فاتح أو صباغ أصفر ، كما انى أفهم ان طائفتى اليوجى والسانياس وغيرهما من الأشخاص الأتقياء ، كثيرا ما يحملون معهم ربطة صغيرة من هـذه الأصباغ المقدسة ، يضمخون بهم من يقدمون اليهم الاحترام فى مقابل اهتمامهم بهم . » انظر Hindu Pantheon ص ٤٠٩ .

(١٥) ان موزة الجنة (Musa Paradisiaca عند لينابوس ، التى كانت تسمى فيما سلف Pomum paradisiacum أى تفاحة الفردوس) تسترعى الأنظار بحجم ورقتها ، التى جرت عادة الأهالى باتخاذ جزء منها يضعون فيه أرزهم المسلوق .

(١٦) ويكثر من يسكنون على بعد من البحر من ارتياد الشواطىء الرملية للانهار الكبرى لنفس تلك الغاية وفى أعداد غفيرة فى وقت واحد ، بصورة تجعل الأمر مسترعيا للانظار .

(١٧) يذكر كتاب عديدون براهين قوية ، تؤيد ما يريم على حياتهم بعامة من تقشف ، بقدر ما تؤيد عفتهم بوجه خاص ، أو درجة كبح هؤلاء اليوجيين او السانياسيين للمشاعر الحسية ، (انظر ثيبينوه Voy des Indes مج ٣ ف ٦ ، وانظر جروسى فى : Voy to the East Indies مج ١ ص ١٩٦) . أما فيما يتعلق بطول عمرهم فمن العسير الوصول الى ما يؤيد ذلك ، ولكنه شىء له دلالة ضمنية قوية فى الآيين الأكبرى ، حيث ورد فيه فى وصف الـ « جهار أشيروم Char asherum » ، أى

الدرجات الهندوكية الاربع ، وقساوات نظام الزهادة ، المقصورة عادة على المرحلة الرابعة أى الأخيرة : « ان بعضهم يقوم بهذه التقشفات كلها في الدرجتين الأولى والثانية ، وبعضهم يسمح بخمسة وعشرين عاما لكل حالة من هذه الحـالات » . — مج ج ٢ صص ٢٢٢ــ٢٢٥ . (وهنـا تضيف النسخة اللاتينية من ماركو بولو :

« Dormiunt nudi in terra, nullum babentes vestitum infra nec supra, et hoc est mirable quomodo sani evadunt, et toto anno jejunant, nec comedunt aliquid aliud nec bibunt quam panem et equam, et habent suos regulares qui custodiunt idola. Et quando volunt probare quod isti sunt boni et honesti ».

● هوامش الفصل الثالث والعشرين

(١) من الأمور المألوفة الظن أن الجبل الشاهق والعجيب القائم في سيلان ، والمعروف باسم قمة آدم ، اكتسب تلك التسمية من الملاحين البرتغاليين أو غيرهم من الأوربيين ، بيد أن لدينا من الشواهد ما لا يتطرق اليه شك ، بأنه مهما تكن تسميته عند السنجاليين ، أو جيرانهم الهندوك ، فان المسلمين ، ظلوا منذ أمد قديم جدا يربطون بينه وبين أسطورة النبي آدم واسمه ويقرر سيل : « يقول المسلمون ، انهما لما أخرجا من الجنة ، سقط آدم على جزيرة سيلان أو سرنديب ، وسقطت حواء قرب جدة ببلاد العرب » . القرآن ، ص ٢٥ هامشية .

(٢) المقصود من الشخصية المقدسة الموصوفة هنا هو بوذا مؤسس نظام السنجاليين singalese الديني ، الذي يشتهر فيما يحمل من عدد كبير من الأسماء ، التي اطلقت عليها اخذا من صفاته المظنونة ، باسم ساكا أو ساكيا موني ، ومعناها « الحكيم الأريب » . وأضاف مؤلفنا الى هذا الاسم كلمة باركهان : بدلا من بوركهان ، ومعناها « الاله » بلغة التتار المغوليين ، ويبدو أنه لا مبرر للشك في أن الامبراطور قبلاي ورجال بلاطه ، الذين كانوا هم وشعب سيلان على حد سواء ، يعترفون بألوهية بوذا ، كانوا يدعونه باسم « ساكاموني بوركهان » الذي صحف هنا الى سوجومون باركهان . ولدينا من عبادته في هذه الجزيرة شواهد كافية ، يقول نوكس بعد الحديث عن خالق السموات والأرض : « هناك رب عظيم آخر ، يسمونه بودو . وهو الذي يرجع اليه خلاص النفوس : وهو فيما يعتقدون جاء مرة الى الأرض .. وهو قد رحل عن الأرض من قمة أعلى جبل في الجزيرة وهو المسمى بيكو آدم : وبها يوجد أثر يشبه القديم يقولون انه أثر قدمه » . (انظر Relation of Ceylon ص ٧٢) . ويقول كوردنر : « يشيع الاعتقاد بانه يوجد على قمته (وهي قمة آدم) ، حجر مقعور ، يسمى بأثر قدم بوذا ، ويشيع من بعض النواحي أثر الأقدام الموجودة بمملكتي آفا وسيام . (انظر Description of ceylon مج ١ ص ٨) ومن هنا يتجلى أن ما يعتقده المسلمون حول آدم ، ينسبه الهنود الى بوذا .

(٣) تقول بعض الروايات ، وخاصة منها ما هو جدير بكل اعتبار ، ان مسقط رأسه هو جايا ، بولاية بلهار ، أو كشمير فيما يقول آخرون ،

ولكن لا تعوزنا الأسناد (ان أمكن تسميتها بهذا الاسم) ، التى تقول : انه من اهالى سيلان . يقول المسيو لالوبير ، متحدثا عن معبودات سيام، وهم دون مراء البوذا أو ساكياموني عند أجزاء أخرى من الشرق : « ان أبا سوموثوسودوم » ، كان ، حسبما يروى ذلك الكتاب نفسه ــ بالى Bali ملكا على تيف لانكا ، أعنى أنه كان ملكا على سيلان الشهيرة » . (انظر Du. Roy. de Siam مج ١ ص ٥٢٥) . ويقول لاكروز : « وفيما يتعلق بشخص زاكا Xaca الذى سمي صنمه باسم فوى Foe بعد تأليهه، فانه من اهالى الهند ،كما انه حسب الشعور الأشد رسوخا، مولود بجزيرة سيلان » . (انظر : Hist. du Christ. des Indes ص ٥٠٥) .

(٤) هناك درجة من الصحة الدقيقة فى هذا البيان حول محاولات الأب اغراء ابنه بالعزوف عن حياة الاعتزال التى كرس لها ذاته ، لن تكون دهشة القارىء لها قليلة عندما يطلع على فقرة فى كتاب « بيان تجسد بودهو Boodhu » ، الذى ترجمه عن اللغة البورمانية المستر ف . كارى والذى قدمه للعالم ، فى سيرامبهر بالبنغاهل ، المستر و. وارد بارسالية المبشرين العمدانيين فى كتابه :
« View of the Hist. Literature and Relig. of the Hindoose ».

« فأما الملك فانه بعد التأمل ، وغيره قال : « يا بنى سأهبك فيالة الفيلة وراكبة العجلات ، والخيالة ، والمشاة المصففين ، مع الخيول البهيجة وسأهبك كذلك العذارى المزدانات بكل أنواع الحلى ، فاتنا منهن بالذرارى ، تصبح مليكنا المطاع . بفتنتهن العذراوات ــ المجيدات لفنون الرقص والشدو ، والمتقنات للمهارات الأربع . فماذا تفعل هنا فى هذه البرية؟»ولكن يظهر اعراضه عن الملكة ، اجابه موهاسوتوو (مهاساتوا : القديس الكبير) ، « ياسيدى ! لم تغرينى بثروة زائلة ، وجمال فان (ميت) ، وريعان شباب ؟ أيها الملك ! ما الحب ؟ وما النظرة الممتعة ، والابتهاج الوقتى ، والقلق فى نشدان الثروة والابناء والبنات والزوجات ، لدى أنا الذى أطلق سراحى من أسار الخطيئة ؟ انى لأعلم أن الموت لن ينسانى واذن فما جدوى المسرات والثروات ؟ .. الا فلتعد فلتعد أيها الملك ! .. فلا رغبة لى فى المملكة » . (صص ٤٠٧ ــ ٩) يقول الآيين الأكبرى : « الذى حدث فعلا وبنفس الطريقة ، وبالضبط فى نفس الميعاد الذى تنبأ به المنجمون ، انه حول وجهة عقله عن شئون العالم واختار حياة عزلة » . « ومات فى سن العشرين بعد المائة » . مج ٢ ص ١٥٧ .

(٥) لاحظ كثير من الرحالة هذه الحجات .. يقول المستر دانكان فى ملاحظاته التاريخية عند ساحل مالابار ، متحدثا عن محادثة الملك

لتلك البلاد (أثناء حياة النبى محمد) نقلا عن رواية مؤرخ من الأهالى : « انها تمت على يد جماعة من الدراويش من بلاد العـرب ، رسـوا فى كرانجلور من مدن جراناجاذور (كانت آنذاك مقر حكومة مالابار) أثناء رحلتهم لزيارة أثر قدم آدم الموجود على ذلك الجبل فى سيلان ، الذى يعرفه البحارة باسم قمـة آدم » • تحت اسم « سريبود » أى القـيم المقدسة ـ بالمثل باجـــلال الهندوك ولياذهم به » انظر : Asiat. Res. مج ٥ ، ص ٩ •

(٦) لم يرد أن هذه السفارة العجيبة ذهبت الى الهند بحرا • ومن ثم فان طريقها اما انه كان من خلال ولاية يون نان الى البنغال ، أو عن طريق التبت الى بلاد الهند وشبه الجزيرة • فقد بلغ من عظم اتساع ممتلكات الأسرة المغولية التترية ، فى ذلك الزمان ، أنه ، حتى فى التسيير العادى للشئون السياسية ، اعتادت شعوبهم القيام برحلات بعيدة الشقة طويلة الآماد • أما فيما يتعلق بالهدف من البعثة فانها لا تعدم مثيلات لها فى تواريخ الأقطار الأخرى •

(٧) هذا الاحتفال المهيب بادخال مخالفات (مقدسة) الى قصر الامبراطور ، ليس أيضا مجرد ظرف جديد فى الحوليات الصينية • يقول دوهالد متحدثا عن الأمير السابع عشر من أسرة تانج : « وفى السنة الرابعة عشرة من حكمه أمر فنقلت بأبهة عظيمة الى قصره عظمة من عظام الوثن فوثى » مج ١ ص ٤٥٦ •

(١) ان تعني كلمة كائل أو كويل في لغة التامول هو المعبد ، وهي تشكل المقطع الأخير في أسماء كثيرة من الأماكن التي تقع في الجزء الأخير في أسماء كثيرة من شبه الجزيرة . وكانت أيضا ، على أعم وجه : اسما لمدينة ضخمة وميناء للتجارة ، اتقع فيما نسميه الآن اقليم تينيفللي ، وهي لا تبعد أميالا كثيرة عن توتاكورين . ويمكن مراجعة موقعها في الخريطة المثبتة في كتاب فالنتين Beschryving van Choromandel (ص ٥) ، حيث تدل على أهميتها القديمة ، ولكن نظرا لاختفائها من الخرائط الحديثة ، فانه يصبح لنا أن نستنتج أن كوئل باتنام لم يعد لها وجود كمدينة ، ومع هذا فانه يوجد في مجموعة دار لبل « لخرائط الموانى » ، خريطة كانت (نقلا عن فان كويلن) لا موقع كايل باتنام فقط ، بل ويورتو كايل ، ومكان يسمى كايل القديمة .

(٢) يبدو ان ملك نارسنجا او تلنجانا وضع الولايات الجنوبية من ممتلكاته المترامية تحت الحكم المباشر لأخوته العديدين ، الذين كانوا يمارسون السلطان الكامل للملوك داخل ممالكهم . ويرجح أن اسم استيار تصحيف ، ولكن البقايا المحببة للحوليات الهندوكية ، التي وصلت الى يدنا ، لا تتيح الا اقل الفرص للتحقق من الهجاء الصحيح للكلمة . وسيتجلى ان هذا الجزء من البلاد ، انتزع في زمن لاحق من قبضة ملوك نارسنجا على يد ملوك كولا او كولام Koulamor Kolam على ساحل مالابار .

(٣) هنا نجد ورقة التامول (اليقطين الهندي) مسماة باسمها الفارسي الحقيقي وهو التنبول .

(٤) ليس من غير المألوف لدى هؤلاء الناس ، بالاضافة الى العناصر العادية ، ان يمزجوا في التركيبة (او التحويجة) حب الهال (الحبهان Cardamom) والعقول القابض Gutta gambir وعقاقير اخرى ذات نكهة عطرية وحريفة . غير اني على غير بينة ، من أن الكافور يمكن أن يستخدم اطلاقا على هذا النحو ، كما أن هذا غير محتمل بناء على خواص ذلك العقار . ومن ثم يمكن الظن بأنه جرى احلال اسم احد عناصر التركيبة محل اخر ، وينبغي أن يلاحظ أنه في لغة الملايو (التي كانت مألوفة

اكثر لدى تجار ساحل كورومандل) فى الأزمنة القديمة ، منها فى زمننا هذا) تطلق كلمة كابور Kapûr (وهى الكافور عند العرب) ، ليس فقط على الكافور Camphor ، بل وعلى الجير الحى ايضا (Calx viva) الذى هو عنصر جوهرى فى اعداد التنبول ٠

(٥) يصف باريوزا بتفصيل دقيق ظروف هذه الممارسة القانونية المبارزة ، حين يتكلم عن باتاكالا ، هى مكان على شاطىء مالابار المقابل ، قرب أونوره ٠

● هوامش الفصل الخامس والعشرين

(١) كانت كولام وهى كولان فى خرائطنا، مكانا عظيم الشهرة عندما زار البرتغاليون الهند لأول مرة ، وتلقوا المساعدة من امرائها على ملك قاليقوت ، أو الزامورين ، على ما كان يلقب • ويبدو أن اهميتها كموقع تجارى زالت فى الأعصر الحديثة وحلت محلها أنجنجو الواقعة بالقرب منها • والاسم معناه فى لغـة التامول الصهريج أو البركة أو الحوض • ومع هذا فمسالة البعد عن كائل تقارب مائتى ميل لا خمسمائة •

(٢) يقول أبو الفداء فى « تقويم البلدان » ، ص ٢٧٤ :

« Narravit mihi alquis qui eo suscept iter ibi esse arborem ol Bakkami (seu Brasillam) cujus lignum smille sit lingo granati mali ».

وورد اسم خشب الصندل بكثرة أكبر باعتباره منتجا للجبال بالمناطق الداخلية من البلاد •

(٣) يقول باربوزا متحدثا عن كولام :

« Nasce in questo luogo, molto pepe, del quale se ne caricano molte navi ».

(الورقة ٣١٢ ـــ ٢) لعل من نافلة القول الاكثار من عدد الأسناد بقصد اظهار أن الفلفل يزرع باقليم ترافانكور ، الذى تقع فيه كولام • ومع هذا فقد اخطأ مؤلفنا فيما يتعلق بالفصول ، وذلك نظرا لأنه على ساحل مالابار تزهر عرائش الفلفل حوالى شهر يونية ، وتنضج الثمار فى ديسمبر •

(٤) ورد هنا بيـان صـحيح بدرجـة مقبولة عن خطوات العمليات البدائية لصناعة النيلج • فأما النبات نفسه فانه ينمو ، ويستخدم مادة صباغة بكل أرجاء الهند بلا استثناء تقريبا • ووردت الكلمة فى رامسيو والخلاصات cndigo و cndic (بدلا من endici) فى طبعة بال .

(٥) هناك من الشواهد القوية ما يحمل على الاعتقاد بأنه فى الزمان الخالى كان الصينيون يتجرون فعلا (بالتبادل مع العرب) ليس فقط حتى شبه جزيرة الهند ، بل وأيضا حتى الخليج الفارسى نفسه • وهـذا الرأى يؤكده الدكتور روبرتسن الذى درس ـــ الموضوع : انظر Hist. Disquisitions etc. ص ٩٥ • ويترك الرحالة العرب فى القرن التاسع ، بعض ظلال الشكوك مخيمة الى حد ما فى أن السفن المستخدمة فى التجارة بين

سيرافوكانتون لم تكن الا عربية صرفة ، وان سميت فى ترجمة رينودوت « سفنا صينية Vaisseaux Chinois » ، كما نسمى نحن السفن المستخدمة فى هذه التجارة نفسها ، باسم سفن الصين · بيد أن سند الادريسى الذى كتب فى القرن الثانى عشر ، يعد سندا فى صميم الموضوع مباشرة · فهو يقول عن ميناء فى اليمن :

« Ex ipsa, solvuntur navigia Sindae, Indiae, et Sina-rum, et ad ipsam deferuntur vasa sinca »

(انظر Geographia ص ٢٥) (وهى بالعربية : « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ») ، ونجد ما يؤيد هذه الحقيقة من جانب الصينيين أنفسهم فيما يروى ده جنى ·

(٦) لاحظنا من قبل أن مؤلفنا يطلق فى جميع الأحوال اسم الأسد على النبر او الفهد ،وهو انما يعنى أن يتحدث عن الآخرين فى هذه الحالة الراهنة ، وان كانت الكلمة الواردة فى النص هى ليونى Leoni اى أسد · فأما عن وجود النبور السود أو الفهود فشىء لا مجال فيه لشك ·

(٧) ربما كان المقصود بالطيور الموصوفة هنا هو الكوكاتوا واللورى والببغاء Kokatua, Lury and Paroquet وان تكن الأولى ليست من طيور المكان الذى رآها فيه · وقد سبق أن ورد بالكتاب ذكر الطواويس وأنها طائر شائع بالهند فأما الدجاج المنزلى، فان بالهند منه بعض أنواع أضخم حجما بكثير مما يربى بأوربا — انظر Hist. of Sumatra ط ٣ ص ١٢٥ ·

(٨) يرجح أن ما يسميه مؤلفنا هنا بالخمر ، انما هو كحول حاد ، يستخرج من السكر الخام المحبب تحبيبا غير كامل ، المسمى بسكر النخل الأسمر أو الجاجرى أو جاجورى الذى هو فى حد ذاته تكثيف للعصارة (طازجة أو مخمرة Tari or Toddy) المستخرجة من « نخلة Borassus flabelliformis » التى اسمها السوقى هو نخلة براب Brab palm فى شبه الجزيرة الهندية ·

(٩) يقول لودوفيكو بارثيما ، متحدثا عن رعايا ملك نارسنجا :

« Il popolo minuto, vanno tutti nudi, salvo che intorno le parti inhoneste portano un panno ».

(الورقة ١٥٩ — ٢) · وهذه الطبقات العليا من الناس فى مالايالا (مالابار) ، يستخدمون اقل القليل من الملابس ، ولكنهم يحافظون على نظافة أجسامهم بصورة بالغة جدا · انظر بوكانان مج ٢ ص ٣٥٣ ·

(١٠) مهما بلغت أخلاق هؤلاء القوم من الحسية الشهوانية بصفة عامة ، فانى لا أجد دليلا مباشرا يثبت وجود زواج المحارم بينهم ، على

أنه يحتمل أنه نشأ شيء من الارتباك والخطأ فى هذا الصدد عن بعض عادات غير مألوفة اختصوا بها ، وبخاصة طبقة النايير Nairs الذين يحترفون فى غالب أمرهم حرفة الجندية • وطبقا لهذه العادات ، فان ابن الأخت الكبرى ، وليس الابن ، هو الذى يرث أملاك أبيه ، أو هو الذى يؤول اليه التاج فى الأسرة المالكة • وهناك عادة ترتبط بممارسة أخرى ذات طابع شهوانى داعر نرى أنه سنفسرها على خير وجه كلمات الدكتور بوكانان، يقول هذا المشاهد الفطن : وعندما تم حشد أعلى رجال النايير قدرا فى هذه الجيرة ، قدموا الى البيان التالى عن عادتهم • فان النايير أو كما ينطلقونها بالجمع النايمار — هم طائفة السودرة الأنقياء الدم فى منطقة المالايالا ، وهم جميعا يدعون أنهم يولدون جندا مطبوعين ، ولكنهم مختلفون مراتب وحرفا » •• — « ويتزوج النايير قبل أن يبلغوا العاشرة •• ، ولكن الزوج لا يعيش البتة بعد ذلك مع زوجته • والحق أن هذا يعد شيئا بعيدا عن الاحتشام • وهو يتولى منحها الزيت والثياب والزينة والطعام ، ولكنها تعيش بمنزل أمها ، أو تعيش — بعد وفاة والديها — مع اخوتها ، وتعاشر معاشرة الأزواج أى شخص تختاره من مرتبة معادلة لمرتبتها أو أعلى • وان هى ضبطت تمنح حبها الى أى رجل وضيع ، عدت من المنبوذات • وليس ثمة عار على سمعة المرأة أن يقال عنها انها كونت أوثق العلاقات الحميمة مع كثرة من الأشخاص ، بل الأمر بضد ذلك ، فان نساء « النايير » يفخرون بأن يعددن بين محبيهن المقربين كثيرا من البراهمة والراجات وغيرهم ذوى المولد الرفيع » • « وأم الرجل تدبر شئون عائلته ، فاذا ماتت تولت الادارة محلها كبرى اخواته • ويكاد الأخوة أن يعيشوا جميعا على الدوام تحت سقف واحد ، ولكن متى افترق أحد أفراد العائلة عن سائرها ، فانه تصحبه على الدوام أخته المقربة اليه » انظر : Journey from Madras, etc. مج ٢ صص ٤٠٨–٤١٢ • وليس عجيبا فى مثل هذا الوضع المنزلى ، أن يشتبه مسافر ، لم يرزق وسيلة للبحث الدقيق فى أن بينهم اختلاطا جنسيا فى المحارم •

● هوامش الفصل السادس والعشرين

(١) ان كوماري Komari أو Comari كما تكتب في الترجمة اللاتينية ، وهو اسم صحيح للنتوء الجنوبي الأقصى للهند ، الذي نكره بطليموس بأنه Promontarium kamariae « الذؤابة الكامارية» والذي يسميه الأوربيون العصريون «رأس قومورين» ٠ وتبعا لسير مؤلفنا من ساحل شبه الجزيرة الشرقي الى ساحلها الغربي ، كان ينبغي أن يكون هـذا المكان موضـع ملاحظته قبل مدينة كولام ، وهي قلة دقة ربما نشأت عن تصحيف في مواضع المواد غير المترابطة ٠

(٢) يبدو أن La tramontana أو Nostra tramontana تدل ـ كما ينبغي حقا أن تفعل ٠ على النجم القطبي الشمالي ، في بعض أقسام الكتاب، ولكنها تدل في بعض اجزاء أخرى على مجموعة نجوم « الدب الأكبر » ٠ ولما كانت المجموعة توصف هنا بأنها لا ترى الا جزئيا ، وجب بطبيعة الحال أن يكون المقصود هو المجموعة الأخيرة ٠ وعندئذ لا يمكن أن تفهم ملحوظة مؤلفنا غير العلمية ، الا على فرض أن الدب الأكبر Ursa Mojor كان تحت الأفق ليلا ، أثناء معظم الوقت المستخدم في قطعه لهذه البحار ، وهو الوضع الجاري في خطوط العرض الدنيا ، مدة تقارب ستة أشهر في السنة ٠ ويمكن تطبيق هذا الحل بالمثل ايضا على فقـرة في بليني المؤرخ (lib VI. Cap. 24) حيث ورد أن ملاحا دفع الى المحيط الهندي ، ونزل في هيبوري بجزيرة تابروبان ـ قرر عند عودته الى روما ، أن الدب الأكبر « Septemtrio » ، لم يكن يشـاهد من الجزيرة ، ولكن ، أن كان المقصود أن ملاحظته تنصب على الدب الأكبر نفسه ، فربما أمكن أخـذ العبارة بهذا المعنى ٠ وهو أن النجم ، وان كان غير مـرئي من جـاوة الصغرى فانه متى أصبح المرء على بضعة أميال من رأس قومورين ، (عند خط عرض ٥٨) فانه (أي النجم) كان يمكن تمييزه أحيانا على ارتفاع قليل فوق الأفق ، حيث لا يشاهد بسهولة نجم من الحجم الثالث ، ما لم يكن الجو بتلك الجهة أوضح مما هو عادة ٠ وطريقة تقدير ارتفاعه بالأذرع أو القامات بدلا من الدرجات مهما تكن خشنة بدائية فانها تبدو من رحلات كاداموستو Cada Mosto في القرن الخامس عشر ، انها كانت لا تزال تستخدم ٠

(٣) افضت عبارة هانومان – وهى قرد (أعلى) عاقل ومسل جدا – فى الميثولوجيا الهندوكية ، وقد تمكن بجيش من أبناء جنسه ، من مساعدة راما فى فتح سيلان ، بعد انقاذ حياة زوجته من قبضة رافانا ، معذبها ، الذى اختطفها – الى ظهور احساس بالتوقير نحو الجنس القردى كله ، وبوجه خاص ، حذو القردة العليا الأضخم حجما التى يقترب شكلها كل الاقتراب من الشكل البشرى · وكانت عاقبة هذه الخرافة هى أن هذا النوع ، نظرا لعدم تعرض أى انسان بالمضايقة ، صار يتكاثر بافراط شديد، حتى غدا – مصدر المضايقة لسكان القرى · وقد حدس بعضهم على نحو مستساغ عقلا الى حد كبير – أن قردة جيش راما لم تكن فى الحق الا الجبليين شبه المتوحشين القاطنين بالاقليم المجاور لرأس قومورين ·

● هوامش الفصل السابع والعشرين

(١) ان ديلى الواردة فى نسخة راموسنيو ، وهى فى نسخة بال ايلى Elli ، وفى اللاتينية الأقدم هيلى ، وفى الخلاصة المبكرة للبندقية اللى Elli ، هى جبل ديللا بالخرائط الانجليزية وديللى بالخرائط الهولندية ، ويقع تقريبا على خط عرض ١٢ شمالا ، حيث تنتهى طبقا لما أورده باولينو ، الذى يسميه مونت ديللى - منطقة مالابار أو مالا يالا ؛ وتبدأ منطقة كانارا . ومع هذا فان بوكانان يمد حدود مالابار الى نهر كهندراجيرى ، الذى يقع على نصف درجة أعلى شمالا من جبل ديللا ، الذى يصفه بأنه : « تل تفصله عن القارة أجوان مالحة المياه ، ويشكل بالنسبة للساحل نتوءا عجيبا ، اسمه بلغة الأهالى - فيما لاحظه - مفرط الصعوبة ؛ ولا يكان يستطيع أوربى نطقه ، ولا يمكن كتابته بحروفنا - (اللاتينية) . وهو يشبه فى الصوت قولك بيساوى مالاى Yesay Malay » مج ٢ ص ٥٥٩ .

(٢) النهر المذكور هنا ، يصب مياهه راسا الى الجنوب من جبل ديللا ، غير بعيد من كانا نور ، بعد مروره باقليم الراجات الكهيريكاليين أو الكولاسترى ، الذين ازدهرت مملكتهم فى المدة التى يتحدث عنها مؤلفنا . يقول بوكانان : « انه نهر يستمد اسمه من مدينة تسمى فاليا باتانام » . « وهو شديد الاتساع عند المصب ، وينقسم عند السد مباشرة الى فرعين كلاهما صالح للملاحة بالزوارق الى مسافة بعيدة » .

(٣) ويؤكد باولينو رأى مؤلفنا فيقول :

« Questo paese ... è quai in espagnabile, essendo coperto da alte montagne, e tutto tagliato da' fiumi. che impediscono la cavalleria».

(ص ٧١) . ويلاحظ بوكانان : « يبدو أن راجات مالابار لم يثقوا يوما فى اقامة التحصينات للدفاع عن بلادهم » . ص ٦٤٢ .

(٤) بعد اعطاء بيان تفصيلى لطريقة زراعة الفلفل فى هذه المناطق ؛ يواصل الدكتور بوكانان حديثه قائلا : يزرع فى حدائق هذه المنطقة المجاورة الكثير من الزنجبيل والكركم » . ويكشط الزنجبيل المعد للبيع بسكين

لازالة قشره الخارجى ، وبعد نثر رماد جلة البقر عليه ، ينشر على الحصر ، ويجفف لمدة ثمانية أيام أو عشرة ، وبذا يصبح صالحا » ٠ ص ٤٦٩ ٠ وحب الهال (الحبهان) أيضا من السلع الانتاجيـة ٠

(٥) تشابه ظروف الرسو المرصوفة هنا مع مثيلاتها فى تليكهرى وماهيه والجنجو ، التى منها يشحن الفلفل الى أوربا على سفن شركة الهند الشرقية ، فى الطريق العام ، حيث يكثر أن تحل السفن امراسها (حبالها الغليظة) ٠

● هوامش الفصل الثامن والعشرين

(١) الصحيح ان أسم مالابار (وورد فى الترجمات الأخرى ميليبار) . وان شاع اطلاقه على الساحل الغربى لشبه الجزيرة الهندية ، انما يخص بالتحديد الجزء الذى يقع الى الجنوب من جبل ديللا ، الذى يسميه الأهالى مالايالا ومالايالام . ومن هنا فان مؤلفنا وقع فى خطا عدم الدقة : باطلاقه الاسم ، على عكس ذلك ، على ذلك الجزء من الساحل الممتد نحو الشمال من ذلك النتوء ، ذلك الجزء الذى هو فى الواقع ما نسميه ولاية كانارا والكونكان بدلا من الشقة الممتدة نحو الشمال ابتداء من رأس قومورين ، التى قدرها تقديرا صحيحا بثلاثمائة ميل تقريبا .

(٢) يقول رنل : « ان هذا العدد الجم من المرافىء الصغيرة ، والرؤية التى لا يحجبها شيء على امتداد الشاطىء ، والساحل المرتفع ، الموائم للرؤية البعيدة ، كانت كلها عوامل جعلت هذا الساحل صالحا لأن يكون قاعدة للقرصنة ، كما أن نسائم البحر المتناوبة التى تعم المنطقة فى اثناء جزء كبير من السنة تضطر السفن الى الملاحة اقرب ما يكون من الساحل . فلا عجب اذن ان يلاحظ بلينى (المؤرخ الرومانى) السرقات التى تتعرض لها التجارة الرومانية فى الهند الشرقية فى عصره ، ومع أنه تم كبح جماحهم مؤقتا بتدمير أساطيل انجريا لهم ، الخ الا أنه يجوز لنا أن نتوقع أن تتواصل هذه العمليات ما استمرت التجارة وضمالة الموانى ، وقوة البلاد فى الداخل تحمى القراصنة » . (انظر Memoir المنشورة ١٧٩٢ ص ٣٠) .. ويقول جروس : « يبدو انه منذ اقدم العصور كانت تتملك السكان اقوى الميول الى القرصنة ، وفى هذه الأيام تستخدم جميع الامارات المختلفة الواقعة على الشاطى سفنا تخرج الى البحر للسطو على جميع ما يستطيعون التغلب عليه من سفن الأمم الأخرى » مج ٢ ص ٢١١ .

(٣) يلاحظ هاملتن فى حديثه عن راجابور ، وهى مكان يقع قرب جهيريا ، وبالتبعية على ما يسمى باسم ساحل القراصنة ، ان ما حول المنطقة ينتج أنعم ما فى الهند من أنواع الموسلين والبتللا Betillas ص ٢٤٣ .

(٤) الراجح أن هذا هو نحاس اليابان الذى كان على الدوام موضع الطلب الشديد . فاما السلع الأخرى المعددة أعلاه ، فمن المعروف أنها من انتاج بلادها .

(٥) يبدو من فقرة فى رحلات باريوزا أنه فى زمانه كان هؤلاء التجار ، ولو الى حد جزئى على الأقل ـ ان لم يكن الى حد رئيسى ـ من الفارسيس (أو البارسيين) ، وهم الاسم الذى اعتدنا اطلاقه على سكان فارس وأحفادهم الذين طردهم المسلمون من بلادهم ، بسبب تمسكهم بديانة أسلافهم ــ وهى ديانة زرادشت أو زرواستر ، المسماة « عبادة النار » ومع هذا فانه يدعوهم بجهالة عربا ، ويبدو كأنما يخلط بينهم وبين التجار العرب وغيرهم ، ·

● هوامش الفصل التاسع والعشرين

(١) كان اسم جوزيرات ؛ كما يبدو فى نسخة راموسيو وكذا فى خرائطنا العصرية ، من الأسماء التى لقيت من التحريف أثناء النقل أقل من كثير غيرها ، فهى جوزوراث فى طبعة بال وكذلك فى الطبعات اللاتينية الأقدم ، وجسوزوراتش فى مخطوطتى المتحف البريطانى وبرلين ، وجيسوراتش فى الخلاصات المبكرة . على أنها فى الكتابات الفارسية والعربية جوجرات أو جوجورات « Gujurat » • ويبدو أن هناك بعض الشك : اذا كان ما يسمى الآن شبه جزيرة جوزيرات كان فى قديم الزمان جزءا مكملا من المملكة المسماة بهذا الاسم ، التى كانت عاصمتها هى نهرواليه أو بوتان •

(٢) نظرا لأن منطقة جوزيرات انتقلت الى حكم أباطرة المغول بدلهى ، الذين اتخذوا اجراءات فعالة لكبح جماح نزعة القرصنة عند سكان هذا الجزء من الساحل ، فان ملاحى القرنين الخامس عشر والسادس عشر لا يتحدثون عن سرقات يتجاوز مداها شمالا مدينة طناه الواقعة على جزيرة سالسيت •

(٣) طبقا لكلمات النص ، يمكن الظن بان مؤلفنا أخطأ فى نبات البومباكس Bombax أو شجرة القطن الحريرى ، وهو نبات ينمو عادة الى ارتفاع يتراوح بين خمسة عشر قدما الى عشرين ، فظنه نبات القطن Gossypium arboreum وهى شجرة أو Goss herbaceum وهو نبات سنوى ، ولكن لابد أن المؤلف ومواطنيه على معرفة تامة بهذين النوعين الأخيرين نظرا لأنهما من منتجات بلاد المشرق ، ولا يبعد أن يزرعا ببعض أجزاء ايطاليا ، ولا شك أن غرضه لم يكن الا وصف نوع جديد عليهم من أنواع الأشجار التى تحمل القطن ، فذلك هو فيما يحتمل الوضع بالنسبة لبومباكس أو شجر القطن الحريرى • وهو يمضى مع هذا لابلاغهم أن قطنها لا يصلح لخدمة النول ، ولا يستخدم الا فى صنع الألحفة أو ، لعله كان يضيف أيضا لحشو المخدات ، وعندما تابع حديثه فالتزم أن يقول ، انه لو أخذ من الشجرة وهى بعد فى سن الثانية عشرة ، كان صالحا للاستخدام فى صنع الموسلينات الناعمة الرقيقة وهو قول يتناقض مع الواقع ، وهنا يكمن أقوى الأسباب للاعتقاد بأن معناه قد قلب • فليس ثمة تعبير ينطوى على هذه الفحوى موجود فى أية نسخة

العادى أو قطن الشجيرات المألوف ، كنقيض للنوع الآخر الجميل ، ولكنه عديم النفع تقريبا ، الذى كان يصفه من توه ٠

(٤) ربما ذهب الظن الى أن هذه تجارة غير عادية بالنسبة لميناء هندى ، بين أن لنشوتن (الذى ابتدات رحلاته فى عام ١٥٨٣)، اذ يتحدث عن الاقليم الواقع بين جوزيرات والأندوس (السند) ، يلاحظ صناعة المصنوعات الجلدية على النحو التالى
« Ex Corio item Peritè quaedam facta, floribusque ex bysso »

(ووردت فى النسخة الهولندية بلفظة « حرير »)
« Varis coloribus oranta ».

(انظر Ivavigac Itiner فـ٧ ص ١٢) ولم يرد ذكر لتجـهيز الجلود ، ولكن الدكتور ف. بوكانان يصف بدقة فى ثنايا رحلته بالمناطق الوسطى من شبه الجزيرة العملية التى يستخدمها الأهالى فى التجهيز والدباغة والصباغة ، ليس فقط لجلود الماعز والغنم ، بل وجلود الثيران والجاموس أيضا ٠ مج ١ ص ٢٢٧ ٠

(٥) ويضيف لنشوتن قوله :
« Eademsarte, stragula faciunt serico filo exornata, et acu picta ....

● هوامش الفصل الثلاثين

(١) ان الطرق المختلفة التى كتب بها اسم هــذا المــكان ، يعوزها الانسجام بشكل غير عادى ، فبينما يرد فى نسخة راموسيو كانام أو كانان ، اذا هو فى نسخة بال تانا ، وفى اللاتينية الأقدم ثانا وكهانه وكهانا ، وفى مخطوطتى المتحف البريطانى وبرلين وفى الخلاصات المبكرة توما ٠ (وربما جاز لنا أن نلاحظ أن حرفى T و C يحــدث التبــادل بينهمــا باستمرار فى المخطوطات الوسيطية) ويحتمل ان تكون تانا هى القراءة الصحيحة بين هذه القراءات ، وذلك هو الرأى الذى ذهب اليه دانفيل ، الذى راح بعد تنويهه بأن مكانا بهذا الاسم يبــدو فى « جداول نصر الدين » واولوغ بك ، يلاحظ ان : « مارك بول يتحدث عنها بوصفها مملكة ، يضمها الى مملكتى كبايت وسيمينات » ٠ (ص ١٠١) ٠ ويمكن الشــك فيما اذا كان المكان موضوع هذه الملاحظة ، والمسمى تانا فى نسخة بال وتوما فى الخلاصات ، لم يكن المقصود به هو تاتا ، وهى مدينة تجارية شهيرة عند راس دلتا نهر الأندوس (السند) ، وليس تاناه بسلست ، المتوغلة كثيرا فى جنوب جوزيرات ٠

(٢) لا يصل انتاج الفلفل شمالا حتى بمباى ، كما أن زراعته بعد ولاية كانارا ليست ذات حجم يذكر ومن البين ان البخور المتحدث عنه هنا هو اللبان الجاوى Gum Benzoin الذى ليس فى الحقيقة مما ينمو بأى جزء من اجزاء الهند ، ولكنه يشاهد بمقادير ضخمة فى مستودعات التجار ، الذين يستوردونه من سومطرة ، ليزودوا به أسواق بلاد العرب وفارس وآسيا الصغرى ٠ ولونه على الجملة بنى قاتم ، وأجود انواعــه لا تشــوبه الا عروق من اللون الأبيض ٠

(٣) كانت الخيول تحمل من البحر الأحمر والخليج الفارسى والأماكن المجــاورة لهما ، الى موانى الهند الشــمالية ، ومنها كانت سلالتها تصدر الى الولايات الجنوبية ٠ وذلك فيما يبدو هو ـ على الأقل ـ السبيل الذى كانت تسلكه التجارة قبل ان يفسد عليها النفوذ الأوربى نهجها ٠

● هوامش الفصل الحادى والثلاثين

(١) سبق أن أشرنا أنه متى ورد ذكر جوزيرات ، فان المقصود منها لم يكن شبه الجزيرة المسماة بهذا الاسم ، بل الجزء الأشد امعانا فى الجنوب من المملكة ، الذى يضم مدينة سورات ، ويمتد بامتداد الشاطىء حتى تاناه أو بمباى · وتمشيا مع الفكرة وتقدم مؤلفنا نحو الشمال ، فانه يعالج كامبايا فى ترتيبها ، وهى ميناء تجارية شهيرة تقع عند قاعدة الخليج المسمى باسمها وورد ذكر هذا المكان فى الآيين الأكبرى تحت اسم كامبايت بين مدن جوجيرات الرئيسية ، التى كانت عاصمتها قديما نهزواله ، المسماة عادة باسم بوتان (كما أوضح ذلك رنل) ·

(٢) يقول لنشوتن :

« In cambaia pracparatur, ac per universas orbis partes distrahitur ».

انظـــــــر : (Navig. ac Itiner.) ص ١٣ · ويقول الآيين اكبرى فى وصف مكان يقع الى جوار « أحمد اباد » ، العاصمة الحديثة ، الواقعة غيربعيدة من ميناء كامبايا : « هنا ينمو نوع ممتاز جداً من النيلج ، يصدر الى بلاد الروم وغيرها من الأماكن البعيدة » · مج ٢ ص ٧٧ ·

(٣) يصدر قطن الخشو فى الزمن الحاضر ، بمقادير وافرة من سورات وبمباى الى الصين ·

(٤) سبق أن ورد ذكر التوتياء فى الكتاب الأول ، ف ٢٠ ، وأنه تحضير من فلز (هو الزنك أو الأثمد) يوجد بالجهة الشرقية من بلاد فارس · وهو يحمل الى الهند بصفة رئيسية بقصد صنع القطرة منه المسماة سورميه وانجان ، وتكثر نساء الهندوستان من استخدامه .

● هوامش الفصل الثانى والثلاثين

ان سرفينات ، التى تسمى فى طبعة بال تسمية أصح هى سميناث ؛ وفى اللاتينية الأقدم سيميناتش ، ولكنها محذوفة فى الخلاصات المبكرة (ما لم تكن سيبيليتش Sebelech هى المقصودة بدلا منها وليس كامبايث) ، هى كما هو واضح المكان المسمى سومينات ، الذى ذاع اسمه بسبب التدميرات التى ارتكبها هناك (فى عام ١٠٢٥) محمود الغزنوى ، وهو متعصب مسلم ، دمر معبدا هندوكيا شهيرا وحطم وثنه الهائل اربا ، واستولى على الأحجار الكريمة التى كان مزدانا بها .

(٢) ربما ولدت القساوات التى مارسها المسلمون مع السكان الهندوك بهذا المكان ، الذين لقوا الذبح طبقا لرواية أبى الفداء ، فى أعداد غفيرة

« Ea in urbe, Sumenat, ingentum Indorum numerum necabat Mahmud, omnes auferebat divitias, et super idolo rogum accendebat ».

(ولدت) روحا انتقامية عنيفة ، وبخاصة بين الكهنة ، وتسببت فى انتهازهم الفرص للثأر للاعتداءات التى حلت بهم ، وليس من المستبعد أن مؤلفنا ربما حصل على معلوماته حول أخلاقهم من رفاقه الملاحين المسلمين .

● هوامش الفصل الثالث والثلاثين

(١) يبدو أن اسم هذا المكان ، الذى هو أكوران أو كوران فى نسخة راموسيو ، ورسما كورام فى طبعة بال وربما كورون فى اللاتينية الأقدم ، ورسما كيران فى الخلاصات الباكرة» كان سببا فى مصاعب كبيرة • ويطابق الماجور رنل بينه وبين كدج ماكران ، « التى ربما اعتبرت فى ذلك الحين ، جزءا تابعا للهند ، مثلما اعتبرت فيما تلا ذلك من الأزمان فاندهار وولايات فارسية أخرى • ويتصادف انى أصدرت من قبل حكمى على هذا المكان ، والآن أجد فى ملحوظة فى كتاب أستلى ، ان الناشر كان يرى نفس الرأى • والحاصل أنهم بالهند يضمون كدج ومكران معا ، كما هى العادة الشائعة فيما يتعلق بأماكن أخرى • وربما كانت كدج او كيدج هى العاصمة السابقة • وهى دون أدنى ريب ، مدينة جيدروسيا عند الأقدمين » • ويتحدث بوتنجر عند كيدج قائلا انها العاصمة الحديثة لمكران ، وهو ولاية مترامية الأطراف قرب البحر ، على الجانب الغربى لنهر السند • وكانت الأماكن الواقعة قرب هذا النهر هى حدود ما أورده مؤلفنا من اوصاف سابقة ، حيث قال فى(الكتاب الأول ف. ٢٧):«واذا أنا تقدمت فى هذا الاتجاه نفسه أفضى بى السير الى بلاد الهند ، على أنى وجدت من الملائم الاحتفاظ بوصف هذا القطر الى كتاب ثالث » : واذن فهو قد أستقام مع نفسه حين ختم بيانه عن ساحل الهند ، عند وصوله فى اتجاه مضاد ، الى ولاية تربطه بفارس ، وكانت تعتبر ، فى أوقات مختلفة ، تابعة سياسيا لأحد القطرين • على انه يمكن أن يقال طبقا لنظام الجغرافيين القدامى • ان مكران تابعة للسند ، مميزا عن بلاد الهند ولكنهما كليهما كانا يدمجان فى تعريفهم لبلاد الهند ، بمفهومها المترامى العام •

(٢) يقول ابن حوقل : « يشبه كثير من سكان مكران العرب ، فهم يأكلون الدجاج والسمك • وآخرون منهم يشبهون الأكراد • اذ هنا يقع الحد الأقصى لبلاد الاسلام فى هذا الاتجاه • والآن سنغير وجهتنا ونشرع فى وصف أرمينا ، الخ •• » (المسالك والممالك ، ص ١٥٥) مما

يسترعى النظر أن مؤلفنا تبنى خط التقسيم الأكبر نفسه ، الذى استخدمه هذا الجغرافى العربى ، الذى سبقه بما يقارب ثلاثة القرون ، ولكن يمكن تعليل ذلك بارتباط الأمر بالمربابنة العرب •

(٣) المقصود من المعبر (متميزا عن مالابار) هو الســاحل الشرقى لشبه الجزيرة ، من قرب كستناه ، أو بعبارة أدق ، من نهر بنار الى راس قومورين ، أو تلك الشقة التى تنتشر بها لغة التامول •

● هوامش الفصل الرابع والثلاثين

(١) من العسير التحقق بالضبط من اسم الجزيرتين اللتين رويت عنهما قصة العجائب هذه لمؤلفنا ، على أنه رغم الاعتراضات التى تنهض بصدد المسافات ، فان من المعقول الاعتقاد أن المقصود بهما هما الجزيرتان اللتان تقعان قرب جزيرة سقطرى وتسميان عبد ال كوريا والشقيقتين ببعض الخرائط أو الشقيقين فى خرائط أخرى • وفى خريطة فرا • مورو تسميان مانجله ونبيله •

(٢) سيتضح من هوامش الفصل التالى ، ان المسيحية تأسست بهذه المنطقة ، شأنها فى بلاد الحبشة ، فى زمن مبكر جدا ، والتبعية الكنسية لسقطرى تقوم على التجاور وان لم تصل الى حد البرهان القاطع •

(٣) من المعلوم أن السمك المملح سلعة تجارية مهمة بتلك المناطق ، التى يندر بها النبات لشدة الحرارة وجدوبة الأرض ، كما أن طعام الناس والماشية يحصل عليه بشق الأنفس • وعلى هذا الأساس أطلق الاغريق على سكان هذا الساحل اسم اختيوفاجى Ichthyophagi أى من يعتمدون فى حياتهم بصفة رئيسية على اكل السمك •

● هوامش الفصل الخامس والثلاثين

(١) تقع هذه الجزيرة الضخمة ، وهى المسماة سوقوطورا فى خريطة لمانفيل وسقطرين عند الجغرافيين الانجليز ، قرب راس غردفوى ، البوز الشمالى الشرقى لقارة افريقيا • ووردت فى نسخة راموسيو باسم صحيح هو سوقوتيرا ، ولكنها فى طبعة بال اسكويرا • وفى اللاتينية الأقدم اسكويران وفى الخلاصات الايطالية الباكرة اسقرسيا : فما أشد عدم انتباه النساخ فى نقلهم أسماء الأعلام حتى أسماء الأماكن المشهورة !•

(٢) كثيرا ما ورد ذكر العنبر وأنه يوجد فى ساحل أفريقيا المجاور •

(٣) ان ذكر هذا الزيت المستخرج من راس السمكة يدل على أنها هى الحوت العنبرى ، كما انه دليل على صدق ما أورده المؤلف • ثم ان طريقة الرشق بالحربونة وصفت هنا وصفا صحيحا كذلك •

(٤) هناك أدلة وفيرة على وجود المسيحية فى زمن مبكر بجزيرة سقطرى • يقول الثانى من الرحالتين العربيين فى القرن التاسع : « وفى هذا البحر ، توجد جزيرة سقطرى ، التى ينمو بها الصبر السقطرى ، وهى تقع قرب بلاد الزنج وبلاد العرب ، كما أن غالبية سكان تلك الجزيرة من المسيحيين الذين يذكر عنهم هذا السبب » • فأما الادريسى الذى صنف عمله قرب منتصف القرن الثانى عشر ، فانه ينقل عن هذا المصدر وهو الرحالة المسلم مرددا أقواله بالحرف تقريبا • على أن باربوزا : الذى تمت رحلاته قرب نهاية القرن الخامس عشر يتحدث باحتقار عن نوع المسيحية الذى وجده هناك أبناء وطنه البرتغاليون ، عند زيارتهم الأولى للجزيرة ،

ولكن لما كان السكان يعدون على احسن الفروض اتباع شيعة مسيحية منشقة ، وجب أن تولى شعوره المتعصب شيئا من التسامح • ويقدم ج • ده باروس بيانا تفصيليا عن « سوقوطورا » ويقول عن الأهالى :

« Todos sao Christiaos Jacobitas da casta dos Abexijs (Habeshis or Abyssin ans), pero que muitas cousas neo guardao de seus costumes ». (Dec. 2, L, I Cap III).

(٥) من الواضح أن مؤلفنا ظن السكان من النساطرة ، حيث وردت Zatolia كغلطة مطبعية بدلا من Zatolic وهى فى حد ذاتها تصحيف

من البيادقة لكلمة الجاثليق ، Katholicos وهو اللقب الذى يتلقب به البطريرك النسطورى المقيم فى بغداد · على أن الأرجح أنهم كانوا من اليعاقبة (كما يؤكد ذلك البرتغاليون) ، ويخضعون للسيادة الروحية لبطريرك ، كان يقيم فى الأزمنة القديمة بأنطاكية وبالاسكندرية ، ويقيم فيما بعد بمدينة ماردين بأرض الجزيرة بالعراق ·

(٦) من المحتمل جدا أن هذه الجزيرة قبل استيلاء البرتغاليين عليها جعلت مستودعا للبضائع التى تنتهبها سفن القراصنة وان تبرير الأهالى المسيحيين المناقض للضمير شىء متوافق وطبائعهم كثيرا ، ولكن يبدو أن أبا الفداء يعد هؤلاء الأهالى طرفا رئيسيا فى عمليات السرقة حيث يقول :
« Incolae eius sunt Christiani piratae ».

انظر : « Geographia » ، « تقويم البلدان » لوحة ١٦ ص ٢٧٨ ·

(٧) كان الاعتقاد فى السحر وقدرة التعاويذ على تغيير خط السير العادى للطبيعة وبخاصة على التحكم فى الرياح ، شائعا فى تلك الأيام ، واستمر كذلك الى عهد متأخر عن ذلك كثيرا ، حتى فى أشد بلاد العالم تحضرا · واذن فلن ندهش اذ نجد ذلك الفن ينسبه الملاحون الى سكان جزيرة سحيقة ، كانت ، شأن « برمودة المنكودة الآن » ، توصف بأنها هدف لعواصف عنيفة · ويتحدث ده باروس وهو مؤرخ جاد فى القرن السادس عشر ، عن الشعوذة التى تمارسها نساء سقطرى قائلا عنهن :
« Por hoje serem ainda tao grandes feiticeiras, que fazem cousas maravilhosas. »

(الكتاب الأول ف ٣ (Dec. II · ويورد جامع رحلات استلى Astley's Voyages بعض التفاصيل العجيبة عن فرط بساطة البرتغاليين وقابليتهم للتصديق ، فيما ، يتعلق بهذه الوساطة المزعومة الخارقة للطبيعة · (مج ١ ص ٦٣ هـ) ·

● هوامش الفصل السادس والثلاثين

(١) الحقيقة أن محيطها الواقعى يقارب الفى ميل لا ثلاثة الاف ٠

(٢) الاهالى على الجملة ليسوا مسلمين ، على أنه سيتضح لنا أن العرب استقروا وتوطنوا ونشروا دينهم فى مناطق كثيرة على امتداد الشاطىء ، ولم يقتصروا على ذلك ، بل انهم باختلاطهم بالأهالى الأصليين ، تكونت عدة أجناس من الناس يدينون بتلك العقيدة ، مهما تكن مراعاتهم لسننها بعيدة عن الكمال ٠

(٣) لكلمة « شيخ » العربية معنى مزدوج هو « الأسن أو الأكبر سنا » (كما يتضح من النص) ، وكبير القبيلة أو رئيسها ٠ وبهذا المعنى الأخير ، نجدها عادة مستخدمة ، ومن المحتمل أن القبائل المذكورة فى الهامشة السابقة ، كان يحكمها رؤساء يلقبون بالشيوخ ، كما هو معلوم من أن حكام شاطىء افريقيا المواجهة ، حيث وطن العرب انفسهم ــ كانوا بالمثل شيوخا ٠

(٤) ان الأفيال والعاج تكثر على الساحل الأفريقى (كما يلاحظ فى الفصل التالى) ، ولكنها لا توجد بالتأكيد على جزيرة مدغشقر ، ومن ثم فلابد أن ماركو بولو تلقى هنا معلومات خاطئة ، أو لعله خلط بين ما وقع له من معلومات ٠

(٥) زعم بعضهم أن المقصود بالجمل هنا هو ثور مدغشقر أو البيزون ، وهو الشهير بالحدبة أو السنام الموجودة فوق كتفه ٠ على أن من المحقق على ذلك ، أن العرب ، وربما المسلمين بصفة عامة ، يستحبون لحم الجمل ٠٠ حيثما استطاعوا الحصول عليه ــ على كل انواع اللحم الأخرى ٠

(٦) من الواضح هنا أيضا أن الظروف المذكورة تنطبق على الشاطىء الأفريقى المواجه ، وليس على الجزيرة ، التى لا يعرف أن أسودا ولا أى حيوان من الأسرة الببرية يوجد بها ٠ والواقع أن جميع ما ورد من مدغشقر تقريبا ، يبدو أنه معلومات التقطها مؤلفنا من البحارة العرب ، فيما يتعلق بالساحل الجنوبى من افريقيا ، وأنها ادخلت من مذكراته فى غير موضعها ٠

(٧) أن التيارات المتجهة جنوبا من خلال مضيق موزمبيق ، ثم المتخذة بعد ذلك اتجاها غربيا ، مندفعة بقوة حول رأس الرجاء الصالح ، مصدر خشية جميع ملاحينا الى بلاد الهند الشرقية • ومن هنا جاء أن لساننا يمتد من أرض افريقيا ، الواقعة قبالة خليج القديس أوغسطين بجزيرة مدغشقر ، تحت مدار الجدى تقريبا ، سماه المكتشفون البرتغاليون رأس التيارات : Cabo des correntes غير أن ملحوظة مؤلفنا حول هــذا الطرف العجيب ، بمنطقة من الكرة الأرضية ، لم يزرها فى ذلك الوقت أى أوربى جديرة حقا باشارة خاصة •

(٨) ان كل من قرءوا قصص « الف ليلة وليلة » لابد أنهم يعلمون حجم هذا الطائر العجيب وقوته ، المسمى فيها بالرخ ، على أن شهرته لا تقتصر على ذلك العمل • يقول القاموس العربى والفارسى : « ان الرخ هو اســم طائر جبار ، يقال ان به من القوة والمنعة ما يكفيه لحمل كركدن حى » • والحق أن وجوده ، يبدو أنه كان موضع التصديق العام ببلاد الشرق ، ولم يكن الملاحون العرب الذين التقى بهم مؤلفنا ليترددوا فى تقرير حقيقة لها مثل تلك الشهرة ، ولكن لعلهم يجدون من المناسب ـ فى نفس الحين ـ أن يجعلوا مسرح ظهوره مكانا بعيدا غير مطروق هو الطــرف الجنوبى لمدغشقر ، حيث تقل فرص مناقضة هذا القول عن طريق المعرفة المحلية • ومع هــذا فان ظرف لجوئه الى الجزيرة من المحيط الجنوبى ، يتيح المجال للظن بأن الحكاية وان بولغ فيها ، ربما لم تكن خيالية تماما ، وربما كان منشؤها رؤية طائر حقيقى ، بين حين وآخر ، أوتى أبعادا ضخمة وان لم تكن اعجازية وهذا الطائر اما أن يكون هو القطرس ـ (Demedia exulans) الذى ربما أمكن ، وان كان يقطن خطوط عرض جنوبية اكثر ، أن يزور بالصدفة شواطىء مدغشقر ، واما أن يكون هو الكوندور الذى يقطن جنوب أفريقيــا • والمعلوم أن بعض أفراد القطرس يبلغ طول مابين الجناحين من طرفها الى طرفها الآخر مالا يقل عن خمسة عشر قدما مما يجعل الناظر اليها لأول مرة يخيل اليه أنه يرى ظاهرة خارقة • وقد امكننــا بفضــل الوصف الذى قدمه اليناباور ، فى « Travels in S. Africa » أن نكون فكرة عن ضخامة وقوة الطائر الثانى • فهو يقول : « تكاد الغربان والحدأة والنسور أن تكون هى تقريبا الأنواع الوحيدة من الطيور التى يلتقى بها (فى منطقة روججفلد) • وتمكنت من كسر جناح أحد افراد النسر الذى يسميه علماء الطير باسم الكوندور وله ضخامة حجم مذهــلة فامتــداد جناحيه كان يبلغ عشرة أقدام وبوصة واحدة • وحدث ذات مرة انه جعل ثلاثة كلاب فى وضع حرج تماما ، حتى اذا تمكن فى النهاية من امساك أحدها بمخالبه ، وانتزع قطعة كبيرة من لحم فخذه ، اضطرها جميعــا الى التراجع فورا » • (مج ١ ص ٣٥٨ ط ٢) • ان كان المقصود من لفظة

الواردة فى النص هو الخطوات العـادية التى بعدها قدمان Passi ونصف ، لكان معنى هذا أن الطول المعطى لجناحى الرخ هو أربعون قدما • والمبالغة فى وصف ريشة القوادم أعظم وأدهى ، وهنـا يكون ريش القطرس والكوندور قزما مصغراً بالموازنة ، ولكن ينبغى أن يلاحظ أنه بصدد العينة التى قيل ان رسل الخان الأعظم قدموها عندما أرسلهم لفحص عجائب الطبيعة ، وبذا دراسة الحالة السياسية للبلاد ، يعبر مؤلفنا عن نفسه بحذر ويستخدم عبارات ملطفة كقوله « Sicome intesi » و « Laqual li fu affermato » كأنما يريد أن يكون مفهوما أنه لا يدعى أنه رأى الشىء رأى العين ، فأما اعتقاده بوجود الطائر نفسه فأمر لا يتطرق اليه شك •

(٩) يقول كتاب The Hist. of Quadropeds ان الخنزير البرى الأفريقى أى ــ (sus Aethiopicus) له أربعة أنياب • منها اثنـان كبيران جـدا يبرزان من الفك الأعلى ويتجهان الى فوق كالقرن، وطولهما تسع بوصات ومحيطاهما عند القـاعدة خمس بوصات كاملة ، فأما النابان الآخران الناتئان من الفك الأسفل فلا يبرزان الا ثلاث بوصات من الفم • ويستخدم الحيوان هذه الأنياب أداة رهيبة لانتقـامه » • وبديهى أن أنياب الخنازير البرية ، شأن الفيلة على حد سواء ، لابد أن تختلف اختلافا بينا فى حجمها حسب السن وغيره من الظروف : وربما كان الناب الذى حمل الى الصين وبلغ وزنه أربعة عشر رطلا ، مأخوذا من حيوان غير عادى من هذا النوع •

● هوامش الفصل السابع والثلاثين

(١) ان هذا الاسم الذى ورد بنسخة راموسيو زنزيبـار وبكل من النسختين اللاتينيتين زانزيبار ، وبالخلاصات الباكـرة تانجيبار هـو « زانجبار » فى الجغرافيا العصرية · ويطلق هذا الاسم بنوع خاص على جزيرة صغيرة قرب الشاطىء الأفريقى ، كما يطلق على شقة من الساحل داخل نطاق تلك الجزيرة ، تحدها فنلندا شـمالا ، ورأس الجـادا فى الجنوب ، ولكن يبدو محتملا ان الأشخاص الذين حصلوا منهم مؤلفنا على معلوماته ، اعتـادوا على استخدام اللفظ بمعنى أكثر ايهاما (كشأن اسم اثيوبيا) ، وربما على اطلاقه على الشاطىء الأفريقى الجنوبى بأسره ، الذى يسكنه الشعب الذى يطلق عليه العرب جملة أسم الزنج ونطلق نحن عليه اسم النجرو أو الكفرى Cafrees وربما أمكن الذهاب أيضا على سبيل الظـن أنـه لمـا كانت كلمة « جـزيرة » العربيـة معناهـا جزيرة أو شبه جزيرة ، فربما كان قصدهم مما سماه مؤلفنا جزيرة زنجبار الدلالة على جميع الطرف الجنوبى فى افريقيا أو شبه الجزيرة الأفريقية الذى يبلغ امتداده من جزئه الشمالى أو ما يمكن تسميته بزنجبار الأصلية ، ثلاثين درجة عرضية أى حوالى ألفى ميل واذا لنقرأ عند المؤلفين العربيين وغيرهما من الكتاب الشرقيين ، نفس الاسم (زنجبار) وقد أطلق على هذه الشقة ، مع اطلاق لقب الزنج على نحو عام على جميع سكان الشاطىء الشرقى لأفريقيا · يقول الرحالة المشـار اليهم آنفا : « ان بلاد الزنج (أو النجرو) ، تمتد امتدادا عظيما » انظر (Anc. Relat. ص ١١١) · وكذلك ده باروس أيضا ، فانه يعطى اسم زنجبار مدى فسيحا يطلقه عليه ، كما أنه لا يحتمل بناء على فحوى اسم مثل (بلاد الأثيوبيين أو الأحباش) ، انه كان فى الأصل قاصرا على بقعة صغيرة ·

(٢) (هنا تضيف النسخة اللاتينية الباكرة ملحوظة معينة نتركها بلغتها الأصلية :

« Sed cooperiunt suam naturam ; et faciunt magnum sensum quando eam cooperiunt, eo quod ha bent eam multum magnum et turpem, et horribilem ad videndum ».

(٣) سيحكم القارىء بنفسه الى أى مدى يتطابق هذا الوصف للجنس الزنجى الذى يبدو أنه شوه بسبب نقله عن طريق المسلمين وتحيزهم – مع مشاهداته هو الخاصة – على أنه ينبغى الا يغيب عنه فى الحين نفسه ، انه

وان كان هناك من حيث فلطحة الأنف وانفطاسها وغلظ الشفتين ، وتفلفل الشعر ، اتساق وتطابق عام ، فانه من حيث الحجم والشكل وقتامة اللون ، وشراسة الهيئة ، يختلف أهالى صقع ما بين أفريقيا اختلافا جوهريا عن اهالى اى صقع آخر .

(٤) الراجح أن البلح المذكور هنا ليس من النوع الحقيقى المعروف الذى تنتجه نخلة البلح : Phoenix or palma dactylifera ما لم يكن مستوردا كسلعة غذائيـــة . اجـل أن ده باروس اذ يتحـدث عن القطر المحيط بكويلوا « Ella he mui fertil de palmeiras » ولكن هذا ـ رغم لفظة بالميرا Palmeira تترجمها المعاجم بالنخلة او البلح « يبدو أنه لا يعنى سوى نخلة الكافور (Palma Sylvestrier of Kampfer) واذ يسمى البرتغاليون هذا النوع باسم Palmeira brava اى النخل البرى أو Braba كما تنطق الكلمة باللهجة العامية المحرفة لمستوطناتهم ببلاد الشرق ـــ فانه اكتسب عند غيرهم من الأوربيين التسمية العامة وهى شجرة الأسل .

(٥) كل ما يمكن التماسه عذرا لهذه القصة التى لا اساس لها حول طريقة التزاوج بين هذه الحيوانات ، هو أن الغلطة قديما جداً وعامة ، وظلت قائمة لا يفندها أحد بسبب ندرة الفرصة اللازمة لدحضها .

(٦) لا شك أن الزرافة أو ما يسميه عالم الحيوان السويدى الشهير لينابوس cervus camelopardolis معروفة الآن تماما بانجلترا .

(٧) يقول هملتون متحدثا عن ساحل زيلا قرب رأس جاردافوى : « الغنم عندهم بيضـــاء الجسم كله من رءوس قاحمـة السـواد وآذان صغيرة ، وأجسامها ضخمة ولحمها رقيق وذيولها عريضة بقدر اليتيها » . مج ١ ص ١٥ .

(٨) يقول هملتون : « ان لهم لأجساما واطرافا ضخمة ومتينة ؛ كما انهم بالغو الجراة فى القتال » . مج ١ ص ٨ .

(٩) من الصحيح ما ورد أعلاه من أن ساحل افريقيا لا ينتج أى نوع من الخيل ، ولكن مع أن الفيلة المتوحشة تكثر بالبلاد ، فليس هنـاك اى سبب يدعو للاعتقاد بأن الأهالى متعودون فى أى مكان هناك فى الزمن الحاضر ، على استئناسها أو استخدامها فى حروبهم ، فأما أنه لابد أن ذلك قد حدث فيما مضى فى الزمان ، فأمر تناقشه بغاية البراعة رحلات المستر بارك الجدير بالثناء والسيىء الحظ حيث يلاحظ ما يلى : « قيل ان الفيل الأفريقى ذو طبيعة اقل وداعة من الآسيوى ، وأنه غير قابل للاستئناس . ومن المحقق أن الزنوج لا يرضونه فى الوقت الحاضر ، ولكن لو تذكرنا

أن القرطاجنيين كانت لديهم دوما فيلة مستأنسة فى جيوشهم بل نقلوا بعضها الى ايطاليا فعلا ، فى أثنــاء الحروب البونية (التى دارت بين روما وقرطاجنة فى قديم الزمان) ، بدا محتملا أكثر أنهم كان لديهم من ترويض فيلتهم ، أكثر من تحملهم نفقات استجلاب مثل هذا الحيوانات الضخام من آسيا » · (ص ٣٠٧) · ورغم هذا كله فانى أميل الى الظن بأن مؤلفنا اما أنه تلقى معلومات خاطئة حول هذه الحقيقة ، واما أن المقصود من ملحوظاته من استخدام الفيلة هو الحديث عن مكان آخر غير زنزيبار كالحبشة مثلا أو سيلان ·

(١٠) ان البنج ، وهو عصير مخدر ، يستخـرج من أوراق القنب الهندى ، يقــال انه يعطى أحيانا للفيلة الهندية ، بقصــد بث الضراوة فيها وعدم الاحساس بالخطر وهى وسيلة لابد أن يصحبها قدر غير قليل من الخطر على الجانب الذى يلجأ الى استخدامها · ويبدو أن المقدونيين السوريين Syro-Macedonians كانوا يستخدمون شرابا مثيرا آخر لانتاج نفس الأثر : « ورغبة فى اهاجة الفيلة للقتال ، كانوا يجعلونها ترى دم العنب والتوت » . (I. Macc. اصحاح ٦ : ٣٤) ·

● هوامش الفصل الثامن والثلاثين

(١) من الواضح أن المقصود بكلمة « مجموعة الجزر الوفيرة » ببحر الهند هو الحشد الهائل المسمى بجزر ماالديف بالاضافة الى الحشد الأقل عدداً المسمى جزر لكديف · فلو أن هناك مبالغة فى تقدير عددها باثنى عشر الفا وستمائة ، فلابد عندئذ من التماس العذر ، ليس فحسب لمؤلفنا ، بل ولهؤلاء الربابنة المجربين الذين أشار انه نقل عنهم ، وذلك لأنه سيتجلى ان الاعتقاد الشائع بكل أرجاء الهند ، وبتلك الجزر نفسها ، هو ان الجزر الأولى وحدها تتألف من أحد عشر أو اثنى عشر الفا ، من جميع الأوصاف والأحجام · يقول لنشوتن :

« Quid am harum isularum numerum », and 11,000 ferunt ; sed non est certa ratio. Innumberabiles enim sunt ».

(الفصل ١٢ ص ١٦) (وفى الامكان اضافة مصادر اخرى قديمة بنفس هذا النحو) وورد فى الفصل الثامن من هذا الكتاب فى موضوع لوتشاك ، التى يظن انها كمبوديا العبارة التالية : « من هنا تصدر جميع الأصداف الخزفية ، التى متى حملت الى اقاليم أخرى ، تبادلها الناس عملة متداولة » · وهذا التاكيد يمكن تطبيقه بدقة وبتخصيص يكاد يكون تاما على جزر ملديف وكان المقصود به عند مؤلفنا (كما انا مقتنع تمام الاقتناع) أن يوضع فى هذا المكان بالذات ·

(٢) لا يبدو أن هذا التقسيم للهند الى كبرى وصغرى ووسطى ، له أية علاقة لا بالموقع الجغرافى ولا بالأهمية النسبية · والمفهوم هنا من الهند الصغرى هو ما كان يسمى الهند خارج الجانج India extra Gangem او بعبارة أدق ، المسافة المحصورة بين الشاطىء الشرقى لشبه جزيرة الهند وساحل كوشين صين أو تسيامبا · وجعلت الهند الكبرى محتوية بلاد الهندوستان الحقة باكملها وشبه الجزيرة ، ممتدة غربا حتى ولاية مكران أو المنطقة الممتدة بين الجانج (الكنج) والسند بكل ما فيها · فاما اسم الهند الوسطى او الثانية فان مؤلفنا يطلقه على الحبشة قصدا · ولكنه يبدو كأنما يعنى أن شاطىء بلاد العرب أيضا ، حتى الخليج الفارسى ينبغى أن يضم الى هذا القسم ·

۞ هوامش الفصل التاسع والثلاثين

(١) يقول لودولفوس :

« Uni tamen regi, Habessinia pareti qui ob subjectos quosdam regulos, regem regum Aethiopiac semet vocal ». (Hist. Aethiop. Prooem).

أنظر (Hist. Aethiop. Prooem). يقول جيبون : « رفعت المسيحية هذه الأمة فوق مستوى البربرية (الهمجية) الأفريقية · كما أدى أختلاطهم بمصر وكذا بخلفاء قسطنطين الى نقل مبادىء الفنون والعلوم اليهم ؛ وكانت سفنهم تخرج للتجارة حتى جزيرة سيلان ، كما أن النجاشي (Negus) أو الأمير الأعلى للحبشة كانت تخضع لأمره سبع ممالك » · (مج ٤ ص ٢٦٧) على أن العدد لابد أنه تفاوت في أوقات مختلفة ، وطبقا لهذا نجد عند ب تللز ولودولفوس وغيرهما من الكتاب أعدادا تتراوح بين أربع عشرة ولاية وثلاثين ، يخفضها لودولفوس مع ذلك في تاريخه الى تسع رئيسية · ويورد دابر اسماء ممالك ، يعتبرها مكونة لممتلكات العاهل الحبشي في زمانه · ص ٣٢٠ ·

(٢) الموقع المتوسط المشار اليه هنـا هو موقع مدينـة اكسو أو اكشوما ، العاصمة القديمة لبلاد الحبشة ومقر حكم الأمير الذى أطلق عليه القاريز باربوزا وغيره من الكتاب البرتغاليين الأوائل اسم بريسترجون الحبشي « Prete Joao » .

(٣) سيبدو فيما تعد محتملا اكثر أن الاقليم المتحدث عنه هنا يقصد به اقليم عدل وهى مملكة مجاورة للحبشة في الجانب الجنوبي اكثر منه عندم أو عدن ، التى يفصلها عنها البحر الأحمر أو الخليج العربي · على ان طبعة بال تقول بصورة أدق :

« Contingit hanc regionem (Abasiam) alia quaedam provincia Aden dicta ».

(٤) لدينا أسانيد وفيرة تؤيد وجود العداء المستحكم والحروب المستمرة بين ملوك الحبشة وملوك عدل (التى ميناؤها الرئيسى هو زيلع ، على الساحل الجنوبي الغربي من البحر الأحمر) ، وبخاصة كتابات أندريا كورسالى وهو رجل من فلورنسا وفرانسسكو الفـارين وهو برتغـالى ، (وهى توجد عند راموسيو مج ١ الورقات ١٧٦ـ٢٦٠) · وهنا يصح للقارىء أن يطبق هذه الحقائق التاريخية على الظن الذى أوردناه في

الهامشة السابقة من أن عدل وليس عدن هى المقصودة بكلمة الولاية المجاورة للحبشة .

(٥) فيما يتعلق بفتح ملك الحبشة ، سواء العاصمة سلطان عدل على الساحل الأفريقى ، أو عدن على الجانب العربى من البحر الأحمر ، ربما نبتت بعض الآمال فى الحصول على بعض الضوء من حوليات بروس Bruces Annals عن تلك البلاد ، وبخاصة نظرا لأن الفصل الثانى يقرر انه يروى الأحداث منذ ١٢٨٣ حتى ١٣١٢ ، بما فيها المدة التى يتحدث عنها مؤلفنا ، على أن المعلومات الموجودة بها ذات صبغة عامة ومع انها تؤيد البيانات المنبئة بوجود ما لا نهاية له من الحروب والخلافات مع عدل الا انها لا تسجل أية عملية بعينها .

(٦) « تسكن الفيلة والخرأتيت والزرافة المناطق المنخفضة المنبطحة ، وكذلك ايضا لا يشاهد الأسد ولا النمر ولا الفهد فى المناطق المرتفعة والمزروعة . وليس ببلاد الحبشة ببر Tiger ، ولا فى آفريقيا كلها على حد علمى .. وتقوم قطعان لا حصر لعددها من القردة والزيناخ (البابون) ، من مختلف الأنواع بتدمير حقول الدخن بكل مكان » . انظر (بروس مج ٥ تذييل ص ٨٤) . « يفوق عدد الطيور بالحبشة عدد الحيوانات الأخرى بصورة تتجاوز كل تناسب » . ص ١٤٩ .

(٧) مع انه يقال ان الذهب يوجد بأنهارها ، فان أحدا من الكتاب المعاصرين لا يتحدث عنه بأنه يكثر بتلك البلاد ، ومع هذا فلما كانت شواطىء افريقيا المجاورة اشتهرت فى كل العصور بانتاج الذهب ، فان من المعقول الظن بأنه — فى أثناء أيام ازدهار الامبراطورية — ربما كان يجمع هناك من جهة الجنوب فى مقادير ضخمة ، وبسعر مجز يعود بمكسب ضخم ، متى بيع الى تجار بلاد العرب . يقول نيبور فى وصفه لبلاد العرب : « يوجد الكثير من الذهب الوارد من الحبشة بالمدن التجارية المهمة » ص ١٢٤ .

● هوامش الفصل الأربعين

(١) مهما يكن اسم المكان الذى وجهت عليه الحملة الحربية لملك الحبشة (على ما ذكر فى الفصل السابق) ، فليس ثمة شك فى أن عدن هذه الموصوفة هنا ، انما هى مدينة وميناء عدن الشهير الواقعة فى الطرف الجنوبى الشرقى لليمن أى بلاد العرب السعيدة — Arabia Felix والواقعة غير بعيد من مدخل البحر الأحمر • وحقا ليس من المدهش أن اسم مكانين متشابهين تماما (كعدل وعدن) ، وكانا موضوعى الحديث فى فصلين متعاقبين يختلطان على مترجمى هذا العمل ، فيظن خطأ أنهما لمكان واحد ، كما أنه ليس من المستبعد أن مؤلفنا نفسه ربما أساء فهم المعلومات التى تلقاها من الربابنة العرب •

(٢) يتحدث ده جنى عن أمراء أسرة صلاح الدين ، الذين حكموا عدن من عام ١١٨٠ فيقول : « بعد وفاة هذا الأمير ، التى حدثت حوالى ٦٣٧ للهجرة ، (وللميلاد ١٢٣٩) ، استولى تركمانى يسمى نور الدين عمر على حكم البلاد ، وأرسل الى الخليفة المستنصر يطلب اليه براءة تنصيبه سلطانا على اليمن ، فمنحه الخليفة طلبته » واستمرت هذه العائلة فى حكم اليمن الى ما بعد عام ٨٠٠ للهجرة (١٣٩٧ للميلاد) • (انظر : Tab. Chronol. ك ٧ ص ٤٢٦) • ونتيجة لهذا يكون أحد هؤلاء السلاطين هو الذى كان متربعا فى الحكم فى المدة التى يعالجها مؤلفنا •

(٣) هنا ورد بيان صحيح عن خط سير ما نسميه بالتجارة البرية من الهند • فالتجارة التى تجمع بميناء عدن ، عند أبواب البحر الأحمر تماما ، (كما يحدث فى الزمن الحاضر فى مخا Mokha الواقعة فى أول داخله تماما) كانت تنقل من هناك فى مواعين سهلة الجر فى الماء بسبب كثرة (المناطق الضحلة) - الى القصير ، وهى مكان على الشاطىء الغربى لذلك البحر ، يقع شمال محطة بيرينيس القديمة وهنا كانت البضائع تحمل على ظهور الابل ، فتنقل على هذه الشاكلة عبر الصحراء الى قوص ثم اخيرا الى قنا على النيل ، داخل بلاد مصر ، حيث كانت توضع فى قوارب اسمها الجرمات ، وهو اسم صحيح ، حتى يحملها التيار هابطا بها الى القاهرة ، ومنها بواسطة الخليج أو الترعة العظيمة الى

الاسكندرية ، المستودع التجارى الكبير الذى يزود أسواق أوربا بالسلع الشرقية ٠

(٤) سبق التحدث فى هوامش سابقة عن تصدير الخيول من بلاد العرب ، وخليج فارس الى بلاد الهند ، وبخاصة الولايات الجنوبية منها ٠

(٥) (أسلفنا اليك أن بابل هو الاسم الذى كان يطلقه أهل العصور الوسطى فى أوربا على القاهرة ، عاصمة مصر) ٠

● هوامش الفصل الحادى والأربعين

(١) مع انه فيما يتعلق بموقع هذا المكان بالنسبة لعدن ، ينبغى لنا بالضرورة أن نقرأ الشمال الشرقى بدلا من الجنوب الشرقى ، والمسافة تزيد كثيراً جداً عن اربعين ميلا ، فلا مجال للشك أن اسكير هذه لابد أن تكون الشحر Schahbr عند نيبور (أو شحر Shcher فى كتابتنا الحديثة) ، وسحر Sahar عند دانفيل وسير Seer فى رحلة أوفنجتون • واذا هى نطقت بالطريقة العربية الشحر ، اقتربت كثيرا من النطق الايطالى لكلمة Escier الشيير •

(٢) يقول هاملتن : « ان محصول البلاد هو المر واللبان ، والناس يبادلون عليهما بالمعبك (الدمور) الخشن الوارد من الهند ، ولكنهم لا يديرون تجارة ضخمة مع الأجانب » • (مج ١ ص ٥٥) • على ان التجارة الأهلية لذلك الجزء من العالم انحطت كثيرا فى ايامه ، عما كانت عليه فى الأيام التى كتب فيها باربوزا بعد الاستكشافات البرتغالية بقليل •

(٣) سبق الحديث عن طريقة الحصول على شراب مخمر مسكر من نقع البلح فى الماء الدافىء ، على ما يفعله الأهالى المقيمون بسواحل الخليج الفارسى • ويستقطر كذلك من البلح محلول كحولى •

(٤) نظرا لأن نيبور لم يزر هذه المنطقة من ساحل بلاد العرب ، فان معلوماتنا عنها ليست مباشرة تماما ولا تفصيلية بقدر ما كان ينبغى ، على أن عادة تجفيف السمك فى الشمس (وهى ليست بأية حال عادة شائعة) وان لم يلحظها فيما كتب بعنوان « غذاء العرب » ، لها ما يثبتها بالقدر الكافى فى مصادر اخرى •

(٥) تغيرت أهمية عدن بالنسبة للأقاليم المجاورة ، تغيرات جسيمة فى مختلف الآماد • فان سلطانها كان يمتد فى زمان مؤلفنا ، وفيما بعد تحت الحكم التركى ، ـــ الى الشحر وكيشين ، وأماكن اخرى تقع على الشاطىء الجنوبى لليمن وشاطىء حضرموت • وكانت عدن تابعة فى القرن السابع عشر لامام اليمن أو مخا • ثم استقلت فيما عقب ذلك من زمن وأصبحت غير ذات شأن •

● هوامش الفصل الثاني والأربعين

(١) ان دولفار في نسختنا هي ظفار عند نيبور وفي خرائطنا • واتجاهها من المكان المذكور أخيرا ، وفي تمشيه واتجاه الساحل اجمالا ، يكاد يكون شماليا شرقيا ، كما أن بعدها يتجاوز كثيرا ما هو وارد هنا •

(٢) خلعت هذه البلدة أيضا نير تبعيتها لسادة متعاقبين ، ويقول الكاتب الأول (نيبور) : « لظفار شيخ ابن مستقل » • ص ٢٤٨ على ان اوفنجتن يضيف قائلا : « يشتبك ملك ذلك المكان بين حين وآخر في مناوشات ومنازعات حربية مع جيرانه من الأمراء ، ملوك شير (اسكير أو شحر) وكاسين (كيشين) • » ص ٤٥٢ •

● هوامش الفصل الثالث والأربعين

(١) من الواضح أن قلاياتى هى قلحة الواقعة على ساحل عمان وعن غير بعيد جنوبا من مسقط · وكتب الاسم فى خريطة دانفيل « قلحة او قلجة » ، ويتحدث عنها نيبور (فى ص ٢٥٧) بأنها من اقدم مدن ذلك الساحل · على أن المسافة والموقع الواردين فى النص خاطئان تماما ، كما يحدث غالبا جدا ·

(٢) الأصل فى هذا اللقب أن يطلق على الملوك ، ولكنه كثيراً ما يطلق على الأفراد التابعين وعلى حكام الولايات · وكان سلطان أو ملك هرمز (المذكور فى الفصل الخامس عشر من الكتاب الأول) يعترف بانه تابع لملك كرمان ، وان حدث أنه كثيرا ما اشتبك معه فى الحروب ·

(٣) توجد بين اسم قلحة واسم القلعة من المشابهة والقربى ، وهى المكان الحصين القائم بوجه خاص على قمة جبل ما يمكننا من أن نعتبر أن هذا المكان قد اشتق اسمه من الظروف المحيطة به ، وانه سمى (شأن اماكن كثيرة بجهات مختلفة من العالم) باسم القلعة بالتخصيص ·

(٤) من هذا البيان المشير لجودة المرفأ (وهى ميزة لا اخال قلحة نفسها تملكها) ، وربما جاز لذا الظن بأن المقصود هو أن يشمل الوصف ميناء مسقط الشهير ، الذى يقع الى جوار القلحة ، ولعله كان تابعا لها فى ذلك الوقت واذ أنه كان يقع فى قاعدة خليج أوجون ، فان مؤلفنا يسميه خليج قلاتو ·

(٥) ينبغى أن يفهم من هذا أن موقع الحصن البارز فى البحر ؛ اذ يهيىء ملجأ للسفن المعدة للتطواف ويمكن حاميته من رؤية السفن التى تقترب من الشاطىء ، بينما هو بمأمن تام من كل هجوم ، كان يمنح الأمير الذى يملكه السيادة على تجار البحار ، فضلا عن الميناء التجارى العظيم الواقع الى جواره ، فاما أن من الأمور العادية أن تدرك السفن هذه

النقطة فواضح من يوميات نيبور عن رحلته من بمباى الى مسقط • وقد كان هذا النوع من الحروب الصغيرة التى تحدث عنها النص ، موجودا على طول الزمان ، ولا يزال بتلك المنطقة •

(٦) يقول أوفنجتن : « ان السلعة الرئيسية فى هذه البلاد هى البلح ، الذى توجد منه بساتين كاملة تمتد أميالا عديدة متتالية » • « والبلح عندهم من الكثرة والالتذاذ به والاعجاب ، بحيث يخلطونه بكل ما يتناولونه من انواع الطعام الأخرى ، ويأكلونه مستعيضين به عن الخبز ، بكل هذه الأرجاء من بلاد العرب ، ومعه ما تهيأ لهم من سمك ولحوم » • انظر Voy. if Surat. ص ٤٢٣ ــ ٤٢٧ •

● هوامش الفصل الرابع والأربعين

(١) لما كانت مدينة هرمز وصفت آنفا فى الفصل ٥١ من الكتاب الأول فان ما ورد هنا عنها لا يكاد يتجاوز تكرارا لما قيل : ومع أن هذا ربما عد ناحية تكشف عن افتقار جميع منهج أو عن ارتباك فى خطة العمل (: الكتاب) ، فانه من الناحية الأخرى دليل على أصالته بل حتى على استقامته المنطقية ، ذلك انه ربما يمكن ادراك أن هذه المدينة الشهيرة التى يبدو أن مؤلفنا أقام بها ردحا من الزمن، تؤلف نوعا من نقطة الارتكاز فى وصفه ، راح منها يترسم الأقاليم الداخلية العديدة والمدن الرئيسية الواقعة فى المسافة المتوسطة بين شطئان الخليج الفارسى وامبراطورية الصين ، وهى التى يعود فى النهاية ، فى دورة تخترق البحار الصينية والهندية والأثيوبية والعربية ، فيقتاد قراءه اليها ٠

(٢) نظرا لأنه فى أثناء الانقلاب الصيفى ، تكون الشمس عمودية تقريبا فوق بلاد العرب ، فان الجو يكون على الجملة هنالكشديد الحر فى شهرى يوليو وأغسطس ، بحيث لا يجرؤ انسان على الخروج الى الطريق الا فى حالات الضرورة القصوى ، بين الحادية عشرة صباحا والثالثة بعد الظهر ٠ وقلما اشتغل العرب أثناء هذه المدة ، والعادة أنهم يقضونها فى النوم فى بدروم (أو طابق تحت أرض يأتيه الهواء من أعلى ، بواسطة أنبوبة لتحريك الهواء ٠ وهذا هو ما يمارس فى بغداد وجزيرة شاردج (Chareds) وربما بمدن أخرى من نفس المنطقة » ٠ انظر (Descritpino de l'Arabie) ص ٦) ٠ ويقول الماجور رنل : « وصف لى المستر كالاندر المراوح المستخدمة فى طاطا باقليم سندى ، وهى أنابيب أو مواسير مثبتة فى الحيطان ، ومفتوحة لهواء أبرد قليلا ، وتقوم بنفس العمل الذى تقوم به أقماع التهوية فى السفن » ٠ وملاحظة هذه الطريقة العجيبة فى ادخال الهواء المنعش الى الطوابق السفلية من البيوت ، تعد برهانا غير عادى على أمانة مؤلفنا فى الملاحظة ٠ وحول موضوع هذه المراوح ، انظر أيضا « الافادة والاعتبار » (فى وصف مصر) تأليف عبد اللطيف موفق الدين عبد اللطيف البغدادى ، ترجمة سلفستر ده ساسى ص ٢٩٥ـ٣٠١ ٠

(٣) فيما يتعلق بكيسى أو كيسى ، وهى جزيرة بالخليج الفارسى كانت تجارة سيراف تنقل اليها ، انظر الهامشة ٢ ص ٤٣ ، فأما مملكة أو ولاية كرمان ، فانظر عنها الهامشة ١ ص ٥٦ ٠

(٤) زودنا المؤلف في الفصل الأول من الكتاب الثاني ببيـان تفصيلي عن التمرد الخطير ، الذى شق عصاه نايان بالاتفاق مع قايدو ، وهو أمير تترى قوى آخر ، على قبلاى قريبهما ومولاهما الأعلى ، وكيف تم القضاء على ذلك العصيان ، بهزيمة الأميرين المتحدين وموت الأول منهما فالى ذلك الفصل نحيل القارىء على انه يبدو مما قاله المؤرخون الصينيون أن قايدو (وهم يسمونه هايتو ، على طريقتهم من تعديل نطق الحروف) لم تضطره هذه الهزيمة الى الخضوع ، بل ظل يناصب الامبراطور عـداء متفاوت النشاط اثناء البقية الباقية من حكم قبلاى ، وجزءا من حكم حفيده وخليفته فى العرش تيموخان ، حتى اضطر ، وقد شتت شمل جيشه على ضفاف نهر ارتش ، الى التخلى عن القتال ، ومات بعد ذلك بمدة وجيزة كمدا ويأسا .

(٥) عندما غادر مؤلفنا بلاط بكين حوالى عام ١٢٩١ ، كان قايدو ـ مهما يكن تابعا اقطاعيا بالاسم لقبلاى ـ مستقلا بالفعل ، ورغم بعض القيود المفروضة عليه ، كان مع ذلك أميرا قوى السلطان . ويبدو ان الذى حدث بعد أن اتم قبلاى فتح الصين نهائيا ـــ وبدلا من الاحتفاظ بها على انها ولاية من ولاياته ، والتربع على عرشـها ، واختصاص نفسه بهوية سلسلة ملوكها ـــ هو أن بقية أمراء أسرة جنجيز خان اعتبروه متخليا بالفعل عن امبراطورية المغول التترية ، التى اسسها جدهم المشترك ، واتخذوا ، أو حاولوا أن يتخذوا لأنفسـهم ممـالك ذات سيادة من تلك الممتلكات المترامية التى لم تكن لهم فى الأصل الا اقطاعات وذلك هو فيما يبدو وضع الأمور ببلاد فارس ، وبلاد التتار الغربيـة وكذلـك الشمالية .

(٦) يقول تاريخ الحيوان « Hist. of Quadrupeds » ان الدب القطبى أو الدب الأبيض الضخم ، وهو (Ursas Albus) عند لينايوس يختلف اختلافا بالغا عن الدب العـادى فى طول الرأس والعنق ، ويكبر حتى يبلغ ضعف حجمه . ويصل طول بعض افراده الى ثلاثـة عشر قدما . وتتركنا المعاجم الايطالية فى حالة عدم تأكد من كلمة « بالمو Palmo » ، حيث يترجمها بعض المعـاجم بكلمة empan الفرنسية ومعناها الشبر ، وبعضها الآخر بكلمة « Pied » أى قدم . وطبقا للاحتمال الأول (وهو يتمشى أكثر مع المعقول)، واعتبار الشبر فى الرجل المتوسط الحجم ثمانى بوصات ، فان القياسين يتطابقان فى حدود طفيفة ؛ حيث يكون عشرين شبرا معادلة لثلاثة عشر قدما وأربع بوصات .

(٧) يقول المرجع نفسه : « ان الثعلب الأسود يعد ثمينا جدا من اجل فرائه ، ويعد فى روسيا افضل كثيرا من افخر انواع فراء السمور . اذ يباع الجلد الواحد بأربعمائة روبل » . ويقول بل : « ان فراءها يعتبر

أجمل أنواع الفراء قاطبة ، بل انه ليفضل على السمور الأسود ، من حيث خفته ودفئه » . مج ١ ص ٢٢٢ .

(٨) « ان السمور الأسود الذى يسمى mustela Zibellina فى تصنيف لينايوس .Lin والذى يلقى تقديرا عاليا من اجل فرائه ، يعيش فى المناطق الثلجية الشمالية ، وهو يوجد فى سيبيريا بوجه خاص . واقتم الفراء اغلاه ثمنا . وان جلدا واحدا لا يزيد عرضه عن أربع بوصات ، ليقدر ثمنه أحيانا بخمسة عشر جنيها . ويختلف السمور عن كل أنواع الفراء الأخرى فى أن شعره يميل بسهولة تامة فى الاتجاهين المتقابلين (Hist. of Quadrupeds) ورد اسم الروند — الذى يظن انه كلمة مغولية — فى الفصل ١٦ من الكتاب الثانى ، ولكنه لم يفسر هناك على أن معناه السمور . (انظر هـ ٢٠ ، ص ١٩٩) .

(٩) يتضح لنا بالاطلاع على الخريطة ، أن منابع عدد من الأنهار العظيمة ، التى تصب مياهها شمالا وشرقا ، توجد بالسهول المرتفعة بين خطى عرض ٤٥ و ٥٥ درجة ، وهى الأماكن الأصلية التى ترتادها هذه الجحافل الجوالة والتى يصح لنا تبعا لهذا أن نتوقع بها اقليما تغمره المياه كالذى يصفه هذا النص » . والحق أن اقليم بارابا (بين نهرى الأرتش والأوبى) ومعناها المنبسط المائى الفسيح اسم على مسمى بمعنى الكلمة . فهو مملوء على الجملة بالبحيرات واراضى المستنقعات وهو مزدحم بغابات طويلة من أشجار الحور وجار الماء والصفصاف ونباتات مائية أخرى انظر « Bell's Travels » مج ١ ص ٢٠٥ .

(١٠) ان هذه المحطات ، مهما بلغ من ضآلة شأنها من حيث المبانى أو السكان ، هى من النوع المسمى بلغة الروس ، الذين تضم امبراطوريتهم الاقليم الجارى وصفه هنا ، باسم أوستروج ostrog اى القرى ، كما أن المنازل هى نفسها التى يسميها المسافرون من كمشتكا واليها باسم بالاجان Balagan لا الاسبا Isba أى بيوت الجزوع والعروق الخشبية . (ولعلها الأصل فيما نسميه العزبة) .

(١١) يقول الكابتن كنج : « يقارب طول الزلاقات أربعة أقدام ونصف ؛ وعرضها قدم واحد ؛ وهى مصنوعة على شكل هلال من خشب خفيف صلب وقد ربطت بعضها ببعض ربطا قويا بالأماليد المجدولة Wicker Work وتقوم على أربع أرجل ، ارتفاعها قدمان ، تستقر على قطعتين طويلتين مسطحتين من الخشب ، وعرضهما خمس أو ست بوصات وتمتدان قدما واحدا عند كل من طرفى الزلاقة ، وهما ترفعان اماما ، على طريقة الزلاقة الرياضية كما انها تكسى من الخارج (كحدوة الحصان) بعظام بعض

انواع الحيوانات البحرية » • انظر : Cook's 3rd Voyage, Continuation
مج ٢ — ص ٢٠٢ •

(١٢) من المعروف الآن جيدا أن الكلاب تستخدم للجر بالأقاليم الشمالية الشرقية من بلاد التتر ، أجل انه يبدو هناك بعض المبالغة حول حجمها ، وان جاز ان السلالة انحطت فى مدى الأعوام الخمسمائة التى انصرمت • يقول الكابتن كنج : « ان هذه الكلاب تشبه فى شكلها الى حد ما السلالة البوميرانية ، وان كانت أكبر منها كثيرا » • ص ٢٠٤ •

(١٣) يقول الكابتن : « ان الزلاقة قلما استخدمت لحمل أكثر من شخص واحد فى وقت واحد • فيجلس جانبا مركزا قدميه على الجزء السفلى من الزلاقة ، وحاملا مئونته ولوازمه الأخرى ملفوفة فى ربطة خلفه • والسادة أن تكون الكلاب خمسة ، مقرونة كل زوجين معا مع دليل لها فى المقدمة » •• « ولأننا لم نرد أن نعتمد على مهارتنا ، فان كل واحد منا كان معه رجل ليسوق الزلاجة ويوجهها ، وهى عملية ظهر انها شاقة جدا نتيجة لسوء أحوال الطرق •• وذلك لأن الذوبان كان تقدم تقدما ضخما جدا » • (صص ٢٠٣ــ٢٠٥) يقول ليسيبس : « يتوقف عدد الكلاب التى يلزم ربطها بالزلاقة على مقدار الحمولة ، فعندما تكون اكثر قليلا من وزن الشخص الذى يركب الزلاقة ، يتكون فريق الكلاب فى أربعة أو خمسة •• فأما زلاقات العفش أو الأمتعة فتجرها عشرة كلاب » • ص ١١٨ •

● هوامش الفصل الخامس والأربعين

(١) هذا وصف صحيح للظاهرة التى تشاهد حول الدائرة القطبية الشمالية والمناطق القطبية ، حيث يحدث ، أثناء فصل الشتاء أو الفصل الذى تكون فيه الشمس دون الأفق أثناء دورة الأرض اليومية بكاملها ، أن تمنع قوة السحر – رغم ذلك – وجود الظلمة التامة .

(٢) يلوح أن الشعب المشار اليها هنا هو التونجوزى أو جيرانهم الساموييد من جهة أو من جهة أخرى الياكوت الذين يسكنون الاقليم المجاور لنهر لينا . يقول بل : « ان التونجوزى ، الذين يسمون بهذا الاسم نسبة الى نهر (تونجوسكا) ، الذى يعيشون على امتداد جانبيه ، هم سلالة سكان سيبريا القدامى ، ويختلفون لغة وعادات وملبسا ، بل حتى فى أشخاصهم وقامتهم ، عن كل القبائل الأخرى من هذه الشعوب التى أتيح لى رؤيتها . وهم قوم ليست لديهم بيوت يقيمون بها اية فترة من الزمن ، بل يتجولون على هواهم خلال الغابات أو على امتداد الأنهار » (مج ١ ص ٢٢٥) والرجال طوال القامة متينو الأجسام كما أنهم شجعان شديدو الأمانة . وينبغى أن يلاحظ أنه ابتداء من هذا النهر وشمالا حتى المحيط المتجمد ، لا يوجد أى سكان ، الا قلة من التونجوزيينTongusians المضاربين على ضفاف الأنهار الكبرى ، اذ يغطى كل هذا الاقليم المترامى الأطراف غابات مظلمة كثيفة لا يمكن اختراقها» . ويقول الرحالة نفسه : « قبل أن اغادر اليمسكى ، سأورد بيانا موجزا عن بعض الأماكن المجاورة ، وبخاصة تلك الواقعة الى الشمال الشرقى بإزاء نهر لينا وياكوتسكى ، وذلك طبقا لما سمعته من رحالة ، أستطيع أن أعتمد اعتمادا تاما على صدقهم . فمن سافر شتاء من هنا الى هذه الأماكن ، جعل سفره على الجملة فى يناير أو فبراير . وهى رحلة بالغة الطول والمشقة ، وليس لاحد القدرة على القيام بها الا التونجوزيين أو امثالهم من الأقوام الأشداء » ، (ص ٢٣٤) . ويختلف الياكوت اختلافا قليلا عن التونجوزيين ، فى كل من تكوينهم الجسدى وطريقة عيشهم ، فهم يشتغلون مثل غيرهم من الأهالى بصيد السمك واقتناص الحيوان » . (ص ٢٤٠) .

(٣) ان أسماء الحيوان التى تعقب فى نسخة راموسيو اسم « القائم Armellini هى فارى واركولينى » . والأول منهما هو Vares sen varii المذكورة فى المسارد Glossaries (أى الشروح الختاميـة

اللاتينية ومن كلمة (Vairs) التى تدل على نوع من الدلق أو ابن عرس ، ذى اللون الرمادى المبيض • فأما الاسم الآخر الوارد فى نسخة بال « Herculini » و « Erculini » فلم أوفق فى العثور عليه لا فى المعاجم ولا فى التاريخ الطبيعى ، على أنى وجدت فى القائمة الفخمة الفروات (Furs) التى وضعها البروفسور بالاس باعتبارها تؤلف جزءاً رئيسيا من التجارة الصينية مع الروس على التخوم ، اسم جلد حيوان صغير وأسماه الفرنسيون « Vielfrass » وأسماه الألمان « فييلفراس » goulu أو Glouton بمعنى المنهوم أو الأكول ؛ وأسماه الايطاليون Adeigoloso وهى الكلمة التى ربما صحفت الى Bell ويلاحظ بل Arcolino هذا الحيوان نفسه ببلاد المغول •

(٤) من المعروف تماما لدى من يتجرون فى الفراء • ان اثمنها هى ما يحصل عليه من أبرد الأجواء ، وهو أمر يتوافق مع اقتصاد الطبيعة المألوفة •

(٥) من المحتمل أنه فى المدة التى كانت سيبريا فيها مستقلة ، كان الفراء الذى يرام بيعه فى الأسواق الأوربية ينقل بأجمعه الى مكان يسمى فرشاتوريا ، فى الجانب الروسى من توبولسكى ، وقرب سلسلة الجبال المسماة فرشاتورسكى جورى . يقول بل : « ان هذه الجبال تفصل روسيا عن سيبيريا • وهى تجرى مكونة سلسلة جبلية من الشمال الى الجنوب » • « والشىء الذى يجعل لفرشاتوريا اهميتها هو وقوعها على التخوم ، وتحكمها فى المدخل الوحيد من روسيا الى سيبيريا » • مج ١ ص ١٧٢ •

● هوامش الفصل السادس والأربعين

(١) قيل هنا عن الروسيا انها ولاية لأن التتار اجتازوها واخضعوها لسلطانهم مع شطر ضخم من مملكتى بولندة والمجر بقيادة باتوخان حفيد جنجيزخان حوالى عام ١٢٤٠ ، وظلت تئن تحت نسير هؤلاء البرابرة الهمج ، حتى الأوان الذى كتب فيه مؤلفنا ، والى ما بعد ذلك بعدة سنوات .

(٢) ان هذا ينطبق مباشرة على بلاد الساموييديين ، الذين ، كما يلاحظ بنكرتن : « يظهرون لأول مرة خارج نهر ميزان ، على بعد حوالى ثلاثمائة ميل داخل الدائرة القطبية » .

(٣) المقصود بالتتار الغربيين هنا هو رعايا باتوخان وخلفاؤه الذين ورثوا نصيبه من امبراطورية جنجيز خان ، وهو اقاليم « الكبشاك والالان والروس والبلغار » وفى تمييز عن هؤلاء التتار الغربيين ، يطلق اسم التتار الشرقيين ــ فى مواطن أخرى ــ على اتباع هولاكو وسلالته الذين استقروا بخراسان وفارس .

(٤) بطبيعة الحال كان عدد الحيوانات البرية ، التى يشكل فراؤها سلعا تجارية ، اكبر كثيرا بالروسيا يوم كانت البلاد اقل سكانا واضيق رقعة زراعية مما هى فى الوقت الحاضر . فأما الآن فان اكثر الفروات التى تصدر عددا واغلاها ثمنا هى ما تنتجه مناطقها السيبيرية ، وهى التى تجمع بوصفها جزءا من جزية الدولة أو ايراداتها ، ولكن حتى قبل اكتشاف ذلك القطر وفتحه عسكريا ، كان الفراء يحصل عليه بسعر معتدل عن طريق المقايضة على الحدود . ويصدر الشمع بمقادير كبيرة وبخاصة الى انجلترا .

(٥) لا يبدو فى أى بيان حديث عن تلك البلاد ، ان مناجم الفضة تستغل الآن بروسيا الأوربية ، ولكن ربما كان ذلك موجودا فيما سلف واستنفد ما فيه . على أن الولايات السيبيرية يوجد بها الذهب والفضة كلاهما . (ويذكر ابن بطوطة مناجم الفضة الروسية) .

● هوامش الفصل السابع والأربعين

(١) ورد هذا الفصل والفصول التى تليه حتى ف ٦٣ ، فى النسخة الاصلية بين منتصف الفصل ٤٤ فى ترجمة مارسدن ، وفصله الخامس والأربعين ، ولكنها ألغيت فى النسخ التى ترجم عنها مارسدن ٠

(٢) توضيحا للمسائل التاريخية التى تحتويها هـذه الفصـول الاضافية ، نرجع القارىء الى النص والهوامش صص (٢٧ الى ٣٠) من هذا الكتاب ٠

(٣) هو نهر جيحون ، أو أكسوس Oxus عند الأقدمين ، أمودريا الآن ٠

(٤) النقرزان Nacar أو Nacaire ، كان نوعا من الطبول ، او صنجا ، يستخدم فى الشرق فى الموسيقا العسكرية ، ولا تجهله بلاد الغـــرب ٠

● هوامش الفصل التاسع والأربعين

(١) فى النسخة اللاتينية التى نشرتها الجمعية الجغرافية بباريس ، كتب اسم السيدة أرجيا لكوكور أو أرجيا لتشوكور · وهى فى النسخة الايطالية ايجيارن ·

(٢) ان هذا الاسم ، الذى حذف من النسخة الفرنســية ، مأخوذ من الايطالية وورد فى احدى المخطوطات الايطالية : بيومر ·

(٣) عن التتار الشرقية أى تتار فارس وخراسان · انظر الهامشة ١ ص ١٢ ·

● هوامش الفصل الخمسين

(١) كان كتاب العجائب التى شاهدها الاسكندر فى فتوحه الشرقية ، الذى يدعى أن مؤلفه هو ارسطو طاليس ، موضع المحبة الشديدة من الناس ابان العصور الوسطى ، كما انه اتخذ اساسا لكثير من الآراء المنتشرة الشيوع بين الناس فى كل من علمى الجغرافيا والتاريخ الطبيعى • وعن الشجرة الجافة انظر ص ٧٢ من كتابنا هذا •

● هوامش الفصل الرابع والستين

(١) تعقب الفصول التالية ، الفصل الأخير فى ترجمة مارسدن .

هوامش الفصل التاسع والستين

(١) أعنى أنه فتى لم يصل بعد الى مستوى الفارس • وبديهى أن منكوتيمور وتوتامنكو ، هى نفسها الأسماء التى كتبت فى الفصل ٦٤ منجلتيمور وتوتا مونجور •

(٢) فى النسخة المطبوعة ، التى ترجمنا عنها ، فى هـذا الفصـل والفصول التالية ، يكتب توتامنكو خطأ بدلا من تولوبغا ، كما يحدث العكس، مما يترتب عليه حدوث ارتباك كبير فى القصة : ورأينا الأوفق أن نصحح هذا الخطأ أثناء الترجمة •

اقـرأ فى هـذه السـلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رسـل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكاية
نقطـة مقابل نقطـة	الدس هكسـلى
الجغـرافيا فى مائة عـام	ت · ر · فريمـان
الثقـافة والمجتمـع	رايمونت وليـامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر · ج · فوربس
الارض الغـامضة	ليسـترديل راى
الرواية الانجليـزية	والتـر الـن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجـاس
آلهـة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشـاشة	د · قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	اولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشـم النحـاس
مجمـوعات النقـود	ديفيد وليـام ماكدوال
الموسيقى ــ تعبير نفسى ــ ومنطـق	عزيز الشـوان
عصر الرواية ــ مقال فى النوع الادبى	د · محسن جاسم الموسوى
ديـلان تومـاس	اشراف س · بى · كيكس
الانسـان ذلك الكائن الفـريد	جـون ويسـت
الرواية الحـديثة	بول لوريس
المسرح المصرى المعاصر	د · عبد المعطى شعراوى
على محمـود طـه	انـور المعـداوى
القـوة النفسـية للاهرام	بيـل شول وادبتيت
فـن الترجمـة	د · صـفاء خـلوصى
تولسـتوى	رالف ئى ماتلـو
سـتندال	فيكتور برومبير

رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات في مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدني هوك
فن الأدب الروائي عند تولستوي	ف • ع • أدنيكوف
أدب الأطفال	هادي نعمان الهيتي
أحمد حسن الزيات	د • نعمة رحيم العزاوي
أعلام العرب في الكيمياء	د • فاضل أحمد الطائي
فكرة المسرح	جلال العشري
الجحيم	هنري باربوس
صنع القرار السياسي	السيد عليوة
التطور الحضاري للانسان	جاكوب برونوفسكي
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د • روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتي ثير
الموتى وعالمهم في مصر القديمة	أ • سبنسر
النحل والطب	د • ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى	جوزيف داهمس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د • لينورا تشامبوز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما في السنة	د • جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتي في الفن التشكيلي	الدكتور غبريال وهبه
الأدب الروسي قبل الثورة البلشفية وبعدها	د• رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز في عالم متغير	د• محمد نعمان جلال
الفكر الأوروبي الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل • باومر
الفن التشكيلي المعاصر في الوطن العربي ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعي
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د• محيي الدين أحمد حسين

نظريات الفيلم الكبرى	تأليف : ج٠ دادلى اندرو
مختارات من الأدب القصصي	جوزيف كونراد
الحياة في الكون كيف نشأت وأين توجد؟	د٠ جوهان دورشنر
حرب الفضاء	مجموعة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدولية	د ٠ السيد عليوة
الميكروكمبيوتر	د ٠ مصطفى عنانى
مختارات من الأدب الياباني	صبرى الفضل
الفكر الأوروبي الحديث (٣ ج)	فرانكلين ٠ ل ٠ باومر
تاريخ ملكية الأراضي في مصر الحديثة	جابرييل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطونى دى كرسبنى
كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
الزمن وقياسه	زافيلسكى ف ٠ س
اجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي	بيتر رداى
سبعة مؤرخين في العصور الوسطي	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س ٠ م بورا
مراكز الصناعة في مصر الاسلامية	د٠ عاصم محمد رزق
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د ٠ سمبسون ونورمان د٠ اندرسون
الشارع المصرى والفكر	د ٠ أنور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت وتيمان روستو
تبسيط الكيمياء	فرد ٠ س ٠ هيس
العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت
التذوق السينمائي	الان كاسبيير
التخطيط السياحي	سامى عبد المعطى
البذور الكونية	فريد هويل شاندرا ويكراما سينج
دراما الشاشة (٢ ج)	حسين حلمى المهندس
الهيروبين والايدز	روى روبرتسون
صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس

الكمبيوتر في مجالات الحياة	د. محمود سري طه
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لوري
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية أسماك الزينة	ديفيد الدرتون
كتب غيرت الفكر الانساني (٣ ج)	احمد محمد الشنواني
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جون ر. بورز وميلتون جولدينجر
الفكر التاريخي عند الاغريق	أرنولد توينبي
قضايا وملامح الفن التشكيلي	د. صالح رضا
التغذية في البلدان النامية	م.هـ. كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات في مصر الاسلامية	د. السيد طه أبو سديرة
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	أريك موريس وآلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جون بورد
الأساطير الاغريقية والرومانية	ب. كوملان
تاريخ العلم والتكنولوجيا	ر.ج. فوربس
التوافق النفسي	توماس ا. هاريس
الدليل الببليوجرافي	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى أرمز
الثورة الاصلاحية في اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميخائيل البى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالي	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة (٢ ج)	الفردوسي الطوسي
الحياة الكريمة (٢ ج)	بيرتون بورتر
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد ، كوبريلي

عن النقد السينمائي الأمريكي	ادوارد ميرى
تراتيم زرادشت	اختيار / د٠ فيليب عطية
السينما العربيــة	اعداد / مونى براخ وآخرون
دليـل لتنظيـم المتــاحف	آدمز فيليب
سقوط المطر وقصص اخـرى	نادين جورديمر وآخرون
جماليـات فن الاخــراج	زيجموند هبنر
التاريخ من شتى جوانبه ٣ ج	ستيفن أوزمنت ،
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
العثمانيون في أوربا	بول كــولنز
الكنائس القبطية القديمة في مصر ٢ ج	الفريد ج٠ بتلر
رحلات فارتيما	رودريجو فارتيمــا
انهم يصنعون البشر	فانس بكارد
في النقد السينمائي الفرنسي	اختيار / د٠ رفيق الصبان
السـينما الخيالية	بيتــر نيكوللز
السـلطة والفرد	بوتراند راسل
الأزهر في ألف عام	بينــارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سفر نامه	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانيــة	نفتالى لويس
كتابة التاريخ في مصر ق ١٩	جاك كرابس جونيــور
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الآداب الأسيوية	اختيار / صبرى الفضل
كتب غيرت الفكر الانسانى ٣ ج	أحمد محمد الشنوانى
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتو تود
حديث النهر	اعداد / سوريال عبد الملك
من هم التتــار	د٠ ابرار كريم الله
ماستريخت	جابر محمد الجزار
معــالم تاريخ الانسانية ٤ ج	هـ ٠ ج ولز
حضارة الاسلام	جوستاف جرونيباوم
الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان

الطفل ٢ جـ	أرنولد جزل وآخرون
افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
السحر والعلم والدين	برنسلاو مالينوفسكى
الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ	ادمز متز
الكون ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
كوننا المتمدد	ايفر شاتزمان
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
رحلة فاسكو دا جاما	فاسكو داجاما
حروب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية	سوندراى
الأعلام التطبيقى	فرانسيس ج • برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج كارفيل
تحول السلطة	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ادوارد وبونو
فن المايم والبانتومايم	توماس ليبهارت
السيناريو فى السينما الفرنسية	كريستيان سالين
خفايا نظام النجم الأمريكى	بول وارن
رحلة جوزيف بتسى	جوزيف بتسى
الفيلم التسجيلى	محمود سامى عطا الله
بين تولستوى ودوستويفسكى	جورج ستاينز
المرأة الفرعونية	كريستيان دى روش
فن الفرجة على الأفلام	جوزيف • م • بوجز
ما هى الجيولوجيا	ويليام ماثيوز
الحمر والبيض والسود	جارى ب • ناش
انواع الفيلم الاميركى	ستانلى جيه صولومون

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٦/٢٠١٠

ISBN — 977 — 01 — 4668 — 4

في عام ١٢٧١ خرج ماركوبولو، وكان آنذاك في السابعة عشر من عمره، مع أبيه وعمه في رحلة عجيبة انطلقت بهم من مدينة البندقية في ايطاليا وحملتهم عبر قفار وجبال وسهول آسيا الشاسعة حتي أرض الصين في عصر الأمبراطور المغولي العظيم قبلاي خان الذي احتفي بهم وضمهم إلي حاشيته فعاشوا هناك سنوات طويلة...

وقد دون ماركوبولو اخبار رحلته هذه في ذلك الكتاب الذي يعد أشهر وأهم كتب الرحلات قاطبة، فهو سجل فني نادر لحياة الكثير من الشعوب والحضارات القديمة التي إندثرت اليوم ولم تبق منها سوي تلك الصور التي التقطها ماركوبولو بقلمه عنها، فهو علي طرافته مرجع علمي عظيم عن تاريخ آسيا والصين في العصور الوسطي..

وقد ترجم هذا الكتاب إلي العربية مترجم قدير هو الأستاذ عبدالعزيز توفيق جويد ضمن إسهاماته المتعددة في إثراء المكتبة العربية بالنفيس والهام من الكتب..

وفي الجزء الثالث من الرحلة نتنقل مع رحالتنا عبر أراضي الهند، جزيرة جاوه، جزيرتي صوندور وكوندور، جزيرة بنتان، جزيرة نوكويران، جزيرة أنجامان، جزيرة زيلان، جزيرة سقطري، جزيرة مدغشقر، جزيرة زنزيبار وتركيا.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب